بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾

سورة : فصلت : آية : ٥٣

الباب الأول : جاء بعنوان : « الحياة الروحية فى الإسلام » .

واشتمل هذا الباب على خمسة فصول ، كل فصل من هذه الفصول يتحدث عن موضوع بعينه . من هنا جاء ترتيب الفصول :

الفصل الأول : هذا الفصل أسميناه : « فصل تمهيدى » . يتحدث عن الحياة الروحية التى يخضع فيها الإنسان لألوان مختلفة من مجاهدة النفس . وكذلك نشأة الحياة الروحية فى الإسلام .

الفصل الثانى : عنوان هذا الفصل : والحياة الروحية عند الرسول صلى الله عليه وسلم ويحدثنا عن هذا الفصل عن الحياة الروحية من جانبين :

الجانب الأول : تمثلت محمد ﷺ فى الجاهلية فى الفترة التى كان يقضيها متعبداً فى غار حراء ، وفيما كان يخضع له نفسه من مجاهدة وعزلة عن الناس . وكان يحيا حياة روحية خالصة لا تشوبها شائبة شوائب الحياة المادية .

الجانب الثانى : أحوال النبى ﷺ وأقوال فى الحياة الروحية .

الفصل الثالث : يدور هذا الفصل حول : « الحياة الروحية عند الصحابة » . فلقد كانت حياتهم حافلة بالأحوال والأقوال التى تدل دلالة واضحة على زهدهم ووعهم وتشفهم وغير ذلك من مظاهر الإقبال على الله والإعراض عن الدنيا .

الفصل الرابع : يأتى هذا الفصل متناولاً : « هجرة الأبدان امتداد لهجرة القلوب » . ولقد أوضحت الدراسة أن الهجرة النبوية لم تكن هجرة للجسد ، وإنما كانت هجرة للجسد والنفس معاً . أو إن شئت فقل : هجرة للروح .

هذا وينبغى أن توضح أن هجرة الأبدان لا تقع عند الله موقعها إلا إذا كانت لتلبيه لهجرة القلوب وامتداد لها .

الفصل الخامس : يوضح هذا الفصل الحياة الروحية عند التابعين فى كونهم ساروا على نهج النبى وأصحابه ، وكان لهم أثرهم الخصب المنتج لأحسن الثمرات فى تغذية الحياة الروحية وتنمية بذورها .

الباب الثانى : يعالج هذا الباب بشىء من الدقة والتركيز النظر والتدبر فى الكون ويقع هذا الباب فى سبعة فصول . وكل فصول هذا الباب تتحدث عن العلاقة بين الخالق والمخلوق من جهة ، وكذلك بينه وبين الكون من جهة

أخرى . وبعبارة أخرى نستطيع أن نقول : العلاقة بين الإنسان والكون ومكون الكون سبحانه وتعالى . وتأتى فصول هذا الباب على النمط التالى :

الفصل الأول : هذا الفصل يتكلم عن : « الإنسان والكون » . وتظهر دراسة هذا الفصل العلاقة بين الإنسان والكون الفسيح الذى يعيش بين أحضانه .

الفصل الثانى : يبين هذا الفصل حكمة الله وقدرته فى الكون .

الفصل الثالث : انصبت دراسة هذا الفصل فى الحديث عن الآيات الظاهرة للتفكر والتأمل والتدبر .

الفصل الرابع : أما عن هذا الفصل فكان موضوع دراسته هو : « التفكر فى الأيام وغيرها » .

الفصل الخامس : يوضح هذا الفصل أسس البحث فى آيات الله الكونية ويعالجها من خلال مباحث أوردناها على النمط التالى :

أولاً : تحرير الإنسان من العبودية أو العدوان لقوى الكون .

ثانياً : بدأ تعليل الحوادث الكونية ، والبحث عن أسبابها ، وغاياتها ، ونواميسها .

ثالثاً : مبدأ تسخير قوى الكون للإنسان .

رابعاً : مبدأ حدوث الكون وأنه مخلوق خلقه الله لهدف وغاية .

خامساً : خضوع الكون لسنن سنها الله وفق مقادير قدرها .

سادساً : الكون مسير وقائم بقدرة الله تعالى .

سابعاً : وحدة نظام الكون نتيجة لازمة لتوحيد الخالق .

الفصل السادس : يناقش هذا الفصل بشىء من الدقة والتركيز تصنيف الآيات الكونية ، ويوضح مجال التصنيف حسب العلوم الكونية المعاصرة . كما لا يغفل جانباً هاماً من الجوانب التى تتحدث عن المزلقات التى تخشى من مقارنة الآيات الكونية بالعلوم الطبيعية كما أن هذا الفصل يعقد مقارنة بين النظرة الإسلامية والغربية إلى الكون .

الفصل السابع : يتناول هذا الفصل جملة من الباحث نوضحها على الترتيب التالى :

الجمال الكونى

التعريف بالجمال .

صلة الإنسان بالله وبالكون .

العلاقة بين المحبة والجمال الكونى .

الجمال الإلهى المطلق .

الجمال الظاهر والجمال الباطن .

أولاً : الجمال الظاهر .

ثانياً : الجمال الباطن .

الجمال والجلال .

أولاً : تعريف الفناء .

ثانياً : الفناء فى الجمال .

ثالثاً : الفناء فى الجلال .

رابعاً : الفناء بالجمال والجلال .

الله جميل يحب الجمال .

وكل هذه المباحث تتحدث عن العلاقة الوثيقة بين الإنسان والكون .

الباب الثالث : ويجئ الباب الثالث من هذا البحث ليحدثنا عن حقيقة التفكر وثمرته عارضاً ذلك من خلال فصول كل فصل من هذا الباب جاء بموضوع قائم بذاته .

الفصل الأول : يعد هذا الفصل من أكبر فصول هذا الباب بل هو أكبر فصول هذا البحث ولأهميه الدراسة التى جاءت بهذا الفصل قسمناها إلى مباحث كل مبحث من هذه المباحث يتحدث عن فكره تدور حول موضوع هذا الفصل . ولما كان موضع هذا الفصل هو « باب التفكر » جاء على الترتيب التالى :

درجات التفكر : أوضحنا هذه الدرجات عندما تحدثنا عنها فى هذا الفصل . وعللنا ذلك بما أوضحه القرآن الكريم فى أكثر من آية تدعو إلى الحث على التفكر فى مخلوقات الله .

كما أن التفكر يدعو إلى العمل والخير . وكذلك ينبغى على الإنسان أن يفكر فى الآيات الكونية ولقد أمر الله سبحانه وتعالى الإنسان بالتفكر فى نفسه فإن فى خلقه من العجائب الدالة على عظمة الله سبحانه وتعالى .

ومن الأمور الجديرة بالاعتبار أن آيات الله فى أنفسنا لها دلالتها العصرية . لذلك يجب معرفة المنطلقات والأصول الفكرية والاعتقادية الإسلامية حول الإنسان ليتقيد بها كل من يصنف أو يدرس شيئاً عن آيات الله فى الإنسان .

ويعرج بنا هذا الفصل ليحدثنا عن الإنسان فى المنهج الإسلامى والمناهج الأخرى موضحاً :

أولاً : حقيقة الإنسان وأصله .

ثانياً : تكريم الإنسان وتفضيله .

ثالثاً : قدرة الإنسان على التمييز والاختيار والاهتداء بوحى الله ورسله .

رابعاً : مسؤولية الإنسان وجزاؤه .

خامساً : قدرة الإنسان على المعرفة والعلم والثقافة .

وينتقل هذا الفصل ليحدثنا أيضاً عن حقيقة الإنسان والغاية التى خلق من أجلها وأن سعادة الإنسان إنما تنال بالفضائل والبعد عن الرذائل .

ولقد اشتمل هذا الفصل الحديث عن عناية الله سبحانه وتعالى بالإنسان فخلق له جميع الكائنات وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض ، ولمعرفة هذه العناية يجب على الإنسان أن ينظر بعين التفكير والاعتبار إلى ما خلقه الله وسخره له ليدرك أن الله سبحانه وتعالى عنى به عناية كبرى حيث خلق له كل شىء موافقاً لوجوده .

كما أن هذا الفصل حدثنا عن حكمة اختصاص الإنسان بحمل الأمانة .

وينتهى هذا الفصل بالحديث عن الآيات القرآنية فى النفس الإنسانية :

أولاً : خلق الإنسان من تراب .

ثانياً : خلق الإنسان فى أحسن تقويم .

الفصل الثانى : يتضمن هذا الفصل الحديث عن التفكر والاعتبار متناولاً من خلال هذه الفكرة القرار إلى الله سبحانه وتعالى ، ثم يحدثنا عن السياحة الروحية .

الفصل الثالث : يعالج هذا الفصل موضوع : « طرق المعرفة الكونية » من خلال مباحث جاءت على الترتيب التالى :

الطريق الأول : طريق النظر إلى ملك السموات والأرض .

الطريق الثانى : طريق الأسباب والمسببات .

السياحة النفسية أو نهج النظر النفسى .

الطريق الثالث : طريق الشعور الباطنى .

الطريق الرابع : طريق المفعولات المحضة .

الطريق الخامس : طريق البديهيات العقلية النقية .

الطريق السادس : الطريق التنسكى .

الفصل الرابع : يختتم الباب الثالث والأخير من هذا البحث بهذا الفصل الذى يتناول موضوع : « المشاهدات الكونية » من خلال مباحث رتبناها على الوجه التالى :

أولاً : مشهد التوحيد للواحد .

ثانياً : مشاهدة التوحيد بالتوحيد .

ثالثاً : الرؤيا والشهود .

رابعاً : المشاهدات الكونية .

خامساً : المشاهدة الملكونية .

سادساً : الشهود البصرى .

سابعاً : مفتاح الفكر .

ثامناً : مفتاح التدبر .

وفى نهاية البحث قدمنا النتائج التى أمكن التوصل إليها من خلال لما استعرضناه من موضوعات عارضاً فيها وجهة النظر النقدية بالإضافة إلى ماتضمنه البحث من استنتاجات .

وقد ذيلنا البحث بقائمة تحوى أهم المراجع التى استخدمناها بالإضافة إلى مجموعة المراجع والأصول التى اعتمدنا عليها .

والله سبحانه وتعالى نسأله أن يجعله خالصاً لوجهه وأن يتقبله بقبول حسن وأن يجعله صدقة جارية وينفع به المسترشدين إنه سميع قريب مجيب الدعاء . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الدكتور

عبد البارى محمد داود

الباب الأول

الحياة الروحية فى الإسلام

الفصل الأول : فصل تمهيدى

الفصل الثانـــى : الحياة الروحية عند الرسول ﷺ

أولاً : تحنث محمد فى الجاهلية

ثانيا : أحوال النبى ﷺ وأقواله الحياة الروحية

الفصل الثالـث : الحياة الروحية عند الصحابة

الفصل الرابـــع : هجرة الأبدان امتداد لهجرة القلوب

الفصل الخامس : الحياة الروحية عند التابعين

الفصل الأول

فصل تمهيدى

فى البداية ينبغى أن نوضح الحياة الروحية هى التى يخضع فيها الإنسان لألوان مختلفة من مجاهدة النفس ، فإذا ما جاهد المرء نفسه انكشف حجاب الحس لديه وأصبح القلب فى حالة تصفية من أوران الشهوة والهوى ، وقطع العلائق المادية التى تفسد عليه حملته بربه ، وصلته بأشباهه ؛ ثم هى بعد ذلك كله تأمل فى الكون ومشاهدة لمبدع الكون [١] .

ذلك هو التدبر فى الآيات الإلهية فى جميع المظاهر الكونية الناطقة بالتسبيح والتهليل والتنزيه لذات الحق [٢] .

لذلك كان من الواجب على الإنسان أن يتدبر فى ملكوت السموات والأرض لأن التدبر يوسع باب الفهم . فيفهم الإنسان أن هذه الموجودات موجودة لغيرها لا لذاتها ، فالنظر فى الكون سبيل الوصول إلى معرفة مكونه تعالى .

فالحق سبحانه وتعالى أمرنا بأن ننظر فى السموات والأرض . ونحو ذلك من الآيات الدالة على التفكر فى عجائب المخلوقات وما انطوت عليه من الصبر والعظات الدالة على العلم بالله عز وجل وماله من صفات الكمال ، ونعوت الجمال ، ونحو ذلك من دلائل الجلال . فإذا انفكر القلب فى وجود المخلوقات ، هداه ذلك التفكر إلى وجود موجدها [٣] .

من هنا كان الواجب على الإنسان أن ينظر إلى ملكوت السموات والأرض بالفكر والاعتبار والفهم والتدبر ، مستمداً ذلك أساساً من القرآن الكريم .

ومما ينبغى أن يفهم أن الله سبحانه وتعالى أقام الدلائل على أنه تفضل بالعناية الكبرى

---

(١) محمد مصطفى حلمى : الحياة الروحية فى الإسلام (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٤م ، ص : ٩ .

(٢) عبد البارى محمد داود : السياحة فى الإسلام (الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية سنة ١٩٩٦ م ، ص : ٣٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص : ٣٥ .

بالإنسان ، وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه ليتفكر فيما أحاط به ، فيما فى نفسه ، حتى تحصل له الطمأنينة بأن الله سبحانه وتعالى هو المبدع لكل ذلك الذى أنشأه من العدم ، فيطمئن قلبه بربه سبحانه وتعالى وتسكن نفسه إليه كامل الإيمان بحقيقة التوحيد ، مصدقاً بالغيب الذى أخبر الله سبحانه وتعالى عنه من كمالاته الذاتية ، وأسمائه ، وصفاته ، وما أعده لعباده الصالحين من النعيم المقيم ، وما أعده للكافرين الظالمين من العذاب الأليم [١] .

نشأة الحياة الروحية

نشأت هذه الحياة الروحية أول ما نشأت فى الإسلام من التقشف والورع والتعبد والزهد والتقوى ، وغير ذلك من مظاهر الانصراف عن الدنيا ، والإقبال على الدين مما كان شائعاً بين المسلمين فى حياتهم الأولى . وهذه هى الحياة التى كان يحياها النبى ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم مثلاً رفيعة يتأثرها المسلمون فى القول والعمل [٢] .

من هنا يمكن أن تتخذ بداية الحياة الروحية فى الإسلام من حياة النبى ﷺ وأصحابه ، وما كانوا يأخذون به أنفسهم من زهد فى الدنيا ، وإعراض عن زخرفها وجاهها ، وإقبال على الله عز وجل بقلوبهم ، وجهاد فى سبيل الله بكل ما أتوا من قوة الإيمان وحرارة اليقين ؛ فتحنث محمد ﷺ الذى كان يقضى فيه الأيام والليالى وحيداً فى غار حراء معتزلاً للناس قبل أن يهبط عليه الوحى .

ويرى فريق من العلماء أن عبادة النبى ﷺ فى الغار كانت نوعاً من العبادة المتمثلة فى التأمل والتفكر [٣] .

كان يتأمل فى عظمة الكون ، وبديع صنعه وإحكامه . يفكر فى السماء من الذى رفعها بغير عمد ؟! من الذى جعل فيها سراجاً وقمراً منيراً ؟! من الذى زينها بالكواكب والنجوم ؟ ويفكر فى الأرض من الذى بسطها ؟ من الذى أخرج منها ماءها ومرعاها ؟ من الذى أخرج منها أزواجاً من نبات شتى ؟ ومن الذى ميز هذه الثمار بعضها عن بعض فى الأشكال والأحجام والألوان والطعوم [٤] .

---

(١) أبو العزائم ، محمد ماضى : معارج المقربين (القاهرة : دار الكتاب الصوفى ، ط ٣ ، ١٩٩٣ م) ص : ٢٥ .

(٢) محمد مصطفى حلمى : الحياة الروحية فى الإسلام ، مرجع سابق ، ص : ٩ .

(٣) محمد محمود مصطفى عميرة : جوانب من عظمة الرسول (القاهرة : دار الجيل للطباعة سنة ١٩٨٧ م) ص : ٤٢ .

(٤) عبد البارى محمد داود : السياحة فى الإسلام ، مرجع سابق ، ص ٥٨ .

قال تعالى ﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

كما كان رسول الله ﷺ يفكر فى نفسه . من الذى خلقه فى أحسن تقويم ؟ وعلى أحسن صورة . من الذى شق سمعه وبصره ؟ من الذى منحه القوة والبطش والحركة والتفكير ؟

ولقد كان السلف الصالح من الصحابة يسير على نفس المنهج متخذ بين الرسول ﷺ قدوة لهم . فحياة أبى بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب ، وسيرة بلال الحبشى ، وسلمان الفارسى ومهيب الرومى ، وسلوك أبى بن كعب ، وتميم الدارى ، وأبى ذر الغفارى ، وحذيفة بن اليمانى ، ومصعب بن عمير ، وما كان يأخذ به هؤلاء وكثير غيرهم من الصحابة أنفسهم من تعبد وتزهد وتقشف ومجاهدة للنفس ومعاندة للشيطان وجهاد فى سبيل الله ، كل أولئك يمكن أن يعد بذوراً أولى انبثقت منها الحياة الروحية التى نمت بعد ذلك وزكت ، وامتدت أغصانها وأينعت ، فإذا هى تنتشر ظلالها ، وتؤتى أكلها فى حياة التابعين ، وغير التابعين ممن جاءوا بعد . وكانت لهم شدة عناية بأمر الدين (٢) .

ولعلنا إذا نظرنا فيما كان يركن إليه محمد ﷺ من العزلة عن الناس والخلوة إلى نفسه يتصفحها ، وإلى الكون بتأمله ، وإلى مبدع الكون يستطلعه .

وفى الصفحات القادمة من هذا البحث نستطيع أن نتلمس تلك الحياة الروحية الخالصة عند رسول الله ﷺ .

(١) سورة : الرعد آية : ٢ .

(٢) محمد مصطفى حلمى : الحياة الروحية فى الإسلام ، مرجع سابق ، ص : ١٥ .

الفصل الثانى

الحياة الروحية عند الرسول ﷺ

أولاً : تحنث محمد فى الجاهلية

لقد أوضحنا فى حديثنا السابق عن نشأة الحياة الروحية كيف كان يتحنث محمد ﷺ فى الجاهلية . وهنا نحن الآن نستطيع أن ننظر فى حياة محمد ﷺ التى كان يقضيها متحنثاً فى غار حراء ، وفيما كان يخضع له نفسه من مجاهدة وعزلة عن الناس . ونستيقن من أن تحنث محمد ﷺ إنما هو البذرة الأولى التى نبت منها زهد الزهاد * ، وعبادة العباد : فهنالك فى ذلك الغار الهادئ الوادع ، البعيد عن ضجيج الحياة المادية ، وعجيج المعنين فى أفانينها ، وألوان الترف والنعيم فيها ، يتحنث محمد ﷺ مرة فى كل عام كلما أقبل شهر رمضان ، يقيم طوال هذا الشهر مزوداً بقليل من الزاد ، مسرحاً طرفه فى أرجاء الوجود ، متأملاً بعين قلبه كل ما امتلأ به الكون من آيات صنع الله (١) .

هنالك كان يحيا محمد ﷺ روحية خالصة لا تشوبها شائبة من شوائب الحياة المادية ، ولا يفسدها عليه شىء من متاع الدنيا أوجاهها . لقد ظل محمد ﷺ على هذه الحال من الاعتزال والتحنث فى غار حراء الذى كان يعود إليه كلما عاوده شهر رمضان ، حتى صنعت نفسه ، ورق حسه وصقلت مرآة قلبه ، وتهيأ له أن يرى الرؤيا الصادقة ، وإذا بأنوار الحقيقة تشرق فى أعماق نفسه ، وإذا هو يمعن فى الحق والخير واليقين ما يمعن غيره من المتعلقين بأسباب الحياة المادية فى الباطل والشر والشك . وما فتئ كذلك حتى أشرف على الأربعين ، وهنا كان قد أتيح له من صنعاء الروح ونقاء السريرة ما صار معه أهلاً لأن يهبط عليه الملك الذى يضمه ويرسله مرة ومرة ومرة ، وهو فى كل مرة يأمره بأن يقرأ . ومحمد ﷺ يجيبه بقوله : « ما أنا بقارئ » . حتى أمره الملك أخيراً أن ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ②

* من أراد زيادة فى هذا الموضوع فليراجع كتابنا : الفناء عند صوفية المسلمين والعقائد الأخرى دراسة مقارنة (القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، ١٩٩٦ م) المبحث الخاص بالزهد .

(١) محمد مصطفى : الحياة الروحية فى الإسلام ، مرجع سابق ، ص : ١٧ ، ١٨ .

... الأكرم ﴿٣﴾ الذي علم بالقلم ﴿٤﴾ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ (١) .

... قرأ محمد ﷺ هذه الآيات البينات ، وكانت قراءته لها فاتحة عهد جديد فى حياته ... وبداية عهد جديد فى تاريخ الديانات ، وأنها لحياة انطوت على أسمى معانى ... عبر ، وأرقى مبادئ الأخلاق ، وأقوى دعائم الإيمان واليقين (٢) .

... حياة التى كان يحياها محمد ﷺ والتى كانت سبيله إلى هبوط الملك عليه ، وسبيل ... شراق نور الوحى فيه ، إذا أمعنا النظر فيها وحللناها إلى عناصرها التى تألفت ... منها التى انطوت عليها وبين حياة الزهاد والعباد الذين ظهروا فى صدر الإسلام فى ... ته الأولى فى هذه الحياة الروحية الصافية التى كان قوامها عند محمد ﷺ ذلك ... ى يأخذ به نفسه فى غار حراء ، والذى كانت ثمرته اليانعة لديه هذا الوحى المتألق ... بينات ، الفيامن بحقائق التوحيد ودقائق العرفان وهذا ما أوضحناه فى ماضى

... حياة محمد ﷺ هذه بما فيها من تحنث وخلوة واكتفاء بالقليل من الزاد ، صورة ... تى كان يحياها الزهاد والعباد ؟

... حياة عند هؤلاء يخضعوا أنفسهم للرياضات والمجاهدات ، وكلها عندهم سبيل ... حقيقة .

... معترضاً قد يعترض فيقول : إن هذه الحياة الروحية التى كان يحياها محمد ﷺ ... غار حراء ، لم تكن حياته نبياً ولا رسولاً ، بل ولا مسلماً ، وإنما هى حياته عربياً ... شى كما كان يعيش بعض العرب الجاهلين من المتحنفين الذين كانوا يعبدون الله ... به حنيفاً وتحنث كما كان يتحنث هؤلاء .

... الاعتراض يرد عليه بأن هذه الحياة التى كان يحياها محمد ﷺ متحنثاً فى غار ... حراء على نحو ما كان يتحنف المتحنفون من بعض الجاهلين ، إنما كانت إرهاصاً ... برسالته . فحياته نبياً مرسلاً ، لم تكن إلا امتداداً لحياته عربياً متحنثاً . ... وتحنثه قد أشرقت بنور الوحى والالهام ؛ ونستطيع أن نقول : إنه لولا ما ... توحظات لنفس محمد ﷺ من تزكية وجلاء ، لقد كان هذا هو أسباب الاختيار ... سبحانه وتعالى . واختار الله محمداً لهذه الرسالة العظمى التى غيرت وجه ... غير ... وجه الحياة (٣) .

... الآيات : ١ ـ ٥ .

... مصطفى حلمى : الحياة الروحية فى الإسلام ، مرجع سابق ، ص : ١٨ .

... ص : ١٩ .

وإذا كان ذلك كذلك فما أخلق هذه الحياة الروحية المحمدية أن يكون لها خطرها فى التاريخ الروحى للإسلام ، وما أجدرها بأن يحسب لها كل الحساب ، عندما نريد أن نحدد بداية الحياة الروحية فى الإسلام وها هى ذا حياة الزهاد والعباد تنضو فى جملتها وفى أكثر تفاصيلها إلا تجويداً جديداً لهذا اللحن الروحى الذى أنشده محمد ﷺ لأول مرة فى تاريخ الإسلام (١) .

ونسوق هنا سؤالاً : ماذا كان حال الرسول ﷺ قبل الدعوة الإسلامية ؟

والجواب : لقد كان النبى ﷺ ـ كما أوضحنا فيما تقدم ـ أنه كان يتعبد فى غار حراء .

والسؤال الذى يعقب هذا بداهة : ما نوع العبادة التى كان يتعبدها فى الغار ؟

والجواب على السؤال الثانى يقدمه فريق من العلماء على الوجه التالى :

يرى فريق من العلماء أن عبادة النبى ﷺ فى الغار كانت نوعاً من العبادة المتمثلة فى التأمل والتفكر (٢) .

والتأمل والتفكر كما قال العلماء ، أول مراتب العبادة . قال تعالى :

﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾(٣) .

هذا هو حال الرسول ﷺ كان مهاجراً إلى الله فى كل لحظة ، وفى كل نفس من أنفاسه ، وفى كل طرفه عين ، وفى كل نبضة قلب ، وفى كل همسة من همسات الضمير (٤) .

ويرى فريق آخر من العلماء أن عبادة الرسول ﷺ فى الغار كانت قائمة على التفكير فى أمر قومه الذين عبدوا الأصنام ، واستعانوا بالأزلام ، لا قانون يجمعهم ولا شريعة تحكمهم ، يلومون الضعيف ، ويأنون فى واديهم المفكر .

لقد كان الرسول ﷺ يفكر فى أمر قومه ، وفى أمر هدايتهم . أى السبل يسلكها معهم ؟ وكيف يفعل لهدايتهم ، ومن أين يبدأ ؟

ولذلك من الله عليه بالهداية من هذه الحيرة . قال تعالى :

﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ (٥) .

---

(١) محمد مصطفى حلمى : الحياة الروحية فى الإسلام ، مرجع سابق ، ص ١٨ .

(٢) محمد محمود مصطفى عمير : جوانب من عظمة الرسول (القاهرة : دار الجيل للطباعة ، ١٩٨٧) ص : ٤٢ .

(٣) سورة : آل عمران : آية : ١٩٠ .

(٤) عبد الحليم محمود : الرسول ﷺ (القاهرة : دار التراث العربى ، ١٩٧٧ م) ص : ٦٩ .

(٥) سورة : الضحى : آية : ٧ .

لقد وجد الحق تبارك وتعالى رسول الله ﷺ محيراً فى أمر قومه فهذه وأنزل عليه القرآن ليرسم لهم السبل لاخراجهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم ، ومن الظلمات الضلال إلى نور الهداية .

ويرى فريق ثالث من العلماء أن النبى ﷺ أدرك بروحه السامية أنه لن يتم ما تتوق إليه نفسه إلا بالخلوة التى بها فراغ القلب ، والانقطاع عن الخلق . ولعل هذا من توجيه الله له ، لما فيه من صفاء النفس وإشراق أنوار المعرفة ، وتجلى الحقائق الأزلية (١) .

ولا يبلغ العقل البشرى مدى السمو الذى وصل إليه فى تلك الخلوة المحوطة فى نظرنا بالخفاء والغموض والتى لا يمكن اختراق حجبها إلا لمن أوتى شعاعاً من نور بعينه على استكشاف أسرارها العليا .

لقد كان الرسول ﷺ يضاعف خضوعه وتذلله لله ، ويضاعف رجاءه وأمله ، ويجاوز الأمل والخوف والقلق ، فيضاعف التذلل والخضوع ، والالتجاء إلى الله ، حتى أصبح صلوات الله وسلامه عليه فى النهاية وكأنه صفاء من الصفاء ، ونور من النور .

نعود فنقول : لقد كان حال الرسول ﷺ قبل الدعوة الإسلامية عندما كان يقبل على غار حراء للتبتل ، حين كان يخلو فيه بربه حتى قالت العرب :

« إن محمداً عشق ربه » .

إنَّ هذه الفترة من حياة محمد ﷺ على حد تعبير الإمام الجنيد - كان لها الأثر الأكبر والواضح لأنه كان يتوج كل عام جهاده الروحى المتصل بشهر يقضيه فى غار حراء ، حيث الخلوة التامة ، وحيث التجرد المطلق من كل ما سوى الله عز وجل . ثم كانت الرسالة وكانت المعجزة التى غيرت مجرى التاريخ (٢) .

ومما يضاف عن حياة الرسول ﷺ الروحية أن ننقل هنا طرفاً من تلك الحياة إلى نفسه التى سما فيها بمراحل كثيرة ! لذلك أقام بعيداً عن النقص لا يجد لذة يذوقها أطيب لنفسه من لذة التفكير والتأمل .

وتتمثل هذه الحياة التأملية أيضاً فى عمله البسيط كرعى الغنم ، ليست بالحياة التى تدر على صاحبها أخلاف الرزق ، أو تفتح أمامه أبواب اليسار ، وما كان محمد ﷺ يهتم لذلك أو يعنى به ، وقد ظل طول حياته أشد الناس زهداً فى المادة ورغبة عنها . وما أقبل عليها ، وقد كان الزهد بعض طبعه ؟!

(١) عبد البارى محمد داود : السياحة فى الإسلام ، مرجع سابق ، ص : ٥٩ .
(٢) محمد حسين هيكل : حياة محمد (القاهرة : دار المعارف ، ط ١٧ ، ١٩٨٦ م) ص : ١٣٥ ـ ١٣٦ .

وقد كان لا يحتاج من الحياة إلى أكثر ما يقيم صلبه !

أليس هو القائل : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع » .

أليس هو الذى عرف عنه كل حياته حرصه على شظف العيش ودعوة الناس إلى الاستمتاع بخشونة الحياة ؟!

لقد عاش ﷺ فى اللذة النفسية الكبرى أو إن شئت فقل اللذة الروحية ، ألا وهى لذة الاستمتاع بما فى الكون من جمال * ودعوة إلى التأمل ، هذه اللذة ليست فى حاجة إلى ثروة من المال وإن لم تكن فى حاجة إلى ثروة نفسية طائلة يعرف الإنسان معها كيف يعكف على نفسه ويعيش بها وفى دخيلتها ، ولو أن محمد ﷺ ترك وشأنه يومئذ لما نازعته نفسه إلى شىء من المال ، ونطل سعيداً بهذا الحال ، حال الرعاة المفكرين الذين ينظمون الكون فى أنفسهم ، والذين يحيتويهم الكون (١) .

إنَّ التفرغ للعبادة والفكر والاستئناس بمناجاة الله عن مناجاة الخلق والاشتغال باستكشاف أسرار الله تعالى فى أمر الدنيا والآخرة وملكوت السموات والأرض ، فإن ذلك يستدعى فراغاً ، ولا فراغ من المخالطة ، فالعزله وسيله إليه حسبما يرى الإمام الغزالى .

ولذلك كان الرسول ﷺ فى ابتداء أمره يتبتل فى جبل حراء فى الغار ، وينعزل إليه حتى قوى فيه نور النبوة ، فكان الخلق لا يحجبونه عن الله ، فكان ببدنه مع الخلق وبقلبه مقبلاً على الله تعالى (٢) .

ولقد جاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال : « أقرأ » . فقال : « ما أنا بقارئ » قال : فأخذنى فغطنى ، حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : « اقرأ » . قلت : « ما أنا بقارئ » ، فأخذنى فغطنى الثانية ، حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : « اقرأ » . قلت : « ما أنا بقارئ » ، فأخذنى فغطنى الثالثة ، ثم أرسلنى فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾(٣) .

فرجع بها رسول الله ﷺ ، يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد ، رضى الله

* من أراد أن يقف على حقيقة ذكرناه فليراجع بحثنا المنشور تحت عنوان : « الجمال عند الصوفية » الذى نوقش فى مؤتمر الفلسفة الإسلامية الأول بكلية دار العلوم فى الفترة من ٢٠/ ٤ إلى ٢٢/ ٤/ ١٩٩٦ فى الكتاب التذكارى . « جامعة القاهرة » .

(١) محمد حسين هيكل : حياة محمد ، مرجع سابق ، ص : ١٣٥ ـ ١٣٦ .
(٢) الغزالى أبو حامد : إحياء علوم الدين (القاهرة : مطبعة الحلبى ، د . ت) ج ٢ ، ص : ٢٢٧ وانظر أيضاً : السهر وردى : عوارف المعارف ، ملحق الإحياء ، ج ٢ ، هامش ص : ١٢٣ .
(٣) سورة : العلق : الآيات : ١ ـ ٣ .

عنها فقال : « زملونى » ، فزملوه ، حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة ، وأخبرها الخبر ، لقد خشيت على نفسى . فقالت خديجة : « كلا ، والله لا يخزيك أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . . . . » .

فانطلقت به خديجة ، حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ، ابن عم خديجة ، لقد كان ورقة عربياً أصيلاً من ذروة بيوت قريش . وقد كان ورقة معروفاً بالعقل الناضج والمعرفة الواسعة والإخلاص المخلص . فلما أخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى ، قال ورقة ، دون تردد ولا تعلثم ولا انتظار :

وهذا هو الناموس الذى نزل على موسى » . قال ذلك فى يقين جازم وفى إيمان مؤمن (١) .

ولقد كانت هذه الآية فى أول هذه السورة أول القرآن الكريم نزولاً على رسول الله ﷺ منذ هذه اللحظة . ولقد بدأت صحف التاريخ تقص هذه القصة بإعجاب شديد .

ومن هنا برزت شخصية محمد ﷺ بأنها شخصية إنسانية متكاملة اصطفاها الحق سبحانه وتعالى واجتباها .

ولقد حرص الرسول ﷺ على تأكيد هذا المعنى فى نفسه ، وكذلك فى نفس كل ما يحيط به مردداً القرآن الكريم قائلاً :

﴿ إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى ﴾ .

ولقد بدأت الدعوة المحمدية أول ما بدأت تنكر على الناس عكوفهم على عبادة الأصنام ودعوتهم إلى الإقلاع عن عبادتها والاتجاه إلى عبادة الله عز وجل الواحد الأحد رب السموات والأرض الذى لا شريك له وليس كمثله شىء وهو السميع العليم .

ومن هنا نستطيع القول إن التربية الإسلامية جاءت فى ظل المنهج الإسلامى الذى جاء به النبى ﷺ .

والجدير بالذكر فى هذا المقام أن التربية الإسلامية تعد بحق أول تربية فى تاريخ الفكر التربوى الإنسانى تعلن إجبارية القراءة والتعليم على أبناء المسلمين منذ أكثر من أربعة عشر قرناً قبل أن يعرف العالم إجبارية التعليم من أواخر القرن التاسع عشر الميلادى .

ولقد أفردت التربية الإسلامية بتفردها فى ظل المنهج الإسلامى القرآنى مكانة عظيمة فريدة للعلم والعلماء ، حيث جعلت العلم ورثة الأنبياء .

---

(١) عبد الحليم محمود : الرسول ﷺ ، ص : ٧٠ ـ ٧٣ .

قال تعالى : ﴿ والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ (١) .

ومما ينبغى أن يفهم أنه ورد ذكر العلم ومشتقاته فى القرآن الكريم مئات المرات (٢) .

لذلك نرى أن التربية الإسلامية فريدة من نوعها فى تاريخ الفكر التربوى الإنسانى ، فهى منبثقة من الإسلام والقرآن كتاب الله عز وجل الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ثم يأتى الحديث النبوى الشريف شارحاً وموضحاً لأحكام القرآن الكريم .

ولذلك فإن القرآن * هو روح التربية الإسلامية والمنهج الذى تستمد منه قيمتها واتجاهاتها فى تكوين المواطن الصالح فى المجتمع الصالح أو الدولة الصالحة .

وتعود أهمية التربيه الإسلامية فى تاريخ الفكر التربوى الإنسانى إلى أنها تربية جعلت من العلم والتعليم فريضة على كل مسلم ومسلمة .

ومن هنا سارت التربية الإسلامية فى تكوين المواطن الصالح على هذا المنهج الذى ينظر به الإسلام إلى الشخصية الإنسانية السوية التى تتمتع بالقيم والأخلاقيات .

ومن هنا أيضاً يصبح القرآن الكريم منهجاً للتربية الإسلامية فى تكوين المواطن الصالح باعتباره روح التربية الإسلامية .

ومن المعلوم أن القرآن ليس مجموعة طقوس أو شعائر دينية تتعلق بالحياة الآخرة وحدها ولكنه إلى جانب ذلك كتاب كونى شامل يتحدث عن الآخرة كما تتحدث الأديان الأخرى ، ولكنه يصل إلى تلك الآخرة من خلال الحياة الدنيا . فهو منهج حياة فاضلة يعمل على أن يتفهمها المسلم ويترجمها إلى سلوك عملى يشمل تفكيره وتصوراته وآراءه وعلاقاته بالناس وبالبيئة التى يعيش فيها وبالعالم أجمع .

ومن ثم كان منهج الدراسة فى هذه المدرسة الإسلامية منهجاً شاملاً واسعاً يتسع لكل شىء يحتاج إليه الإنسان فى حياته الدنيا وفى الآخرة .

ولقد كانت حياة الرسول ﷺ تطبيقاً عملياً لهذا المنهج .

---

(١) سورة : آل عمران : آية : ٧ .

(٢) حسن الشرقاوى : المسلمون علماء وحكماء (الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، . . . ت) ص : ٢٨ .
وللمزيد راجع : حسن الشرقاوى : نحو تربية إسلامية .
(الإسكندرية : مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٨٣ م) ص : ٢٣٤ .

* للمزيد يراجع هنا كتابنا : الفتوحات الربانية فى الآيات القرآنية (بيروت : دار النهضة العربية ، ١٩٩٦م).

فلقد كان خلقه على حد ما وصفته السيدة عائشة رضى الله عنها أنه كان القرآن . ولا تزال روح التربية الإسلامية ومنهجها ودستورها فى الإسلام . وكل إنسان مطالب بأن يتعلم كل العلوم التى يستطيع أن يتعلمها . فليس هناك فى الإسلام علوم محرمة على المسلمين لأن المسلم كلما ازداد علماً ازداد قرباً من الله وازدادت قدرته على معرفة الحياة الإنسانية [1] .

هكذا فعلت كلمة « اقرأ » دوراً أساسياً فى بناء الشخصية الإنسانية الصالحة التى تتسلح بالقيم والأخلاقيات والسلوك السوى فى التربية الإسلامية لتكوين جيل من أبناء الأمة يؤمن بالله وبرسوله وتكون أعماله ظاهراً أو باطناً مقصوداً بها وجه الله وحده ، وكل جوانب حياته موجهة بهدى الله وحده .

وأول ما يجب أن ننبه به أطفالنا فى هذا الصدد إلى كلمة « اقرأ » فإن هذه الكلمة هى أول كلمة خاطب الله سبحانه وتعالى بها نبيه ﷺ ، كما أنها أول أنوار الوحى وإشعاعاته المتنزله على قلبه ﷺ [2] .

لذلك كان من الضرورى أن تخضع الطفولة فى نشأتها إلى المنهج الإسلامى لتحقيق أهدافها السامية ورسالتها التربوية [3] .

كما أن المنهج الإسلامى لتربية النشئ يستلهم أصوله من القرآن الكريم والسنة المحمدية الشريفة . وهو أفضل منهج يمكن أن يختاره الإنسان فى هذه الدنيا ، وذلك لأنه يمتاز بالكمال فى كل شىء [4] . فلا يجد التأمل تناقضاً فيه ولا نقصاً كما نجد فى المناهج البشرية [5] . كما أن هذا المنهج يعين المسلم فى سلوكه نحو التكامل الأخلاقى [6] .

إن منهج التربية الإسلامية للطفل يحقق أهداف الإسلام ، ويكون وسيلة لتشكيل الطفل المسلم ، على النحو الذى يريده الإسلام ويرتضيه . ومن ثم كان منهج التربية الإسلامية مشتقاً من التربية الإسلامية ذاتها .

---

(١) عبد البارى محمد داود : السياحة فى الإسلام . ص : ٦٢ ـ ٦٣ .

(٢) محمد قطب : خمسون نصيحة نبوية من رسول ﷺ للطفل المسلم (القاهرة : مكتبة القرآن ، ١٩٨٣ م) ص : ١٠ .

(٣) محمود محمد عمارة : تربية الأولاد فى الإسلام (القاهرة : دار التراث العربى ، ٢ ، ١٤٠٥ هـ) ص : ٦ .

(٤) عبد البارى محمد داود : سيكولوجية الصغير فى إطار المنهج الإسلامى (القاهرة : وزارة الثقافة المركز القومى لثقافة الطفل ، المجلد العاشر ، ١٩٩٠ م ، منشور) ص : ٩٤ .

(٥) حسن الشرقاوى : الأخلاق الإسلامية (الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٥ م) ص : ٩٧ .

(٦) حسن الشرقاوى : التربية النفسية فى المنهج الإسلامى .
(مكة : رابطة العالم الإسلامى ، ١٤٠٥ هـ) ص : ٧ .

ولذلك يقوم منهج التربية الإسلامية على بدأ الارتباط بالدين وما فيه من تعاليم وقيم . وعلى مبدأ الشمول فى أهداف التربية والمنهج ومحتوياته [1] .

ثانياً : أحوال النبى ﷺ وأقواله فى الحياة الروحية :

لقد أوضحنا فى معرض حديثنا السابق الحياة الروحية التى كان يحياها الرسول ﷺ . فإذا أضفنا إلى هذه الحياة الروحية المحمدية ما كان يأخذ به محمد ﷺ نفسه من تقشف فى الملبس والمأكل ومن عكوف على العبادة والتهجد ، حتى لقد نهاه الله عن المبالغة فى ذلك بقوله :

﴿ طه ۝١ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴾ [2] .

وحسبنا هنا أن نشير إلى قناع النبى ﷺ فى الملبس وإلى ما كان يأخذ به نفسه من تهجد واعتكاف واستغفار .

فقدروت السيدة رضى الله عنها : « أن النبى ﷺ كان يقوم الليل حتى تنفطر قدماه ، فقلت له : لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً » [3] .

ومما روته أيضاً : « أن النبى ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله تعالى ، ثم اعتكف أزواجه من بعده » [4] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » [5] .

وحسبنا كذلك أن نسجل دعوة الرسول ﷺ إلى الزهد والتقرب بالنوافل والذكر والتوكل والصبر والتوبة . . وفى ذلك يقول :

« ازهد فى الدنيا يحبك وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس » [6] .

كما قال رسول الله ﷺ : « أراد الله بعبد خيراً فقهه فى الدين وزهده فى الدنيا وبصره بعيوبه » [7] .

---

(١) عبد البارى محمد داود : القدرة الصالحة وأثرها فى تنشئة الطفل (القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٩٦ م) ص : ٧٤ .

(٢) سورة : طه : الآيتان : ١ ، ٢ .

(٣) رواه البخارى ومسلم .

(٤) رواه مسلم عن أبى هريرة .

(٥) رواه البخارى .

(٦) رواه الطبرانى فى شعب الإيمان .

(٧) رواه البيهقى فى شعب الإيمان .

من خلال ما تقدم يتبين لنا نداءات مخاطبات القرآن الكريم المنبثقة من فعل القراءة ، والكتابة ، والتفكير ، والتعقل ، والتفقه ، والتدبر ، مثبته فى كتاب الله ، وأكرم بها الإنسان فعلمه البيان ، وعلمه ما لم يكن يعلم . فلا جدال أن تكون « اقرأ » هى الكلمة الأولى فى كتاب الله . ولا عجب أن تتكرر مرتين فى آيات ثلاث ، وليس عجباً كذلك أن ترد كلمة « علم » ثلاث مرات ، وأن يشار بالحرف إلى القلم « ن » فى القرآن .

فالقلم هو الأداه التى يتعلم بها الإنسان . ونجد العقل ، والقلب ، والروح والنفس المسلمة ملزمة بمنطق الإيمان نفسه بالتعلم . وبأن يتشكل الإنسان المسلم من جدير لكى يتلاءم مع التوجه المعرفى الذى أراده له الدين الجديد ، فالعلم فى الإسلام ذا قيمة أساسية من قيمة ، من شأنها أن تكشف مجهول أو استكناه معتول من أجل خير الفرد ، والمجتمع الإسلامى بخاصة ، والمجتمع العالمى بعامة .

والجدير بالذكر فى هذا المقام ينبغى أن توضح أنه توجد فى حياة الرسول ﷺ هادئة من أروع ما سجله التاريخ الدينى فى السير أو الطبقات أو كتب التراث بعد القرآن الكريم ، ما لها من أثر فى تاريخ الحياة الروحية فى الإسلام ، بل كانت ليلة من أشرف ليالى الدعوة المحمدية ، ألا وهى « ليلة الإسراء والمعراج » . التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم . وأفاضت فى وصفها كتب السيرة .

وقد اختلفت الآراء حول « الإسراء والمعراج » . هل كان بالروح أم بالجسد ؟ أم بالروح والجسد معا ؟

وتأكيداً لهذا الجانب الهام فى حياة الرسول ﷺ فقد روى الشيخان عن عمر بن مسروق الذى قال لعائشة رضى الله عنها : يا أماه هل رأى محمد ربه ؟ فقالت : لقد وقف شعرى مما قلت ، أين أنت من ثلاث : من حدثكن فقد كذب : من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب ، ثم قرأت قول الحق تعالى : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١) .

وقرأت قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ (٢) .

ومن حدثك أنه يعلم ما فى غد كذب . ثم قرأت قوله تعالى :

﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ (٣) .

ومن حدثك أنه كتم علماً فقد كذب ، ثم قرأت قوله تعالى :

(١) سورة : الأنعام : آية : ١٠٣ .
(٢) سورة : الشورى : آية : ٥١ .
(٣) سورة : لقمان : آية : ٣٤ .

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ (١) .

قال مسروق وقد كنت متكئاً فجلست وقلت : ألم يقل الله :

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ (٢) .

فقالت : أنا أول من سأل رسول الله ﷺ عن هذا . فقلت : يا رسول الله هل رأيت ربك ؟ فقال : لا ؟ أنا رأيت جبريل منهبطا . وأنه سئل عن ذلك فقال : نور أنى أراه (٣) .

من هنا كان لابد وأن ننبه أن الإسراء والمعراج فى حياة محمد ﷺ الروحية كان له مع سام غاية السمو ، لم يقف أمامه فى تلك الساعة حجب من الزمان أو المكان ، أو غيرها من الحجب . تداعت فى هذه الساعة كل الحدود أمام بصيرة محمد ﷺ ، واجتمع الكون كله فى روحه ، فقد أزله إلى أبده (٤) .

ويقول الدكتور محمد حسنين هيكل فى سرده لقصة « الإسراء والمعراج » عن النبى ﷺ « . . . . ثم كان فى حضرة العرش ، وكان منه قاب قوسين أو أدنى ، يشهد الله بعين بصيرته ويرى أشياء يعجز اللسان عن التعبير عنها ، وتفوق كل ما يحيط فهم الإنسان ، ومد الله العظيم يداً على صدر محمد ﷺ والأخرى على كتفه فأحس النبى ﷺ كأنه أثلج إلى فؤاده ثم بسكينه راضية ففناء فى الله مستطاب (٥) .

لقد كان المعراج مناجاة روحياً ، ورؤية .

إن محمداً ﷺ وصل إلى أفق لم يعد مكان فيه لجبريل ، وارتقى إلى مستوى من الوجود لم يكن لجبريل عليه السلام فيه مجال ، فكان محمد ﷺ فى الحضرة الإلهية ، ودون واسطة فناجى ربه عز وجل ، وأوحى الله إليه ما أوحى ، ورأى محمد ربه : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ (٦) .

ثم دنا الجبار رب العزة فتدل ، ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ (٧) .

(١) سورة : المائدة : آية ٦٧ .
(٢) سورة : النجم : آية : ١٣ .
(٣) رواه أبو ذر الغفارى .
(٤) عبد البارى محمد داود : الفناء عند صوفية المسلمين والعقائد الأخرى . دراسة مقارنة ، ص : ٢٠٧ . الخاص بالإسراء والمعراج .
(٥) محمد حسين هيكل : حياة محمد ، مرجع سابق ، ص : ٢٠٧ .
(٦) سورة : النجم : آية : ١١ .
(٧) سورة : النجم : آية : ٩ .

إن محمداً فى هذا الأفق كان وحده ، وكان جبريل عليه السلام فى أفق أقل ، فكانت المناجاة مع الله ، وكان الوحى من الله ، وكانت الرؤية لله تعالى [1] .

ويجدر بنا أن نوضح أن الإسراء من المعجزات الباهرة التى تثير التعجب فى نفس كل من علم بها استعظاماً لأمرها وتكبيراً لمن أحدثها ، ثم وصف الله سبحانه وتعالى بأنه أسرى بعبده . والمراد بالعبد هنا هو سيدنا محمد ﷺ . ووصفه بالعبودية فى هذا المقام وغير هذا المقام لتشريفه وتعظيمه ، فوصفه بها فى مقام الوحى فقال : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ [2] .

وقال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [3] .

كما وصف الحق سبحانه وتعالى الرسول ﷺ بالعبودية فى مقام الدعوة إليه والتبليغ عنه . فقال تعالى : « وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا » .

ولذلك كانت العبودية أكمل صفاته عليه السلام ، حتى إنه لما خير بين أن يكون نبياً ملكاً اختار أن يكون نبياً عبداً ، فأكرمه الله تعالى ورفع له ذكره .

وفى نعته عليه الصلاة والسلام بالعبودية فى هذا المقام سداً لباب الغلو ، كى لا يغلو فيه الناس كما غلال النصارى فى عيسى بن مريم .

فالإسراء فى حياة النبى ﷺ الروحية له معنى سام غاية السمو ، لم يقف أمامه فى تلك الساعة حجاب من الزمان أو المكان أو غيرهما من الحجب . تداعت فى هذه الساعة كل الحدود أمام بصيرة محمد ﷺ ، واجتمع الكون كله فى روحه ، فوعاه منذ أزله إلى أبده .

ولا شك أن هذا يمثل لوناً من الحياة الروحية عاينها رسول الله ﷺ تغلبت فيها نواميس الروح وقواها التى لا تحدها تلك الحدود المادية ولا تخضع لنواميس المادة على نواميس الجسم الذى يخضع لسنن المادة ، فكان الكون كلة من أرضه إلى سماواته أمام تلك الروحانية العظيمة التى غلبت على رسول الله ﷺ .

ولقد أعطانا القشيرى تفسيراً لذلك فى مخطوط له بعنوان : « داء الأرواح » . يتحدث فيه عن آية العهد ، ويحلل فيه البرهان الذى أظهره الله لأهل المعرفة وعلمهم وهداهم به فى عالم الذر ، وجعلهم أهلاً لتوحيده . وها هى أهم فقرات المخطوط الصغير : بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله الذى أبان بواضح البرهان لأهل المعرفة والبيان بما أخصهم به فى قديم

(١) عبد الحليم محمود : الإسراء والمعراج (القاهرة : دار المعارف ، ط ٥ ، د . ت) ص : ٥ - ٦ .
(٢) سورة : النجم : آية : ١٠ .
(٣) سورة : الفرقان : آية : ١ .

القدم ، قبل كون القبل ، والذا بين عن إدراك أداه تحديده . . أوحى إلى عبده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى » [1] .

شهد له أنه عبده وحده ، لم يجد عليه استعباد الغير يخفى ميل همة ، ولا المام شهوة ، ولا محادثة نظرة ، ولا معارضه خطرة ، ولا سبق حق بلقطه ، ولا سبق أهل الحقيقة بنطقه ، ولا رؤية خطة بلمحه . أوحى الله إليه حينئذ ما أوحى بالأفق الأعلى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى » .

وفى هذا النص إبانه واضحة لمقام النبى ﷺ ليلة الإسراء والمعراج حيث أوحى الله لرسوله ما أوحى .

والذى نريد أن نؤكده هنا أنه لما أعرج برسول الله ﷺ ، وعاين ما عاين مما أراه من آياته الكبرى كان هذا يعدلوناً من الحياة الروحية لرسول الله ﷺ .

فالرسول ﷺ وهو فى رحلته إلى الحق فإذا كان هذا المعنى الذى يدل عليه نبأ المعراج من وجود الأنبياء والرسل فى السموات ، ومن أن الرسول ﷺ أخذ يتجاوز هذه السموات واحدة بعد الأخرى ، ويتجاوز الأنبياء واحداً بعد الآخر . فقول : كما أن المعنى الذى يدل عليه النبأ معنى مكانى ، فإنه أيضاً ـ بل بطريق أولى ـ معنى روحى . أى أنَّ الرسول ﷺ فى تساميه الروحى فى كل لحظة من اللحظات قد بلغ فى معراجه إلى درجات تجاوزت فى روحانيتها آدم فى سمائه الأولى ، ثم تجاوزت يحيى وعيسى عليهما السلام ، فى سمائهما الثانية ، ثم تجاوزت يوسف عليه السلام فى سمائه الثالثة . . . وهكذا حتى تجاوزت روحياً إبراهيم عليه السلام فى سمائه السابعة ، ولقد تجاوزت كل ذلك ، وتجاوزت الكون كله إلى سدرة المنتهى ، إلى شجرة النهاية ، إلى حيث لا يبلغ ملك مقرب ولا نبى مرسل . لقد رأى من آيات ربه الكبرى ، هذا هو مقام الرسول ﷺ [2] .

ولا يفوتنا أن تنبه القارئ هنا إلى ما رواه الإمام النبهانى عن معراج الرسول ﷺ الله عليه وسلم حيث قال : المعاريج لبلة الإسراء عشرة ، سبعة منها إلى السماوات ، والثامن إلى سدرة المنتهى ، والتاسع إلى المستوى الذى سمع فيه النبى ﷺ صريف الأقلام فى تصاريف الأقدار ، والعاشر إلى العرش والوقوف والرؤية وسماع والكشف الحقيقى [3] .

(١) عبد القادر محمود : الفلسفة الصوفية فى الإسلام (القاهرة : دار الفكر العربى ، ١٩٦٦ م) ص : ٢٠٠ .
(٢) عبد الحليم محمود : الفتاوى (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨١ م) ج ، ص : ١٤٥ .
(٣) النبهانى ، يوسف بن إسماعيل : الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية (مصر : المطبعة الميمنية ، ١٣١٢هـ) ص : ٢١١ - ٢١٢ .

والناظر فى ترتيب المعاريج كما أوردها الإمام النبهانى يلاحظ انتقال الرسول ﷺ من ... إلى آخر فى سمو روحى وسياحة خالصة لوجه الله تعالى .

لذلك كان حادث الإسراء نوعاً من أنواع التكريم ، ووسيلة من وسائل التثبيت لرسول الله ﷺ ، تجلى به سبحانه على نبيه الذى أرسله بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات ... النور : وليقرع قلوبهم بكلمة التوحيد الخالص من شوائب الشرب والوثنية وليحول ... م من مجرى المادية التى تطغى على سعادة الإنسان إلى مجرى الروح التى تنهض به إلى ... الأعلى من مستوى الإنسانية . تجلى به سبحانه على نبيه فثبت فؤاده ، وشرح صدره ، ... ذكره ، وأسبغ عليه من بحار الفيض والامداد ما تمكن به فى لحظات أن يوضح فى هذا المقام أن الإسراء كان نعمة فذة لرسول الله ﷺ لم تعرف لغيره من الأنبياء والمرسلين دلت على ... الله سبحانه وتعالى برسوله وتكريمه إياه وتقريبه للحق سبحانه وتعالى حتى كان فى ملئه الأعلى قاب قوسين أو أدنى .

... سئل الإمام الجنيد عن هذا الدنو ، فأجاب قائلاً : « دنو القلوب من المحبوب ، ذهب ... تلاشى الأين . وقيل : دنا محمد ﷺ من ربه بالسؤال فتدلى ربه إليه بالعطاء ... »[1] .

... هنا كان الإسراء لرسول الله ﷺ سياحة روحية خالصة تعبر عن آفاق عليا ، وعن ... هبة جديدة ، وعن مشارف من السمو والدرجات العلى حظى بها الرسول ﷺ . ... فضل وتكريم ونعمة .

... هنا أيضاً ينبغى أن ننبه الأذهان إلى أن الإسراء شأن من شئون الحق سبحانه وتعالى ... نبيه ﷺ ، صنعه بيده ، وحاكاه بحكمته ، فلنؤمن به كما أخبرنا الله سبحانه ... ولا نسأل أكان الإسراء بالجسد أم بالروح ؟ أكان فى اليقظة أم فى المنام ؟ ولا كيف ... ؟ ولا كيف ارتفع ؟ فالفيض غزير والاستعداد تام [2] .

... من يترك هذه الآفاق العليا ويتجاوزها ليتحدث عن الرسول ﷺ بأنه أسرى بجسمه ... ، أو بروحه فقط ، أو أسرى به بغفلة أو مناماً ، إنما هو بذلك ينحدر بنفسه مختاراً ... الإلهى ، ليهوى به منتكساً إلى جو اللات والعزى ، ويتجدر بها منتكساً من جو ... إلى جو المادى ، ومن مجالات النور السماوى المتلألئ إلى ظلمة الجدل ، وزيغ

... حمن الصفورى : نزهة المجالس ومنتخب النفائس (القاهرة : مطبعة الفتح ، ١٩٧٩ م) ج ٢ ، ... ٤٨١ .

... شلتوت : الإسراء تثبيت وتكريم ، مقال منشور بمجلة الإسلام بمصر العدد ٢٩ ، ١٣٥٥ هـ ، ... ٣٠ ، ٣١ .

المماراة فى الدين ، فلتنصرف عنه ولنتتركه وما اختار ، مبتعدين عن الجدل مع المماريين ، ولندع الله قائلين :

﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة أنك أنت الوهاب ﴾ .

ومما يستدل به فى هذا المقام لكى نوضح أن الإسراء لرسول الله ﷺ يعد لوناً من الحياة الروحية أو إن شئت فقل لوناً من السياحة الروحية ننقل هنا ما أورده الشعرانى : « لما فنى الرسول ﷺ عن الدنيا وما فيها ردت إليه أقسامه المحبوسة عنه فى حال سيره إلى ربه جلَّ وعلا حال بدايته فاستوفاها موافقة لربه سبحانه وتعالى وامتثالاً لأمره ، فكمل بذلك مقامه ولم ينقص [1] .

فالرسول ﷺ كان دائماً مع الله ، يقلب بصره فى السماء على الدوام ، وهو يؤدى رسالة السماء كاملة غير منقوصة ، إنه على حد تعبير القرآن الكريم : ﴿ بشراً رسولاً ﴾ [2] .

والرسول ﷺ كان ببشريته مع الناس ، وبسره مع الله . كان مع الناس بإرادة الله وتوجيهه وأمره ، كان مع الناس بكلمة الله ورسالته ، كان مع الناس رسول من قبل الله .

وبهذه المعنى كلها نستطيع أن نقول : إنه دائماً مع الله والآيات القرآنية صريحة واضحة الدلالة على ذلك .

هذا هو حال النبى ﷺ مع الله سبحانه وتعالى بسره ، ومع الناس ببشريته كما أوضحنا فيما تقدم .

من خلال ما تقدم عن الإسراء فى حياة النبى ﷺ ينبغى أن نوضح أن إسراء النبى ﷺ كان بالروح والجسد معاً . والقرآن الكريم عندما تناول الحديث عن الإسراء أوضح ذلك لأنه استخدم لفظ العبد فى قوله تعالى :

﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ﴾ [3] .

واستخدام لفظ « العبد » فى الآية السابقة إنما يعنى كل العبد روحاً وجسداً ، لأن الروح جزء ، والجسد جزء ، وكلاهما يكونان مفهوم العبد ، ولا يمكن أن يقوم الجسد دون الروح ، ولا معنى للروح دون الجسد ، ومجموع الاثنين هو الإنسان الفرد أو البشر الحى .

---

(١) الشعرانى ، عبد الوهاب : لطائف المنن والأخلاق ، تحقيق عبد الحليم محمود (القاهرة : ط ٢ ، ١٣٩٦هـ) ص : ١٤٧ .
(٢) سورة : الإسراء : آية : ٩٤ .
(٣) سورة : الإسراء : آية : ١ .

ولذلك وجب علينا أن نعتقد أن الله سبحانه وتعالى إنما أراد بقوله : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ﴾ [1] . كل العبد روحاً وجسداً ، وليس بالإسراء ناحية جزئية وكانت المناجاة مع الله هى المناجاة الروحية سخر الله له فيها كل شىء ليراه ، ولم يتحول بصره عما يشاهد ، بل ظل مركزاً بصره على الآيات الكبرى من عجائب الملكوت .

لذلك كان الإسراء لرسول الله ﷺ مقام من المقامات العاليه ناله ونال فخره ، وذلك لكونه كان دائماً يحن إلى مناجاة ربه والوقوف بين يديه حتى كان لا يجد لذة إلا فى تلك المناجاة الروحية مع الله [illegible]

ويترتب على ذلك فى ضوء ما أسلفنا أن رحلة الإسراء والمعراج لرسول الله ﷺ إنما كانت حياة روحية خالصة اختارها الله عز وجل لنبيه الذى جاهد فى تثبيت هذا الدين ونشره والعمل على إسعاد الإنسانية به ، لكى ينتهجوا النهج النبوى فى سلوكهم وأخلاقهم حتى يفوزوا برضا الله فى الدنيا والآخرة . فمن أراد أن يسلك منهج نبيه فليعرج إلى ربه بالطاعات ويسرى إلى ساحة الفضل والإنعام . ومن شاء أن يسرى ربه به ، وأن نعرج به ملائكة الرحمة فليدم مناجاة ربه وليحسن وقوفه بين يديه .

---

(١) سورة : الإسراء : آية : ١ .

الفصل الثالث

الحياة الروحية عند الصحابة

كانت حياة الصحابة رضوان الله عليهم كحياة النبى ﷺ حـ[illegible] الأحوال والأقوال التى تدل دلالة واضحة على زهدهم وورعهم وتقشفهم وغير ذلك من [illegible] الإقبال على الله والإعراض عن الدنيا . وكلها أمور لا يستطيع أن يغفلها أو ينكرها [illegible] عندما يريد أن يبين مقومات الحياة الروحية فى صدر الإسلام .

فقد كان أبو بكر الصديق يطوى ستة أيام ، وكان لا يزيد على ثوب واحد ، وكان يأخذ بطرف لسانه ويقول : « ها الذى أوردنى الموارد » . وكان يقول أيضاً : « إذا دخل العبد العجب بشىء من زينة الدنيا مقته الله حتى يفارق تلك الزينة .

وقد تحدث عن أثر التقوى وثمرة اليقين والتواضع فى حياته وقال : « وجدنا الكرم فى التقوى ، والغناء فى اليقين ، والشرف فى التواضع » . وتحدث عن المروءة التى تتذوق بالروح وأثرها فى الحياة الروحية لمن يتذوقها فقال : « من ذاق من خالص المروءة شيئاً شغله ذلك عما سوى الله ، واستوحش من جميع البشر » [1] .

فالصديق هنا لا يعرف إلا الله سبحانه وتعالى . ولقد انتهج طريق الروح باستنباط مباشر وتعمق فى الآيات الروحية فى القرآن الكريم [2] .

ولقد أورد الأصبهانى تفسيراً روحياً لأبى بكر اختص به عن سائر أصحاب رسول الله ﷺ، هذا التفسير يتعلق بآيتين من آيات القرآن الكريم .

فقد قال أبو بكر الصديق لأصحابه ما تقولون فى هاتين الآيتين ؟

قول الحق تعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ .

---

(١) محمد مصطفى : الحياة الروحية فى الإسلام ، مرجع سابق ، ص : ٢٦ - ١٧ .

(٢) عبد البارى محمد داود : الفتوحات فى الآيات القرآنية (بيروت : دار الأمة العربية ، ١٩٩٦) المبحث الخاص بالقرآن والتدبر .

وقوله تعالى : ﴿ الذين آمنوا ولم يلبثوا إيمانهم بظلم ﴾ .

قالوا : ربنا الله ثم استقاموا فلم يدينوا ولم يلبثوا إيمانهم بظلم خطيئة .

قال : لقد حملتموها على غير المحمل ، ثم قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلم يلتفتوا إلى إله غيره ، ولم يلبثوا إيمانهم بشرك [1].

هكذا نرى فى تفسير أبى بكر للآيتين القرآيتين أنه صاحب فراسة وتوسم .

وكذلك كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأرضاه على صفاء من الروح وطهارة القلب بحيث قال فيه النبى ﷺ مخبراً عن ربه :

﴿ إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه ﴾ .

ولأهل الحقائق أسوة وتعلق بعمر رضى الله عنه [2] .

وليس أول على تقشف عمر من أنه كان يخطب وهو خليفة وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة ، وقميص فيه أربع رقاع دون أن يكون له غيرهما ، ومن أنه كان يغسل ثوبه بيده . وليس أول على ما كان يراه من أثر الرضا والصبر فى النفس الخاضع لهما الآخذ بهما مما كتبه إلى أبى موسى الأشعرى وهو قوله : « أما بعد : فإن الخير كله فى الرضا ، فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر » . ومن قوله : ﴿ وجدنا خير عيشنا الصبر ﴾ [3].

ولقد بلغ أعلى درجة من درجات الصديقين ، ودلائل ذلك ظهرت عليه وهو ما ذكر عنه أنه كان يخطب فصاح فقال فى وسط خطبته : « يا سارية الجبل ـ وسارية فى عسكر على باب نهاوند ـ فسمع صوت عمر رضى الله عنه وأخذ نحو الجبل وظفر بالعدو .

وقيل لسارية : كيف علمت ذلك ؟ فقال : سمعت صوت عمر يقول : يا سارية الجبل الجبل » [4] .

ولقد كان عثمان بن عفان يقوم برياضة نفسه على الزهد والتقشف ودوام الفكر فى الله والدأب على النظر فى كتاب الله بحيث كان يقضى نهاره طاوياً وليله محيياً ، وبحيث لم يكن يترك النظر فى المصحف كل يوم وهو يقول :

---

(١) أبو نعيم الأصبهانى : حلية الأولياء (القاهرة : مطبعة السعادة ، ط ٢ ، ١٣٥٧ هـ) ج ١ ، ص : ٣٠ .
(٢) عبد البارى محمد داود : علاقة الزهد بالتصوف ، ملحق رسالتنا للدرجة الماجستير ، ص : ٣٠٣ .
(٣) محمد مصطفى حلمى : الحياة الروحية فى الإسلام ، مرجع سابق ، ص : ٢٧ .
(٤) أبو نصر السراج ، الطواسى : اللمع ، تحقيق عبد الحليم محمود ، وطه عبد الباقى سرور (القاهرة : لجنة التراث الصوفى ، ١٣٨٠ هـ) ص : ١٧٣ ـ ١٧٤ .

« هذا كتاب ربى ، ولابد للعبد إذا جاءه كتاب سيده أن ينظر فيه كل يوم ليعمل عافيه » ، وما فتى ، كذلك حتى قتل والمصحف بين يديه .

كما كان عثمان بن عفان فى مجاهداته لنفسه زاهداً مع كثرة ماله ، لأن الانفاق كان أحب إليه من الإمساك .

ولقد ذكر عنه أنه قال : « لو طهرت القلوب لما شبعت من كلام الله » .

وقال : خير العباد من عصم واستعصم بكتاب الله تعالى [1] .

ومن أقواله أيضاً : وجدت الخير فى أربعة : أولها : التحبب إلى الله تعالى .

وثانيها : الصبر على أحكام الله تعالى . وثالثها : الرضا بتقدير الله عز وجل . ورابعها : الحياء من النظر إلى الله عز وجل [2] .

وكذلك كان على بن أبى طالب رضى الله عنه زاهداً منقشفاً صابراً حتى لقد كان يرقع قميصه ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ! لم هذا ؟ فقال : ليخشع القلب ويقتدى به المؤمن [3] .

ومما رواه الإمام الشعرانى عن مالك المعرفة عند الإمام على رضى الله عنه قوله : فمالك المعرفة عنده تجتاز فى تسع كما قال عنه أبو عبيدة : « ارتجز الإمام على بن أبى طالب تسع كلمات : قطع الأطماع عن اللحاق بواحدة منهن .

ثلاث فى المناجاة ، وثلاث فى العلم ، وثلاث فى الأدب .

فأما التى فى المناجاة : فهى قوله : كفانى عزاً أن تكون لى رباً ، وكفى به فخراً أن أكون لك عبداً ، أنت لى كما أحب فوفقنى لما تحب .

وأما التى فى العلم فهى قوله : المرء مخبوء تحت لسانه ، فتكلموا تعرفوا ، ما ضاع امرؤ عرف قدره .

وأما التى فى الأدب فهى قوله : أنعم على من شئت تكن أميره ، واستغن عمن شئت تكن نظيره ، واحتج إلى من شئت تكن أسيره [4] .

ولأمير المؤمنين على بن أبى طالب منزلة خاصة ورفيعة ، وله خصوصية بين جميع

---

(١) المناوى ، عبد الرؤوف : الكواكب الدرية (مصر : الطبعة الأولى ، ١٣٥٧ هـ) ج ١ ، ص : ٣٦ .
(٢) أبو نصر السراج ، الطواسى : اللمع ، مرجع سابق ، ص : ١٧٨ .
(٣) محمد مصطفى حلمى : الحياة الروحية فى الإسلام ، مرجع سابق ، ص : ٢٨ .
(٤) الشعرانى ، عبد الوهاب : الطبقات الكبرى (القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، د . ت) ص : ١٧ ـ ١٨ .

أصحاب رسول الله ﷺ بمعانى جليلة ، وإشارات لطيفة ، وألفاظ مفردة ، وعبارة ، وبيان للتوحيد ، والمعرفة ، والإيمان ، والعلم ، وغير ذلك من خصال شريفة ، تعلق وتخلق بها أهل الحقائق (١) .

أليس هو الذى أشار إلى العارفين حين قال لكميل بن زياد : أولئك الأقلون عدداً ، الأعظمون قدراً عند الله ، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح حقيقة اليقين .

وتكلم فى المعرفة : فقد سئل عن المعرفة فقيل له : بما عرفت ربك ؟ فقال : بما عرفنى نفسه ، لا تشبهه صورة ، ولا يدرك بالجواس ، ولا يقاس بالناس ، قريب فى بعده ، بعيد فى قربه ، فوق كل شىء ولا يقال تحته شىء ، وتحت كل شىء ولا يقال شىء فوقه ، أمام كل شىء ولا يقال شىء أمامه ، داخل فى الأشياء ، لا كشىء ، ولا من شىء ، ولا فى شىء ولا بشىء ، سبحان من هو هكذا ، ولا هكذا غيره (٢) .

ومما روى عنه أنه قال أيضاً : الخير كله فى أربعة : « الصمت ، والنطق ، والنظر ، والحركة » .

فكل صمت * : لا يكون فى فكر فهو سهو ، وكل نطق : لا يكون فى ذكر الله تعالى فهو لغو ، وكل نظر : لا يكون فى عبرة فهو غفلة ، وكل حركة : لا تكون فى تعبد الله فهى فترة . فرحم الله عبداً جعل نطقه ذكراً . وصمته فكراً ، ونظره عبرة ، وحركته معبداً ، ويسلم الناس من لسانه ويده .

ولقد كانت حياة الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه بعد وفاة الرسول ﷺ مثالاً على للتضحية قضاها فى التعبد والتهجد والتأمل فى القرآن الكريم . فقد كان الوعاء الذى انقدح فيه العلم الإسلامى سواء أكان هذا العلم مستنبطاً عن طريق الذوق أو عن طريق العقل (٣) .

فالحقيقة أن الإمام على تربى فى حجر النبوة ، ووحى تأملها ، واستمع إلى رسول الله ﷺ فى مواطن الوحى المتعددة يلقى عليه بالقرآن . فتفتح قلبه الحوارى الصغير العظيم ، وأصبح مرآة مجلوة تتأمل مجريات الحوادث وينصقل فيها الحكم والعبر فيلقيه إلى الناس نوعاً من العلم المباشر (٤) .

(١) أبو نصر السراج ، الطواسى : (سمع ، مرجع سابق ، ص : ١٧٩ .
(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .
* من أراد أن يقف على حقيقة ما ذكرناه فليراجع بحثنا المنشور بمجلة كلية الآداب جامعة الزقازيق فرع بنها العدد الثالث ، ١٩٩٤ م تحت عنوان : « سيكولوجية الصمت ، دراسة إسلامية نفسية » .
(٣) على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام (الإسكندرية : دار المعارف ، ١٩٦٥) ج ٣ ص ١٠٨ :
(٤) على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص : ١٠٨ .

ونحن نجد كذلك بذور الحياة الروحية المغروسة فى قلب النبى ﷺ ، وقلوب صحابته من الخلفاء الأربعة فى قلوب كثير من الصحابة غير الخلفاء .

ونذكر هنا على سبيل المثال أهل الصفة وما كان لهم من أثر قوى فى تاريخ الحياة الروحية عادة . وأهل الصفة هؤلاء قوم من فقراء المهاجرين والأنصار ، كانوا يفدون على رسول الله ﷺ بالمدينة ، وليس لهم أهل ولا مال ، فبنيت لهم صفة فى مؤخر مسجد النبى ﷺ بالمدينة ، وانقطعوا فى صفتهم إلى الله ، وعكفوا على العبادة ، وأمعنوا فى رياضة أنفسهم على الزهد والتقشف ، فتجردوا عن أعراض الدنيا ، واتجهوا وجهة روحية خالصة ، حتى لقد وصفهم أبو نعيم الأصبهانى بقوله :

« هم قوم أخلاهم الحق من الركون إلى شىء من العروض ، وعصمهم من الافتتان بها ، وجعلهم قدوة للمتجردين من الفقراء ، لا يأوون إلى أهل ولا مال ، ولا يلههم عن ذكر الله تجارة ولا حال ؛ لم يحزنوا على ما فاتهم من الدنيا ، ولم يفرحوا إلا بما أيدوا به من العقبى »(١) .

كان النبى ﷺ يحبهم ويعطف عليهم ويجالسهم ؛ وكان أهل بيته يوالونهم ويخالطونهم اقتداء به ، وسيراً على نهجه : فقد كان الحسن بن على بن أبى طالب ، وعبد الله ابن جعفر ، ممن يرون فى محبة أهل الصفة كمال الدين ، وفى مجالستهم تمام الشرف ، ويتقربون منهم اقتباساً من أخلاقهم وآدابهم .

ولعل أبا هريرة رضى الله عنه هو أشهر من سكن الصفة طوال حياة النبى ﷺ ، ولم يبرحها . ولقد أفاضت كتب الطبقات فى وصف زهده وفره وتقشفه وحفلت بكثير من أقواله التى تدل دلالة واضحة على هذه النزعة الروحية التى نزع إليها هو وأصحابه من أهل الصفة .

وثمة غيرنا ما ذكرنا من الصحابة طائفة أخبارها فى النسك والزهد مشهورة ، حسبنا أن نذكر منه غيما الدارى الذى يعرف بكثرة تهجده ، ويروى عنه أنه كان يقضى ليلة مرتلاً قوله تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (٢) .

أو قوله تعالى : ﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٣) .

(١) محمد مصطفى حلمى : الحياة الروحية فى الإسلام ، مرجع سابق ، ص : ٢٨ ـ ٢٩ .
(٢) سورة : الجاثية : آية : ٢١ .
(٣) سور : الجاثية : آية : ٢٢ .

وأباذر الغفارى الذى يحكى عنه أنه كان يظل طوال نهاره يتفكر فيما هو صائر إليه .

وحذيفة بن اليمانى الذى وصفه صاحب الحلية بقوله :

« سكن عند انفاقة والعدم ، وركن إلى الإنابه والندم » .

ولقد وصفهم الكلا باذى قائلاً » (١) .

« سبقت لهم من الله الحسنى ، وألزمهم كلمة التقوى ، وعزفت نفوسهم عن الدنيا ، وصدقت مجاهداتهم ، فتالوا علوم الدراسة ، وخلصت عليها معاملاتهم فمنحوا علوم الوراثة ، وصفت سرائرهم ، فأكرموا بصدق الفراسة ، ثبتت أقدامهم ، وزكت أفهامهم ، وأنارت أعلامهم ، فهموا عن الله ، وساروا إلى الله ، وأعرضوا عما سوى الله ، فرقت الحجب أنوارهم ، وجالت حول العرش أبصارهم ، فهم أجسام روحانيون ، وفى الأرض سماويون . ومع الخلق ربانيون ، سكوت نظار ، غيب حضار ، ملوك تحت أطمار ، أنزاع قبائل ، وأصحاب فضائل وأنوار ودلائل ، آذانهم واعية ، وأسرارهم صافية نورية صفية ، ودائع الله بين خليقته ، وصفوته بين بريته ، ووصاياه لنبيه ﷺ لقوله تعالى :

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ (٢) .

ولقد كان أهل الصفة يقضون أوقاتهم فى تفهم القرآن وتعلمه ، وترديده مرتلاً ، يتأملون ويتفكرون فى القرآن المنزل على رسول الله ﷺ .

هؤلاء هم الصحابة الذين أقبلوا على الله وأعرضوا عن الدنيا ، قد أثنى عليهم وامتدحهم القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ (٣) .

وقد أشار الرسول ﷺ إلى علو منزلتهم فقال :

« أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » (٤) .

لقد تربى هؤلاء الصحابة فى حجر النبوة سابحين فى حياض المعرف اللدنيه التى تنثال على قلب صاحب الرسالة لينهلوا منها ، فعلمهم وذوقهم من هذه الحياض النضرة التى لا

(١) الكلاباذى ، أبو بكر محمد : التعرف لمذهب أهل التصوف ، تحقيق محمد أمين النواوى (القاهرة : طبعة القاهرة الثانية ، ١٤٠٠ هـ) ص : ٢٦ ـ ٢٧ .

(٢) سورة : الكهف : آية : ٢٨ .

(٣) سورة : التوبة : آية : ١٠١ .

(٤) رواه البخارى ومسلم .

ينضب معينها ، ومنبعها ، لأنها منه وفضلاً ولطفاً وفيضاً من الله سبحان وتعالى لعباد المخلصين .

ويحدثنا الطوسى ماروى عن الصحابة إجمالاً على لسان أبى عتبة الحلوانى أنه قال : « ألا أخبركم عن حال كان عليها أصحاب رسول الله ﷺ ؟

أولها : لقاء الله تعالى كان أحب إليهم من الحياة . والثانية : كانوا لا يخافون عدواً قالوا أم كثروا ، والثالثة : لم يكونوا يخافون عوزاً من الدنيا ، وكانوا واثقين برزق الله تعالى (١) .

وينتهى بنا هذا كله إلى أن الحياة الروحية الإسلامية قد وجدت بدايتها فى تحنث محمد ﷺ أولاً ، وفى حياة محمد ﷺ والنبى المرسل ثانياً ، وفى نسك الصحابة وزهدهم بعد هذا وذاك .

فهؤلاء الصحابة هم سادات العارفين ، وأئمة الواصلين المقربين ، وقدر السالكين لقوة إرادتهم ، وكثرة منازلاتهم ، ومعانية مالم يعانيه غيرهم . كما كانوا أكمل وأقوى عقولاً ، وأنبت فى الأحوال الإيمانية . وكانوا كما وصفهم الحق تعالى تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم إذا قرى عليهم القرآن (٢) .

وممن سلك مسلك الأخيار فى الزهد حارثة . فقد روى أن حارثة مربا لنبى ﷺ فسأله : كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال : أصبحت مؤمناً حقاً يا رسول الله . فقال ﷺ : لكل حق حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ فقال : عزفت نفسى عن الدنيا ، فاستوى عندى ذهبها ومدرها ، وكأنى انظر إلى أهل الجنة فى الجنة يتنعمون ، وإلى أهل النار فى النار يعذبون ، وكأنى انظر إلى عرش ربى بارزاً ، من أجل ذلك أسهرت ليلى وأظمأت نهارى ، فقال له الرسول ﷺ :

« يا حارثة عرفت فالزم » (٣) .

وهنا يرى الباحث أن أكابر الصحابة مثل الصديق ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، رضى الله عنهم ، والسابقين من المهاجرين والأنصار عاشوا حياتهم الروحية فى التأمل والتفكر والتدبر فى الآيات الكونية الدالة على قدرة الله من أراد أن يسلك مسلكهم ليأخذ العظة والاعتبار عند النظر فى مكونات الحق الظاهرة فيرقى فكره ويتيقظ قلبه عن نوم الغفلة ويقبل بكليته على الله حتى يكون فى موطن القرب من الله سبحانه وتعالى فيكون طائعاً لله .

(١) أبو نصر السراج ، الطوسى : اللمع ، مرجع سابق ، ص : ١٦٧ .

(٢) عبد البارى محمد داود : الفناء عند صوفية المسلمين والعقائد الأخرى . دراسة مقارنة مرجع سابق ، ص : ٧٢ ـ ٧٤ .

(٣) رواه الطبرانى : ابن كثير : التفسير (القاهرة : مطبعة التوفيقية ، ١٤٠٠ هـ) ج ٣ ، ص : ٢٨٦ .

الفصل الرابع

هجرة الأبدان امتداد لهجرة القلوب

إذا كانت الهجرة تطلق على الخروج من أرض إلى أخرى ، والهجرة هنا من الهجر بمعنى الترك . وفى هذا المقام يحدثنا الرسول ﷺ فى حديثه الشريف :

« المهاجر من هجر ما نهى الله عنه »[1] .

وإذا كنا نتحدث عن الهجرة النبوية فى كونها هجرة بالجسد من مكة إلى المدينة . فإنما نعنى هنا هجرة للمكان . ومما ينبغى أن يفهم أن الهجرة النبوية لم تكن هجرة للجسد فقط وإنما كانت هجرة للجسد والنفس معاً . أو إن شئت فقل : هجرة للروح أو سياحة روحية فى حب الله سبحانه وتعالى ورسوله صلوات الله وسلامه عليه إن سمح لى بهذا التعبير[2] .

والجدير بالذكر فى هذا المقام أن هذه الهجرة الروحية الخالصة لوجه الله سبحانه وتعالى وابتغاء مرضاته عايشها رسول الله ﷺ ، وكذلك أصحابه من المهاجرين الذين هاجروا معه من مكة إلى المدينة .

من هنا تأخذ الهجرة النبوية معناً آخر غير هجرة الأوطان فتصبح هجرة للنفس بمخالفتها عن مألوفاتها المرذولة . إذ أن النفس مطبوعة على الشر وبها ميل طبيعى إلى الرذيلة فكان ضرورياً إذن أن يتجرد أصحابها عن صفاتها الذميمة المفتقرة إلى الكمال الروحى والسمو الأخلاقى . هذا بالنسبة لنا فيما نأخذه درساً يستفاد به من الهجرة النبوية مصداقاً لقول الرسول ﷺ : « المهاجر من هجر ما نهى الله عنه » .

ومن جانب آخر كانت الهجرة البدنية نتيجة طبية لهجرة القلوب عما كان عليه أهل مكة من الكفر والضلال والشرك والإلحاد . فقد هاجر النبى ﷺ ومن آمن به إلى التوحيد البرئ ،

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه .

(٢) عبد البارى محمد داود : السياحة فى الإسلام ، المبحث الخاص بالهجرة النبوية سياحة بالروح والجسد والنفس ، ص : ٨٠ .

ويراجع هنا : محمد حسين هيكل : حياة محمد ، مرجع سابق ، ص : ٢٢١ ، ص : ٣٨٥ .

والتوكل الصحيح ، والتعاليم السامية التى نهضت بالإنسانية عن حب عميق ، وغيره صادقة ، ثم هاجروا جميعاً بأبدانهم إلى المدينة متحملين كل مشقة وتعذيب فى سبيل الله .

هذا وينبغى أن نوضح أن هجرة الأبدان لا تقع عند الله موقعها إلا إذا كانت تلبية لهجرة القلوب وامتداداً لها . فتندفع الأبدان إلى الهجر لتؤدى هجرة القلوب واجبها وتصل إلى غايتها التى ترنوا إليها من حب وتؤمن به وتبغض ما تجحده .

ولقد ألغى النبى ﷺ هجرة الأبدان الخالية من هجرة القلوب وصدق النيه ، فقال ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ماهاجر إليه »[1] .

فالهجرة على ما تقدم حقيقة تاريخية ، ورمز روحى جميل ، يعبر خير تعبير عما يجب أن يكون عليه المسلم فى كل فترات حياته ، بل فى كل نفس من أنفاسه .

وبذلك تصبح الهجرة رمزاً عن الهجرة الروحية ، أو إن شئت فقل : الهجرة التى لا ترتبط بزمان ولا بمكان[2] .

والهجرة بهذا المعنى الذى يتجاوز الواقع التاريخى ، ويتجاوز الزمان والمكان قد وردت فى الأحاديث النبوية الشريفة وفى القرآن الكريم .

يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه »[3] .

وهذا المعنى الروحى للهجرة النبوية نتبينه فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[4] .

فى هذه الآية القرآنية الكريمة ، يصور الله سبحانه وتعالى إخراج الكفار لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه من مكة ، وهجرته مستخفياً فى جنح الليل مفارقاً البلدة التى ولد

---

(١) رواه البخارى ومسلم فى صحيحهما . ابن رجب الحنبلى : جامع العلوم والحكم ، تحقيق محمد الأحمدى أبو النور (القاهرة : مطابع الأهرام التجارية ، ١٩٦٩) ، ج ١ ، ص : ١٠ .

(٢) عبد الحليم محمود : دلائل النبوة ومعجزات الرسول (القاهرة : دار الإنسان ، ط ٢ ، ١٤٠٤ هـ) ص : ٧٦ .

(٣) رواه البخارى .

(٤) سورة : التوبة : آية : ٤٠ .

فيها ، والتى بها عشيرته وقومه ، إلى بلدة يجد فيها حرية الدعوة إلى الله . يصور الله سبحانه وتعالى ذلك بأنه انتصار .

وهكذا ينبغى أن نوضح لأصحاب العقول أن الحق سبحانه وتعالى ، يصوره بأنه انتصار فى الوقت الذى كان فيه الرسول صلوات الله وسلامه عليه مختبئاً فى الغار ، هو والصديق رضوان الله عليه ، والمشركون - بخيلهم ورجلهم ، وعدتهم وعتادهم - منتشرون فى كل مكان يبحثون عنها : جاهدين للتنكيل بهما [1] .

وما من شك فى أن الهجرة كانت انتصاراً مبيناً ، لأنها فرار إلى الله . والفرار إلى الله انتصار ، حتى ولو انتهى بالموت أو القتل .

قال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [2] .

ونحن مأمورون بالفرار إلى الله ، أى بالهجرة إليه . قال تعالى :

﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [3] .

فإذا كانت الهجرة النبوية لرسول الله ﷺ هجرة للجسد والنفس معاً كما أوضحنا فى ماضى قولنا فإن الهجرة كانت حالاً من أحوال الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم .

فسيدنا لوط عليه السلام قال : ﴿ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [4] .

وسيدنا إبراهيم عليه السلام قال : ﴿ إنى ذاهب إلى ربى سيهدين ﴾ [5] .

والفرار إلى الله ، والهجرة إليه ، والذهاب إليه ، من صفات المؤمنين الصادقين ؛ إنهم يفرون إلى الله ويهاجرون إليه كل يوم وكل وقت ، فالفرار إلى الله هدفهم النبيل ، وغاياتهم فى جميع أحوالهم وأعمالهم [6] .

ويجدر بنا أن نوضح فى هذا المقام إذا كانت هجرة بعض الناس إلى دنيا يصيبها ، أو إلى امرأة ينكحها ، فهجرة المؤمن الصادقة إنما تكون خالصة لله وحده ولوجهه الكريم . ومن كان

(١) عبد الحليم محمود : دلائل النبوة ومعجزات الرسول ، مرجع سابق ، ص : ١٧٦ - ١٧٧ .
(٢) سورة : الحج : آية : ٥٨ .
(٣) سورة : الذاريات : آية : ٥٠ .
(٤) سورة : العنكبوت : آية : ٢٦ .
(٥) سورة : الصافات : آية : ٩ .
(٦) عبد الحليم محمود : دلائل النبوة ومعجزات الرسول ، مرجع سابق ، ص : ١٧٧ .

كذلك فإن الله ينزل عليه السكينة ، أى طمأنينة النفس والرضا ، ويؤيده بجنود لا تراها الأعين ، فيدخله فى نطاق رعايته ، ويشمله بجميع عنايته ، وتوفيقه ، ورضاه ما يجعله قرير النفس ، هادئ البال سعيداً [1] .

فإذا ما توجهت النية بالأعمال إلى الله تعالى كانت الأعمال هجرة إليه ، ، أما إذا لم تتوجه إليه النية فإن الأعمال - ولو كانت خيراً فى ظاهرها - تكون هباءً منثوراً .

ومن هنا يتبين للمؤمنين حقاً فساد الأفكار التى يوجهها الحائدون عن المنهج الدينى الصحيح من أمثال قولهم : إن العلم للعلم ، أو الفن للفن ، أو الخير للخير ، أو الخير لارضاء الصمير . إن كل ذلك يدل على عدم الفهم السليم للروح الدينية الصحيحة ، وهو أيضاً خطر على المجتمع لأن العلم والفن إذا لم يتجه بهما أصحابهما إلى الله أسمى وغايات انحرفت بهما الإرادات والنيات إلى الشر والفساد ، فشقيت بهما الإنسانية بدل أن تسعد .

أما الخير فإن معرفته معرفة حقيقية لا يتأتى إلا عن طريق الدين ، وقد حاولت العقول مستقلة عن الدين تحديده فتعارضت وتضاربت ولم تصل إلى نتائج .

وعلى ضوء ما تقدم نستطيع أن نقول : المؤمن يهاجر إلى الله بعمله ، ويهاجر إلى الله بنيته ، ويهاجر إلى الله بعمل الخير .

ولا ينبغى أن نغفل فى هذا المقام لابد وأن نلفت النظر إلى أن العبادات الإسلامية على تعددها واختلافها ، إنما هى تنسيق وتنظيم لأنواع وألوان من الهجرة إلى الله تسمو بالمؤمن صعداً إلى الصلة بالله ، وإلى النعيم فى رضوانه ، وإلى السعادة فى رحابه .

فالصلاة فرار من البيئة والجو والمادة إلى الوقوف بين يدى الله ومناجاته - لحظة من الزمن - فهى هجرة إلى الله [2] .

والزكاة انفصال عن جزء من المادة تقرباً إلى الله ، فهى ذهاب إليه [3] .

والصوم ابتعاد عن المادة فترة من الزمن ، تزكية للنفس ، وقرب إلى الله ، فهو ذهاب إليه [4] .

(١) عبد الحليم محمود : الرسول ﷺ ، مرجع سابق ، ص : ١٤١ .
وانظر : سليمان بن سحمان : منهج أهل الحق والإتباع (القاهرة : دار الفرقان ، ١٤٠١ هـ) ص : ١٨ - ٢٢ .
(٢) عبد البارى محمد داود : السياحة فى الإسلام ، المبحث الخاص بالزكاة سياحة روحية ، ص : ١٤٣ - ١٤٧ .
(٣) المرجع السابق ، المبحث الخاص بالزكاة سياحة روحية ، ص : ١٦٩ - ١٧١ .
(٤) نفس المرجع السابق ، المبحث الخاص بالصوم سياحة روحية ، ص : ١٧٧ - ١٨٠ .

أما مناسك الحج فإنها صور من التجرد لله بلغت الذروة والسنام ، وتبلورت فى النداء الروحى الكريم : « لبيك اللهم لبيك »(١) .

وإذا كانت الهجرة فى الإسلام تتمثل فى الانتقال من مكان إلى آخر كما حدث لرسول الله ﷺ فى هجرته من مكة إلى المدينة ، فإن مفهوم الهجرة يأخذ معنى هجر المعاصى والرذائل ، وهذه هجرة فى مخالفة النفس وعدم إطاعتها فى المخالفات الشرعية .

ولنا هنا درساً مستفاداً من الهجرة . هذا الدرس بعد من جملة الدروس المتعددة التى أخذناها ألا وهو : « الأدب » . فيتأدب الإنسان بالآداب والأخلاق الإسلامية ، ويتجلى بالأخلاق المحمودة ، ويتخلى عن الأخلاق المذمومة . فتبدل عنده الحركات المذمومة إلى الحركات المحمودة التى أمر بها الشرع ، ثم التفرد لأمر الله سبحانه وتعالى ، ثم التوقف فى الرشاد ، ثم الثبات ، ثم البيان ، ثم القرب ، ثم المناجاة ، ثم المعافاة ، ثم الموالاة ، ويكون الرضا والتسليم مراده ، والتفويض والتوكل حالة ، ثم يمن الله بعد هذا بالمعرفة ، فيكون مقامه عند الله مقام المتبرئين من الحول والقوة . وهذا مقام حملة العرش وليس بعده مقام (٢) .

لذلك يمكن القول من أراد أن يأخذ المنهج النبوى دستوراً له فإنما يتمثل فى كون المهاجر المتنقل من مكان إلى مكان آخر أن تأخذ هجرته معناً آخر هو هجرة للروح فى طاعة الخالق عز وجل . وهذا ما فعله الرسول ﷺ ، وكذلك السلف الصالح من الصحابة رضوان الله عليهم الذين انتهجوا النهج النبوى فى أقوالهم وأفعالهم .

وتأكيداً لصحة ما نقول يروى الصحابى الجليل عمرو بن عنبسة رضى الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ : أى الإيمان أفضل ؟ فقال الرسول ﷺ : الهجرة . فقال الصحابى : وما الهجرة ؟ فقال الرسول ﷺ أن تهجر السوء »(٣) .

هذا الحديث النبوى الشريف يوضح لنا لوناً من الهجرة أن نسميها بالهجرة يمكن أن نسميها بالهجرة الروحية ، أو هجرة النفس ، وهى تتمثل فى كون المرء متحرراً من الرذائل والقبائح ومتحلياً بالفضائل والقيم الأخلاقية . أو بعبارة أخرى سباحة روحية خالصة للنفس يترفى فيها السائح فى درجات من السمو الأخلاقى إن سمح لى بهذا التعبير .

وها نحن الآن نستكمل الحديث عن الهجرة الروحية فيما ترويه أم أنس رضى الله عنها

(١) نفس المرجع السابق ، المبحث الخاص بالحج سياحة روحية ، ص : ١٩٥ ـ ٢٠٤ .
(٢) كامل سعفان : سبحان الله (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٠ م) ص : ٢٩ .
(٣) رواه أحمد ورواته ثقات .

قالت : يا رسول الله أوصنى ! فكان مما أوصاها به رسول الله ﷺ أن قال لها : « اهجرى المعاصى فإنها أفضل هجرة »(١) .

والناظر لهذا الحديث النبوى الشريف يجد أن رسول الله ﷺ يدعو فيه أم أنس إلى الهجرة الروحية الخالصة لله عز وجل ، وذلك بأن تهجر المعاصى لأنها خير هجرة للمرء فى دنياه لكى يفوز برضا مولاه .

من هنا كان الواجب على المرء أن يهاجر إلى الله فى كل لحظة من لحظات عمره ، فيهاجر إليه بالنية الخالصة لوجهه تعالى ، ويهاجر إليه بالأعمال الصالحات فيصبح فى معية الحق سبحانه وتعالى .

وتصبح الهجرة على هذا النحو الذى ذكرناه دعو للتأمل والتدبر لكونها مأخوذة من الهجر . والهجر يعنى الترك .

وفى الصفحات القادمة من هذا البحث سوف تفرداً مبحثاً خاصاً لمعالجة هذا الموضوع بشىء من التركيز والتحليل .

ومما هو جدير بالذكر فى هذا المقام لابد وأن توضح أن هجرة الرسول ﷺ لم تكن فرار بنفسه من عدوة ، ولا نجاه لروحة من إزهاق وقتل ، بل كانت تضحية مريرة صابرة فى سبيل نشر الدعوة الإسلامية وتصحيح العقيدة .

وبذا كانت الهجرة درساً معلماً ورائداً موجهاً إلى الطريق الحق وإلى صراط المستقيم * .

فالهجرة الروحية على نحو ما قدمنا إنما تعنى هجر ما نهى الله عنه ، فالحق سبحانه وتعالى باق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ولنضرب الآن أمثله كثيرة على ما نحن بصدده : فترك الأنانية وحب الذات هجرة ، وترك التجسس على عورات الناس هجرة ، وترك الكيد واندس بين الأفراد والجماعات هجرة ، وتطهير الصدر من الأضغان والأحقاد هجرة .

والهجرة تغذينا بغذاء روحى يجدد الإيمان ، وتنفحنا بروح قوى يطارد نزعة الشيطان .

لقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يؤمنون بالله عز وجل ويتبعون الرسول ﷺ ، ويدافعون عن دعواته ، وقد ذابت أرواحهم ، وذبلت أجسامهم فى سبيل رسالته . وأن نشر رسالتهم يحتاج إلى وضع أرواحهم فى أكفهم ، وأن ثبات أمرهم متوقف على خلع أنفسهم من الدنيا ، خلعوها وهم راضوان مغتبطون . ينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون .

(١) واه الطبرانى بإسناد جيد وقال إنها ليست أم أنس بن مالك .
* سوف نعالج هذا الموضوع بالشرح والتحليل فى مؤلف آخر أسميناه : « الاستقامة الشرعية » .

فالهجرة لها شأن عظيم لا يدرك أمرها إلا أصحاب العقول المستنيرة والقلوب المؤمنة ـ وهذا هو أميراً المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : وددت أن عملى كله فى عمرى كله بعد عند الله عمل يوم واحد من أيام أبى بكر ، وليلة واحدة من لياليه .

فقالوا له : أى يوم ؟ وأى ليلة ؟ فقال : يوم الردة ، وليلة الهجرة ، فلولا وقفته يوم الردة لضاع الإسلام ، ولولا الهجرة لما انتصر الإسلام .

ويستخلص من ذلك أن للهجرة شأن وعلو منزله تمناها الفاروق رضى الله عنه وكلنا يدرى من الفاروق وما منزلته فى الإسلام والدعوة الإسلامية .

ولقد اتخذ حادث الهجرة مبدأ للتاريخ الإسلامى .

هذه بعض دروس الهجرة ، وتلك بعض العبر والعظات منها ، ولئن كانت الهجرة قد فاز بها الأولون ، ولم يعد بعد فتح مكة هجرة للآخرين . إن لنا لنوعاً آخر من الهجرة لم يغلق بابه ، ولم يمض زمانه ، وهو أساس هذه الهجرة وروحها : ذلكم هو هجرة القلوب من الباطل إلى الحق ، ومن الشر إلى الخير ، ومن الضلال إلى الهدى ، ومن المعصية إلى الطاعة . وفى هذا المعنى يقول الرسول ﷺ :

« المهاجر من هجر ما نهى الله عنه »[1] .

ولولا أن هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة كانت مبنية على أساس وطيد من ليس لها من دافع إلا الإيمان بالله وامتثال أمره ، والجهاد لإعلاء كلمته ، لما كانت شيئاً مذكوراً ، ولما نظر الله إليها ، ولما نجح أصحابها .

وبذلك يكون الهدف من الهجرة هو قطع عروق العلائق بالفرار من وطن العوائق .

فالإقامة فى الوطن الحسى ـ حسبما يرى ابن عجيبة ـ فى ضوء شرحه لقول ابن عطاء الله السكندرى : «أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته» .

لا يخلو معها المريد من التعلقات الحسية . ولذلك نراه يمثل المريد بالماء الذى إذا طال فى موطن واحد تغير ، وإذا جرى عذب ، وبقدر ما يسير المريد فى الحسى يسير أيضا فى المعنى ، وبقدر ما يسير فى القالب يسير فى القلب[2] .

كل ذلك بالإضافة إلى أنَّ الهجرة سنة نبوية ، ومنذ هاجر النبى ﷺ لم تكن له راحة إلا فى السفر والجهاد . وذلك بالإضافة إلى فائدة السفر والسياحة فى مساعدة السالك على التحقيق

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

(٢) ابن عجيبة ، أحمد بن محمد : إيقاظ الهم فى شرح الحكم (القاهرة : مطبعة الحلبى ، ط ٣ ، ١٤٠٢ هـ) ص : ٤٤

بأن يبتعد عما يشغل باطنه عن غير الله سبحانه وتعالى . ومن ثم يستطيع الإقبال عليه سبحانه ، وسلوك الطريق حتى الوصول إلى الحضرة الإلهية .

ولقد كان لكل هذه الأسباب دورها الفعال فى جعل التابعين فى رحيل دائم لا تستطيب لهم الإقامة فى وطن حسى واحد . ولكن ذلك لم يمنع أيضا من أن يرى هؤلاء أن السفر والهجرة يمكن أن يكونا أمران معنويان .

ولذلك نرى ابن عباد الرندى يفسر قول ابن عطاء الله السابق عن الرحيل بمعنى أنَّ إشراق القلب بنور الإيمان واليقين مضاد لظلمة التى استولت عليه من جراء ركونه إلى الأغيار والأكوان واعتماده عليها ، ومن ثم يعنى عليه المسير إلى الله تعالى بقطع عقبات النفس ، وعدم الخضوع لاعتقال الهوى والشهوات .

ويضع الخواص (*) شرطا لجواز الهجرة يقول فيه : شرط جواز الهجر على الهاجر بوقوع المهجور فيما هجر لأجله يقينا أو ظنا أو تخمينا ، فلا يجوز لكل الهجر من غير تحقق وتثبت[2] .

وقد قيل فى قول الحق تبارك وتعالى

« ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله» .

فعلامته أن يكشف له تعالى الأستار ويرتفع عنه الحجاب ويطلعه الله تعالى على بواطن الأمور كشفا وفراسة . فبالكشف يدرك جملة ، وبالفراسة يدركها تفصيلا على أصل الوضع وحقيقة الرسم ، فيخاطب الأرواح من حيث وضعها ، ويخاطب الأجسام من حيث تركيبها ، ويشير إلى العلم رموز الإشارة ويفهم كشف العبارة[3] .

وكذلك يمكن القول بأنه لا يوصف العبد بأنه قد هجر المعاصى إلا إذا كانت لم تخطر له على بال ، فإن حقيقة الهجر نسيان المهجور هذا فى حق الأولياء فإن لم يكن كذلك فليهجر على المكابدة والمجاهدة[4] .

والهجرة إلى الله والرسول إنما تعنى الارتحال من الأكوان إلى المكون الذى هو مطلوب من العبد[5] .

وفى ذلك يقول ابن عطاء الله السكندرى : لا ترحل من كون إلى كون فتكون كحمار

(١) ابن عباد الرندى : غيث المواهب العلية فى شرح الحكم العطائية ، تحقيق عبد الحليم محمود ، ومحمود بن الشريف (القاهرة : دار الكتب الحديثة ط ١ ، ١٩٧٠ م) ج ١ ، ص : ٩٣ .

* هو شيخ الامام الشعرانى وأستاذه

(٢) الشعرانى : الطبقات الكبرى ، ج ١ ، ص : ١١٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص : ١٣٣ .

(٤) الشعرانى : الطبقات الكبرى ، ج ٢ ، ص : ٩ .

(٥) ابن عطاء الله السكندرى : الحكم ، بشرح عبد الله الشرقاوى (القاهرة : مطبعة صبيح ، ١٩٧٠ ، ص : ٢٩ .

الرحى يسير، المكان الذى انتقلت إليه، كالمكان الذى انتقلت منه، ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون وأن إلى ربك المنتهى.

كما يقول الإمام أبو العزائم [1]:

إلى غيب مجلى الذات هاجرت تغريدا ... فأشرق هذا الغيب للروح مشهودا
وفى أى «لاتحزن» شراب تدبرهـــا ... على روح صديق فيفقه توحيدا
تهاجر يا مولاى والقـــدس موئلٌ ... لتشهد فى حق العبودة معبودا

وتتمثل الهجرة فى الذهاب إلى الله لقوله تعالى: «إنى ذاهب إلى ربى».

فالذهاب إلى الله هو توجه يتضمن محبة الله سبحانه وتعالى. وهنا يكون المرء مسقطا التدبير مع الله، ولا يكون له مع الله مراد، فالأمر أمره والتدبير تدبيره.

وهذه الهجرة يمكن أن تطلق عليها الفرار إلى الله لقوله تعالى: ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ [2].

وهكذا تكون الهجرة إلى الله عز وجل لقوله تعالى: ﴿ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ [3].

ومما يؤكد ما نحن بصدده نسجل هنا قول ابن مسعود فيما يتعلق بالفرار إلى الله: «كونوا جدد القلوب، خلقا من الثياب، مصابيح الظلام، تحفون على أهل الأرض وتعرفون فى السماء، فهؤلاء أخص أهل الغربة، وهم الفارون بدينهم من الفتن، وهم الفزاع من القبائل الذين يحشرون مع عيسى بن مريم عليه السلام، وهم بين أهل الآخرة أعز من الكبريت، فكيف يكون حالهم بين أهل الدنيا؟!!

ولا شك أن هذه المعانى كلها تؤدى إلى الانحلال من تدبير النفس إلى تدبير الله سبحانه وتعالى.

وإذا كنا تحدثنا فيما سبق عن الفرار إلى الله الذى يعنى القرب منه بالخوف منه فإنه فى هذا المقام وجب علينا أن نذكر أنماطا من الفرار توضح الفرار إلى الله تعالى نجملها على الترتيب التالى:

أولا: الفرار إلى الله تعالى من الكفر إلى الإيمان، ولا شك أن هذه المرحلة هى الرحلة الأساسية حتى يدخل المرء خطيرة الإيمان.

ثانيا: الفرار إلى الله تعالى من المعاصى إلى الطاعات وذلك يكون بعد الإيمان.

ثالثا: الفرار إلى الله تعالى من الطاعات مع الطاعات إلى القربات.

(١) أبو العزائم، محمد ماضى: ديوان ضياء القلوب (القاهرة: دار الكتاب الصوفى، ط ٢، المجلد الثانى ١٤١٢ هـ) ص: ٥٩٧.
(٢) سورة: الذاريات: آية: ٥٠.
(٣) سورة: العنكبوت: آية: ٢٦.

رابعا: الفرار إلى الله من القربات مع القربات إلى الله سبحانه وتعالى [1].

وهنا يمكننا أن نقول: إن جملة ففروا إلى الله سبحانه وتعالى تسير مع الإنسان فى كل لحظة، أى ففرو إلى الله من حالة أخرى تكونون فيها أقرب إلى الله تعالى. فإذا ما اتجه الإنسان هذا الاتجاه كان من المقربين.

فالقريب من الله عز وجل يتمثل الله دائما فى كل خطوة يخطوها بحيث يدرك أن الله أقرب إليه من حبل الوريد [2].

وختاما فإن الصورة التامة الكاملة للهجرة الإسلامية الكبرى إنما تتمثل أروع مظاهرها فى قوله تعالى: «قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين. لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين» [3].

ويترتب على ذلك فى ضوء ما تقدم عن الهجرة أنها ليست هجرة فقط للأوطان فى الانتقال من مكان إلى مكان. فهذه هى هجرة الجسد. أو إن شئت فقل: هجرة أرضية عبر الأقطار. ولكن الهجرة تأخذ معنا آخر عندما تنتقل من الجسد إلى النفس فتكون حجرة نفسية أو هجرة للنفوس يفر فيها لامء إلى الله سبحانه وتعالى سابحا فى الملأ الأعلى.

هذه الهجرة يمكن التعبير عنها بأنها هجرة روحية خالصة تربط ظاهر الإنسان بباطنه وعقله وقلبه وروحه ووجوده بخالقه.

وبعبارة أخرى نستطيع أن نقول: إن الهجرة على هذا النحو تعد هجرة روحية خالصة لوجه الله والتعجب فى آلائه حتى تتخلص النفس من المرذولات وتتجمل بالأخلاق الفاضلة هجرة روحية للذهاب فى الله وسمو النفس سموا أخلاقيا. هجرة روحية إلى الله والفرار إليه. هجرة روحية فى قصد التوجه بالنية الخالصة لوجه الحق عز وجل. هجرة روحية فى الترقى إلى المقامات العالية بمخالفة النفس وإماتتها والتخلى عن كل مذموم والتحلى بكل محمود. هجرة روحية فى القرب من الله. هجرة روحية فى المناجاة مع الحق. هجرة روحية فى التفويض والتسليم لله سبحانه وتعالى. هجرة روحية فى التبرى من الحول والقوة. هجرة روحية فى طاعة الله وتقواه. هجرة روحية فى الحياء من الله. هجرة روحية فى التواضع لله. هجرة روحية إلى الملأ الأعلى.

(١) السهروردى: عوارف المعارف، تحقيق عبد الحليم محمود، ص: ١٨.
(٢) عبد البارى محمد داود: السياحة فى الإسلام، ص: ٨٣.
(٣) سورة: الأنعام: الآيتان: ١٦٢، ١٦٣.

الفصل الخامس

الحياة الروحية عند التابعين

لقد أوضحنا فيما تقدم كيف كانت الحياة الروحية التى كان يحياها النبى ﷺ مثلا أعلى يتأثره أصحابه رضوان الله عليهم، ويتحققون بما ينطوى عليه من معانى العبادة والزهد فى الدنيا والإعراض عن جاهها ومتاعها والإقبال على الله سبحانه وتعالى.

وها نحن رأينا أن حياة النبى ﷺ، وحياة أصحابه، وما ضربه كل منهم من الأمثال على رياضة النفس ومجاهدة الشهوة والهوى والعمل على تنمية بذور الإيمان والتقوى. قد كان كل أولئك أسوة حسنة، وقدوة صالحة اقتدى بها، واهتدى بهديها من جاء فى أعقاب النبى وأصحابه من التابعين الذين عرفوا بالنسك والتعبد، وامتازوا فى حياتهم بالتقلل والزهد [1].

هؤلاء التابعون ساروا على نهج النبى وأصحابه، وكان لهم أثرهم الخصب المنتج لأحسن الثمرات فى تغذية الحياة الروحية الإسلامية وتنمية بذورها. كما اهتم التابعون بأمر الدين، وقلة الإقبال على الدنيا، وكثرة الذكر لله. ودوام التفكر فيه والركون إليه، والتوكل عليه[2].

ولعل أول ما يلاحظه المتأمل فى الحياة الروحية لهؤلاء التابعين، أنها كانت مطبوعة بطابع الزهد، خاضعة لسلطان الحزن والبكاء اللذين يدلان دلالة واضحة على مبلغ شعورهم بالألم الناشىء عن المعصية والخوف مما يترتب على المعصية من عذاب.

وإلى جانب هذا الزهد المصحوب بالحزن والبكاء الناشىء عن الخوف، كان زهد آخر مصحوب بحزن وبكاء أيضا، ولكنه ليس هذا الحزن والبكاء الذى مصدره الخوف، وإنما هو حزن وبكاء مصدره الضيق بكثرة ما تراكم على النفس من الحجب التى تحول بينها وبين مشاهدة الله والاستمتاع بجمال ذاته الأزلى.

فالحياة الروحية التى كان يحياها الزهاد والعباد فى القرنين الأولين للهجرة، كان يتقسمها

(١) محمد مصطفى حلمى: الحياة الروحية فى الإسلام، ص: ٨٣ ـ ٨٤.
(٢) المرجع السابق، ص: ٨٤.

الزهد مع الخوف من عذاب النار والطمع فى ثواب الجنة من ناحية، والزهد مع حب الله لذاته وابتغاء لمطامعة وجهه من ناحية أخرى.

ولنضرب الآن أمثلة على ما نحن بصدده:

فالحسن البصرى يعد بحق مثلاً صادقًا للحياة الروحية التى كان يحياها الزاهد المسلم فى القرن الأول، وفى شطر القرن الثانى للهجرة، والتى كان قوامها عنده الزهد فى الدنيا، والإعراض عن جاهها، والإقبال على الله، والتوكل عليه، والخوف منه، والتفكر الدائم فيما بينه وبين نفسه، والتصفح المتصل لما تنطوى عليه نفسه [1].

وليس أول على سيرة الحسن فى حياته الروحية من هذه الصورة التى يصورة فيها أبو نعيم الأصبهانى وذلك فى قوله: «حليف الخوف والحزن، أليف الهم والشجن، عديم النوم والوسن، الفقيه الزاهد، المتشمر العابد، كان لفضول الدنيا وزينتها نابذا، ولشهوة النفس ونخوتها واقذا.

والجدير بالذكر فى هذا المقام أن الحسن البصرى لم يحاول قتل النفس أو كبح جماحها فحسب، بل هو التمس أيضا تصفية القلب وتنقيته عن طريق التأمل والتفكر. فكان تأمله وتفكره مضافا إليهما زهده وتقشفه أساسا أقيمت عليه حياته الروحية.

ولقد صبغ حياته الروحية بصبغة الزهد والتفكر والحزن. وقوله فى التفكر:

«التفكر يدعو إلى الخير والعمل به، والندم على الشر يدعو إلى تركه».

وقوله فى تبرير الحزن: «يحق لمن يعلم أن الموت مورده، وأن الساعة موعده، وأن القيام بين يدى الله مشهده، أن يطول حزنه».

ويعود فيحدثنا عن أثر الحزن فيقول: «طول الحزن فى الدنيا تلقيح العمل الصالح».

والمتأمل فى الحياة الروحية التى كان يحياها الحسن البصرى، وفى أقواله فى الزهد والخوف والحزن والتفكر، وهى عنده دعائم هذه الحياة الروحية [2].

ومن أقواله التى يخاطب فيها الإنسان: «ابن آدم! نفسك نفسك، إنما هى نفس واحدة، إن نجت نجوت، وإن هلكت هلكت، ولم ينفعك من نجا، وكل نعيم دون الجنة صغير، وكل بلاء دون النار يسير.

(١) حسن الشرقاوى: ألفاظ الصوفية ومعانيها (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية ط ٢، د. ت) ص: ١٩.
(٢) محمد مصطفى حلمى: الحياة الروحية فى الإسلام، ص: ٨٩ ـ ٩١.

من هنا نستطيع القول بأن الحسن البصرى مؤسس للمذهب البصرى فى الزهد القائم على الخوف، والتفكر الموصل إلى الإيمان، والحزن والبكاء اللذين يصفيان النفس، ويؤديان بالإنسان إلى الظفر برضوان الله ونعيم الجنة.

إذا كنا تحدثنا عن الحياة الروحية عند الحسن البصرى والتى طبعت بطابع الزهد مع الخوف والحزن فقد طبعت الحياة الروحية عند رابعة العدوية كذلك بهذا الطابع [1].

ولقد كانت حياة رابعة زاهدة عابدة خائفة حزينة باكية، غير أنها زادت على هذا كله عاملاً جديداً كان له آثار قوية فى توجيه الحياة الروحية وجهة جديدة. وكانت رضى الله عنها كثيرة البكاء والحزن. وكانت إذا سمعت ذكر النار غشى عليها زماناً.

من خلال ما قدمناه يتبين لنا مفهوم الحياة الروحية عند التابعين حيث عاشوا فى بداية أمرهم على الفرار من الخلق للانفراد بالملك الحق، وإخفاء الأعمال، وكتم الأحوال، تثبيتاً وعملاً على سلامة قلوبهم، وحباً فى إخلاص أعمالهم لربهم.

قال ﷺ: «طوبى للغرباء، قيل: يا رسول الله: ومن هم الغرباء؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس، وفى رواية: الذين يفرون بدينهم من الفتن، وفى رواية الذين يصلحون ما أفسد الناس من سنتى» [2].

ومما رواه ابن مسعود هنا أنه قال: «كونوا جدد القلوب، خلقًا من الثياب، مصابيح الظلام، تخفون على أهل الأرض، وتعرفون فى السماء، فهؤلاء أخص أهل الغربة، وهم الفارون بدينهم من الفتن، وهم الفزاع من القبائل الذين يحشرون مع عيسى عليه السلام، وهم بين أهل الآخرة أعز من الكبريت، فكيف يكون حالهم بين أهل الدنيا [3].

فالغربة هنا معناها: أن الزاهد يكشف عن ملك الآخرة فتبقى الآخرة موطن قلبه ومعشش روحه فيكون غريبا فى الدنيا إذ ليست وطنا لقلبه، عاين الدار الآخرة فأخذ قلبه فيما عاين من ثوابها ونوالها وفيما شهد من عقوبتها ونكالها فاستغرب فى هذه الدار.

أما العارف بالله سبحانه وتعالى فإنه غريب فى الآخرة فإن انكشف عن صفات معروفة فأخذ قلبه فيما هنالك فصار غريبا فى الآخرة لأن سره مع الله بلا أين. فهؤلاء العباد قصير الحضرة معشش قلوبهم إليها يأتون وفيها يسكنون [4].

(١) المرجع السابق، ص: ٩٢.
(٢) ذكره مسلم فى صحيحة عن أبى هريرة رضى الله عنه.
(٣) ابن رجب الحنبلى: كشف الكربة فى وصف حال أهل الغربة؛ العدد الرابع، تحقيق أسامة حمزة (القاهرة: دار الفتح، د. ت) ص: ٣٢.
(٤) ابن عطاء الله: لطائف المنن، تحقيق عبد الحليم محمود (القاهرة: مكتبة القاهرة، ط الأخيرة، ١٣٩٩هـ) ص ١٩٤.

هكذا يتضح لنا أن الزاهد غريبا فى الدنيا، وأن العارف غريبا فى الآخرة. لأن تاركى الدنيا قليلون، فهم غرباء، وكذلك أهل الجنة تنعموا بنعيمها. والعارفون تعلقت أرواحهم بالحق، فلم يشغلهم عن نعيمها فهم غرباء [1].

هؤلاء التابعون من الخلف الصالح خلفا عن سلف من المؤمنين الذين لا يهتدون إلا بهدى الكتاب والسنة لايكون فى قلوبهم سوى محبة الله وإرادته وعبادته. لأن عندهم من سعة العلم والتمييز ما يشهدون به الأمور على ما هى عليه، بل يشهدون المخلوقات قائمة بأمر الله، مدبرة بمشيئته، بل مستجيبة له، قائته له، فيكون لهم فيها تبصرة وذكرى، ويكون ما يشهدون من ذلك مؤيداً وممداً لما فى قلوبهم من إخلاص الدين، وتجريد التوحيد لله، والعبادة له وحدة لا شريك له.

وهذه هى الحقيقة التى دعا إليها القرآن الكريم، وقام بها أهل التحقيق والكمل من أهل العرفان. عاشوا حياتهم على التفكر والتأمل والسير فى الآفاق والأنفس وذكر الله.

ولقد كان التأمل والتدبر عند هؤلاء نموذجًا واضحًا لانقطاعهم إلى الله عز وجل. وكذلك العبرة والتبصر والفهم فى المعانى، وذلك وارد فى آيات كثيرة فى القرآن الكريم.

وفى الفصل القادم من هذا البحث سوف نوضح ذلك بشىء من التحليل والإسهاب. وكذلك نظر هؤلاء التابعين إلى الكون والإنسان نظرات ذات مغزى أخلاقى بعيد، فهم يريدون أن يبينوا للناس أن الكون مجرد شأن من شئون الله ومصيره حتما إلى الفناء فلا ينبغى التعلق به إلى حد عبادته لقوله تعالى:

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [2].

والقرآن الكريم يدعونا إلى التدبر والتفكر والتيقظ والتذكر وحضور القلب عند تلاوته. من هنا قال سهل: «لو أعطى العبد لكل حرف من حروف القرآن ألف فهم لما بلغ نهاية ما جعل الله تعالى فى آية من كتابة تعالى من الفهم، لأنه كلام الله تعالى وكلامه صفته [3].

ومما ينبغى أن يفهم أن التابعين اتخذوا من الحياة الروحية فى الإسلام التى عمادها الكتاب والسنة منهجا ووسائل وأهداف وغايات للعبودية لله وحده بتوحيده ومعرفته منذ أن نزل

(١) ابن الخطيب: روضة التعريف بالحب الشريف، تحقيق عبد القادر عطا (القاهرة: ط ١، ١٣٨٦ هـ) ص: ٤٢٦.
(٢) سورة: الرحمن: الآيتان: ٢٦، ٢٧.
(٣) الطوسى: اللمع، ص: ١٠٧.

الوحى بأول آية: «اقرأ باسم ربك الذى خلق» . إلى الخلق جميعا. واضعين نصب أعينهم أن غاية خلق الإنسان هى العبودية الخالصة لله سبحانه وتعالى لقوله: «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون»[1].

ولو ذهبنا نعدد تجارب الصالحين منذ عصور متطاولة، دلت على أن تزكية النفس والالتجاء إلى الله، والتقرب إليه، كل ذلك يسمو بالإنسان إلى عالم من الروحانية، تستشرف فيها النفس إلى الملأ الأعلى، فتفيض عليها من نفحات وإلهامات، ومعرفة لا تتأتى بذوى النفوس المادية الذين شغلوا بالدنيا عن الدين، والمادة عن الله[2].

لذلك كان من الواجب على العبد الرجوع إلى الله تعالى فى كل حالاته، وفى كل نفس من أنفاسه، وكل خلجة من خلجاته يذكره فلا ينساه، ويراقبه لأنه معه فى كل ما يأتى ومايدع.

وهنا يحدثنا القشيرى قائلاً: إن الله تعالى مغن عبادة بعضهم عن بعض، لأن الحوائج على الحقيقة لا تكون إلا بيد الله، فالمخلوق لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، فكيف يملك ذلك لغيره؟!

فمن راقب الله سبحانه وتعالى شاهداً بأنوار اليقين مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وتلك حالة أشار إليها حارثة بقوله:

كأنى أنظر إلى عرش ربى ... الخ.

وعلى ذلك فإن المراقبة هى رؤية جناب الحق سبحانه وتعالى بعين البصيرة على الدوام مع التعظيم وهى أقرب الطرق إلى الله تعالى من حيث التقرب إليه[3].

ومما قيل للجنيد رضى الله عنه: كيف السبيل إلى الانقطاع إلى الله تعالى؟

فأجاب: بتوبة تزيل الإصدار، وخوف يزيل التسويف، ورجاء يبحث على مسالك العمل، وإهانة النفس بقربها من الأجل وبعدها من الأمل[4].

فإذا كان الإنسان صادقًا مع الله تفتحت له أبواب المشاهدة وسبل المعرفة.

(١) سورة: الذاريات: آية: ٥٦.
(٢) عبد البارى محمد داود: دراسة إسلامية عند المتكلمين والفلاسفة والصوفية (القاهرة: دار النهضة العربية، ط، ١٩٩٤م، ص: ١٨١.
(٣) عبد الحليم محمود داود: فاذكرونى أذكركم (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٩م) ص: ٢٦.
(٤) عبد البارى محمد ادود: دراسة إسلامية عند المتكليمن والفلاسفة والصوفية، مرجع سابق، ص: ٢٠١.

وهذا ما أشار إليه الشاذلى بقوله: «اعلم أيدك الله أنك إذا أردت الوصول إلى الله، فاستعن بالله، واجلس على بساط الصدق مشاهداً ذاكراً له بالحق، ورابط قلبك بالعبودية المحضة على سبيل المعرفة، ولازم الذكر والمراقبة والتوبة والاستغفار.

وتتمثل الحياة الروحية عند التابعين فى توجههم إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء، لأن العبد فى دعائه لربه يستمد منه المعونة فيتلطف عليه الحق عز وجل بالعناية[1].

وحقيقة الدعاء عند هؤلاء الافتقار إلى الحق والتبرؤ من الحول والقوة وهو شيمة العبودية[2].

فالمناجاة الروحية للإنسان تمثل طرقًا قويًا فى الاستنجاد بالحق عز وجل والاسترسال مع الله فيصبح فى معية الله لا يشغله عنها شاغل، بل خاضع خاشع متذلل متواضع ضارع إلى الحق، وكذلك مستغيث ومستجير من المخاوف حسبما يرى الباحث.

هؤلاء التابعون من الخلف الصالح الذين كانوا دائما مع الله فى كل أنفاسهم وهم الكبراء الذين أقبلوا بقلبتهم وبكامل إرادتهم لله سبحانه وتعالى فلا اختيار لهم فى نفوسهم ولا تمييز لمرادهم لأنهم تجردوا المراد الحق سبحانه وتعالى[3].

هؤلاء هم الخلص من عباد الله الذين ينظرون بنور الله بقلوبهم وبقربهم من الله تعالى، سلكوا طريق الصدق والصفاء والإخلاص فأصبحوا الا ينطقون إلا عن الله عز وجل، وإلى ربوبيته يشيرون. كانت حياة هؤلاء الروحية تسير على نهج وهدى من الكتاب والسنة. كما أن هؤلاء التابعون كان كل همهم تعلقهم بالحق سبحانه وتعالى، وإقبال أسرارهم وقلوبهم عليه، ووقوفهم بين يديه تعالى وذلك لأنهم لم تملكهم الدنيا حتى وإن ملكوها.

ويصف القشيرى هؤلاء الطبقة فيقول متحدثا عنهم: «... فقد جعل الله سبحانه وتعالى هذه الطائفة صفوة أوليائه، وفضلهم على الكافة من عباده، بعد رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم، وكذلك الصحابة رضوان الله عليهم، وجعل قلوبهم معادن أسراره، وأختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره، فهم غياث للخلق، والدائرون فى عموم أحوالهم مع الحق بالحق. صفاهم من كدورات البشرية، ورقاهم إلى مجال المشاهدات بما تجلى لهم من

(١) ابن عجيبة: الفتوحات الإلهية (القاهرة: دار الشباب للطباعة، د. ت) ص: ٤٦.
(٢) اليافعى، أبو محمد عبد الله بن أسعد اليمنى: الدر النظيم فى خواص القرآن الكريم (القاهرة: مطبعة الجمهورية العربية، د. ت) ص: ٤٣.
(٣) عبد البارى محمد داود: الإرادة عند المعتزلة والأشاعرة. دراسة فلسفية إسلامية (الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٦م) ص: ٥.

الحقائق ، ووفقهم للقيام بالعبودية ، وأشهدهم مجارى أحكام الربوبيه ، فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف ، وتحققوا بما منه سبحانه لهم من التقليب والتصريف ، ثم رجعوا إلى الله سبحانه وتعالى بصدق الافتقار ، ونعت الإنكسار ، ولم يتكئموا على ما حصل منهم من الأعمال ، أو صفالهم من الأحوال ، علما منهم بأنه جل وعلا يفعل ما يريد ، ويختار ما يشاء من العبيد ، لا يحكم عليه الخلق ، ولا يتوجه عليه مخلوق حق . ثوابه : ابتداء فضل ، وعذابه : حكم بعدل ، وأمره : قضاء فصل »[1] .

وتعقيبًا على ما تقدم والذى أوضحنا فيه كيف كانت حياة هؤلاء التابعين الروحية فإن معارفهم وتجلياتهم جاءتهم من القرآن الكريم بأول سورة نزلت : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ . وإنثالت الآيات القرآنية التى تدل على علومهم ومعارفهم ، كذلك متخذين من حياة النبى ﷺ قبل البعثة ، وبعد البعثة تخلقا بأخلاقه ، وصفاء القلب ونقاء السريرة التى هى أداة المعرفة لديهم ، كذلك كيف تأسوا سننه فى أحوالهم . كل هذا أدى بالتابعين من الخلف الصالح إلى معرفتهم الذوقية العالية وسياحاتهم الروحية إلى الملأ الأعلى التى كان مصدرها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

(١) القشيرى : الرسالة (القاهرة صبيح ، د . ت) ص : ٣ .

الباب الثانى
النظر والتدبر فى الكون

الفصل الأول : الإنسان والكون

الفصل الثانى : حكمة الله وقدرته فى الكون

الفصل الثالث : الآيات الظاهرة للتفكر والتأمل والتدبر

الفصل الرابع : التفكر فى الأيام وغيرها

الفصل الخامس : أسس البحث فى آيات الله الكونية

الفصل السادس : تصنيف الآيات الكونية

الفصل السابع : الجمال الكونى

الباب الثانى

النظر والتدبر فى الكون

تمهيد

الحمدلله تقدس فى أزليته وأبديته وأحديته (*) عن النظير والشبيه، وتنزه فى جماله وجلاله وكماله عن مقالات أهل التمويه، الغنى عن جميع خلقه، فلا أن يحصره، ولا أحد ينصره، ولا ضياء يظهره، ولا حجاب يخفيه، الواحد الأحد القدوس الصمد الذى لا شك فيه، شهدت بكمال قدرته عجائب صنعته، فكل ما سواه موجده ومدبره ومنميه، الحى العليم القدير السميع البصير الملك الكبير، فلا مقرب لمن يبعده، ولا مبعد لمن يدنيه، المتكلم بكلام قديم أزلى، ومن عطل أو شبه فقد وقع فى التيه، حبب للمؤمن إثبات صفات الكمال والعجز عن إدراك الجلال فهذا القدر يكفيه. ومن رام الوقوف على غاية أو ظن المعرفة لها نهاية فقد تعدى طوره (١).

فالكون أو العالم أو الوجود أو المخلوقات كلها ألفاظ إن اختلفت فى حروفها ومبناها فإنها واحدة فى مدلولها ومعناها وهى كل ما سوى الله من الأكوان والعوالم والموجودات بأنواعها من أرض وسماء وشمس وقمر وبحار وأنهار، وجميع مفردات المخلوقات من نبات وجماد وحيوان وإنسان ومظاهر كونية تتحقق وتوجد فى أى مظهر من مظاهر الموجودات التى لا يمكن حصرها ولا استقصاؤها لا بالعبارة ولا بالإشارة. وما الإنسان فى محيطات هذه الأكوان

---

* الأحدية أخذت من الأحد هو الله سبحانه وتعالى. ومنه قوله تعالى: «قل هو الله أحد». والفرق بين الواحد والأحد من ثلاثة وجوه: الوجه الأول: أن الواحد يدخل فى الأحد. والأحد لا يدخل فى الواحد.

والوجة الثانى: أنك إذا قلت فلاناً لا يقاومه واحد جازلك أن يقال ولكنه يقاومه اثنان.

والوجة الثالث: أن الواحد يستعمل فى الإثبات والأحد يستعمل فى النفى، نحو ما رأيت أحداً فيفيد العموم.

(١) عبد العزيز الديرينى: طهارة القلوب والخضوع لعلام الغيوب (القاهرة: مطبعة الحلبى، ١٣٩١ هـ) ص: ٢٩ ـ ٣٠.

والموجودات إلا كحبة رمل صغيرة فى صحراء مترامية الأطراف، واسعة الجنبات. فإذا كانت السماء والأرض بالنسبة لملك الله كحلقة فى فلاة كما وردت بذلك الآثار فماذا يكون الإنسان بالنسبة لملك الله ومخلوقاته؟!

إنَّ الإنسان ليتضاءل فى نفسه أمام عظمة الله عندما يتسنى له الكشف عن خباياه فى بعض مخلوقات الله جلَّ علاه (١).

ومما ينبغى أن يفهم أنَّ الإنسان يولد وفى كيانه نزعة للكمال، إنها فطرته، فالطفل يولد على الفطرة ثم يتشكل حسب البيئة التى ولد فيها، فإن صلحت صلح أمره لصلاحها وإن فسدت فسد أمره بفسادها.

ويترتب على ذلك مدى الاهتمام والحرص الشديد بالقدوة الحسنة الصالحة، وذلك لأنَّ القدوة خير معلم للنشء الذى يكون فى مستهل مرحلة نضجه النفسى والعقلى قابلا للتأثر بالقدوة، لدرجة كبيرة، من أجل هذا فعلى المربى أن يحرص كل الحرص على أن يكون قدوة صالحة ظاهراً وباطنًا، وأن يعمل بعلمه فلا يكذب فعله قوله، ولا يخالف ظاهره باطنه، بل لا يأمر بشىء مالم يكن هو أول عامل به، ولا ينهى عن شىء مالم يكن هو أول تارك له، ليفيد توجيهه ويثمر إرشاده، ففاقد الشىء لا يعطيه، وفاقد النور كيف يستنير به غيره؟! ومتى يستقيم الظل والعود أعوج (٢).

والحكمة من وجود الإنسان فوق هذه الأرض هو مشاهدة عظمة الله، ومشاهدة آياته، وعن طريق هذه المشاهدة يتعلم الإنسان، يتفكر ثم يتفقه، ويتوقد ذهنه فيدرك. وبما أودع فيه من فطنه يرى إبداع الخالق، وبما أودعه الخالق فيه من ذكاء يحاول أن يبتكر، حتى تأخذ الحياة زخرفها، فالإنسان خليفة الله فى أرضه، استخلفه فيها ليكون أداة صلاح، وأداة عمل، وعلى خلق قويم.

وقبل أن يولد الإنسان كان روحًا، وفى طبيعة الروح المعرفة والرغبة فى الكمال، وبعد الميلاد تظل هذه النزعة للمعرفة والكمال قائمة فى الأعماق (٣).

---

(١) عبد الغنى الراجحى: الكون والإنسان فى معرض القرآن، مقال منشور بمجلة منبر الإسلام (القاهرة: العدد الخامس، مارس ١٩٨١ م) ص: ٩٥.

(٢) عبد البارى محمد داود: القدوة الصالحة وأثرها فى تنشئة الطفل (القاهرة: دار النهضة العربية سنة ١٩٩٦ م) ص: ٨١.

(٣) عباس المسيرى: اليوجا والتصوف والرهبانية (القاهرة: مكتبة الأنجلو، ١٩٨٣ م) ص: ١٣.

الفصل الأول

الإنسان والكـــون

فى البداية ينبغى أن نوضح أنَّ للإنسان علاقة بهذا الكون الفسيح الجميل الحى المسبح، الذى يعيش بين أحضانه ويحيط به إحاطة مشاركة وانفعال واستجابة ومودة. وكذلك للإنسان صلة بمبدع الكون وموجده الكبير المتعال، الرحمن الرحيم، رب كل شىء ومليكة، المهيمن المتجلى، المنعم الودود، الظاهر والباطن، نور السموات والأرض، وقيوم كل شىء[1].

والقرآن الكريم فى معرض آياته وسوره شغف بالربط بين الإنسان والأكوان الأخرى. كان يربط بين ما هو من أكبر الأشياء وبين ما هو من أصغر الأشياء جمعًا بين طرفى الموجودات، وإشعارًا للإنسان بضآلته وضحالته فلا يطغى ولا يفتر ولا يتكبر فقد خلق ضعيفًا من سلالة من ماء مهين فيزج به فى معرض عظائم المخلوقات ليتضح له حاله ويتجلى له عواره فيلتزم الأدب والطاعة والامتثال ويشكر الله على أنه جعل أشد المخلوقات خلقا مسخرة مذللة له وهو الأضعف خلقًا وشأنا لو خلى ونفسه، ولحكمة عظمى سخر الله الأقوى للأضعف. فسبحان الذى سخرلنا هذا وما كنا له مقرنين.

نجد هذا المعنى واضحًا فى كثير من سياقات القرآن ومقاماته التى يعرج فيها على ذكر مخلوقاته.

قال تعالى: «أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين، وضرب لنا مثلا ونسى خلقه، قال من يحيى العظام وهى رميم. قل يحيها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم، الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارًا فإذا أنتم منه توقدون، أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم. بلى وهو الخلاق العليم، إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون، فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون»[2].

(١) طه عبد الباقى سرور: من أعلام التصوف فى الإسلام (القاهرة: مطبعة نهضة مصر، د. ت) ص: ٦٢.

(٢) عبد الغنى الراجحى: الكون والإنسان فى القرآن الكريم، مرجع سابق، ص: ٨٥.

وقريب من هذا أو شبيه به ما جاء فى سورة «الرحمن» حيث كان البدء فيها بذكر الإنسان فى قوله تعالى:

﴿ الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان ﴾.

ثم انطلقت الآيات تترى فى ذكر الكونيات من الشمس والقمر والنجم والشجر والسماء والميزان والأرض وضعها للأنام فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام والحب ذو العصف والريحان، ثم تعقب على ذلك كله بقوله تعالى: «فبأى آلاء ربكما تكذبان». ثم تعود الآيات إلى ذكر خلق الإنسان من صلصال كالفخار، والجان من مارج من نار، والبحرين بينهما برزخ، ثم بتردد خلال آيات السورة الكريمة قوله تعالى «فبأى آلاء ربكما تكذبان». ثلاث وثلاثين مرة كالرديف يعاد فى القصيد الواحد مرة بعد أخرى[1].

لقد كان القرآن الكريم حريصًا على أن يظل هذا الإنسان مشدودًا إلى الكون الذى يعيش فيه برباطات وثيقة تتجلى أيضا فيما كان من قبيل العبادات و الأحكام الشرعية الدائمة بدوام الكون والإنسان. فالصلوات فى مواقيتها ونداتها وفضائها وآدائها فى حاجة ماسة إلى الاتصال بالكون ومظاهره من شروق وغرب وفجر وظهر وعصر وتوقيت وفلك وقبلة ونحو ذلك.

والزكاة وحولها الذى يحول عليها ونصابها الذى تبلغه وأنواع المال الذى تجب فيه من زروع وثمار وعروض تجارة ونقدين ونحو ذلك. والصيام كذلك أيامه ولياليه. إمساكه وإفطاره وهلاله وعيده وفجره ومغربه وحكمة تشريعه وفوائده. والحج كذلك ميقاته الزمنى والمكانى، وشد الرحال بالسفر ووسائلة المختلفة إلى بيت الله الحرام فى مكة المكرمة. والطهارة والاحتياج فيها إلى المياه وأنواعها وإلى التراب أحيانًا. كل ذلك كان مظهرًا لربط الإنسان عمليًا وتعبدًا بالكون الذى يعيش فيه[2].

إنَّ استغلال الظواهر الكونية فى معرض القرآن الكريم للبرهنة والتدليل على صحة البعث يوم القيامة ليعتقده الإنسان ظاهرة كثيرة الشيوع فى كتاب الله فى كثير من سورة وآياته.

ولو تتبعنا آيات الله فى الآفاق، كما وردت فى القرآن الكريم، لأمكننا أن نجعلها فى صنفين: آيات كونية، وآيات تاريخية، ولوجدنا فى كل من الصنفين من مظاهر قدرة الله وحكمته وعنايته ولطفه وبطشه وجبروته وسائر صفاته ما يعجز عن مثله كل ما سوى الله؛ مما يدل على تفرده بالألوهية والحاكمية والربوبية، وأن هذه الآيات تربى النفس على توحيده

(١) عبد الغنى الراجحى: الكون والإنسان فى القرآن الكريم، مرجع سابق، ص: ٨٦.

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

تعالى بإخلاص العبادة له وبالخضوع لشريعته وحكمه، والبعد عن إشراك أحد، أو شيء معه في ذلك [1].

فالرياح والسحاب والمطر والأرض الميتة بنيت زرعها وتحيا بعد موتها. كل ذلك يصب في قالب تدليل وتنظير لقدرة الله على البعث يوم القيامة فلينظر الإنسان وليتدبر.

والآيات القرآنية كثيرة في هذا المعنى تهدف كلها إلى دعوة الإنسان إلى النظر في ملكوت الله سبحانه وتعالى سواء كان في المكان الذي يعيش فيه أو في مكان آخر. فهي تدعوه إلى أن يقلب بصره ونظره في كل مكان يذهب إليه، ثم يتدبر ويتفكر ليعيش في ملكوت الله سبحانه وتعالى [2].

حقا إن الإنسان كون صغير داخل كون كبير ولكل من الكونين انعكاساته على الآخر وتفاعلاته معه.

من هنا كانت دعوة القرآن الكريم إلى الناس جميعًا أن يعرفوا صانع هذا الكون بعقولهم وقلوبهم وذلك بالنظر في ملكوت الله الذي أتقن كل شيء وباحترام العقل وبالأحكام إلى الأدلة والبينات دخل الناس في دين الله أفواجًا لما علموا أنه دين الحق والعدل وسلامة الاعتقاد ووضوح المنهاج، وهو منهاج الفضائل والشمائل والمكارم.

قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [3].

ولقد أوضحت الآية السابقة إلى مجالين كبيرين اختيرت منهما الموضوعات والحوادث، لتكون فيها آيات ودلائل على توحيد الله وصدق كتابه ورسوله ﷺ وهما: آيات الله في الآفاق، وآيات الله في أنفسنا البشرية الإنسانية [4].

هكذا ينبه القرآن الكريم الأذهان إلى الظواهر الكونية الدالة على قدرة الإله الكبير المتعال، وفي هذا البحث توجيه إلى دراسة الأسرار الكامنة في خواص المادة [5].

---

(١) عبد الرحمن النحلاوي: من أساليب التربية الإسلامية التربية بالآيات (بيروت: دار الفكر المعاصر، ط الأولى، ١٤٠٩ هـ) ص: ١٩٦.

(٢) عبد الباري محمد داود: السياحة في الإسلام، مرجع سابق، ص: ١٥.

(٣) سورة: فصلت: آية: ٥٣.

(٤) عبد الرحمن النحلاوي: من أساليب التربية الإسلامية التربية بالآيات، ص: ١٩٥.

(٥) محمد حافظ سليمان: اقرأ باسم ربك (القاهرة: مقال منشور بمجلة منبر الإسلام، مارس ١٩٨١) ص: ٤٥-٤٦.

لذلك يدعو الإسلام العقل إلى البحث فيقول له [illegible] الفرق، فهو بهذا يحذره من الضرر، وكلما تعمق البحث [illegible] ويقينًا بوجود الله الخالق البارئ المصور، وهو الذي [illegible] وهو الذي خلق الأجنة في بطون الأمهات وصورهم في [illegible] الإنسان الفطرة التي يدرك بها الهداية ليتبين له الرشد من [illegible] للمبادئ المستقيمة والعقائد القويمة وتمنع العاقل من التورط في [illegible]

والمتأمل في بدائع الكون يرى الدلائل واضحة على [illegible]

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

وقد حث القرآن الكريم على النظر في الكون إجمالاً وتفصيلاً [illegible] العقل عمله، والله يقول:

﴿ خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار. خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج. يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث. ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون ﴾.

وفي خلق السموات والأرض آيات كثيرة ودلائل وفيرة حتى [illegible] الآيات الكونية في القرآن الكريم ما يزيد على مائة وخمسين آية [illegible] والوضوح.

فالآيات الكونية موضوعها أو سبيل الاستدلال فيها الظواهر الكونية، من السماء ونجومها وكواكبها والأرض وجبالها وأنهارها ودوابها وبحارها وأقواتها [illegible] وما في الكون من تغيرات وحوادث تجري وتتكرر على نظم وسنن إلهيه، كالليل والنهار [illegible] وما كان خافيا على أجدادنا من قوى الذرة والكهرباء والبخار وغيرها، مما أشار القرآن إليه هو [illegible] قوله تعالى، بعد أن ذكر نعمة فيما سخر للبشر من مركوبات الأنعام، فأشار إلى ما [illegible] للبشر من مركوبات أخرى، يصلون إليها بتسخير هذه القوى الخفية، حيث قال سبحانه:

﴿ والأنعام خلقها لكم ﴾ [1]. إلى أن قال: ﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة، ويخلق الله مالا تعلمون... ﴾ [2].

---

(١) سورة: النحل: آية: ٥.

(٢) سورة: النحل: آية: ٨.

ولما كان القرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد وتشريع إلهي ودين، يربي الناس على النهج القويم الذي رسمه الله لهم، وجب أن نذكر بأن آيات الله في خلقه نوعان:

الآيات الجارية على سننه تعالى المطردة في نظام الخلق والتكوين وتدبير الكون.. وهي كثيرة، وأظهرها، وأدلها على كمال قدرته وإرادته وإحاطة علمه وحكمته، وسعة فضله ورحمته، وتظهر أكثر ما تظهر في هذا الصنف الذي نحن بصدده (الآيات الكونية).

والنوع الثاني: الآيات الجارية على خلاف السنن المعروفة للبشر وهي أقلها، وربما كانت أكثرها عند أكثر الناس على اختياره عز وجل في جميع ما خلق وما يخلق، وكون قدرته ومشيته غير مقيدتين بسنن الخلق التي قام بها نظام هذا العالم. فالسنن مقتضى حكمته وإتقانه لكل شيء خلقه، وقد يأتي بما يخالفها لحكمة أخرى من حكمة البالغة [1].

وهذا النوع يبدو أكثر ما يبدو في آيات الله التاريخية، كالتي أجراها على يد نبيه موسى وغيره أحيا فيها. قال تعالى: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾ [2]. ونرى أنها خاضعة لنوع آخر من سنن الله، غير السنن الكونية التي نحن بصددها.

وهذان النوعين يدعونا إلى:

- الإيمان بأن الله تعالى هو خالق كل شيء بقدرته وإرادته واختياره وحكمته.
﴿ ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾[3].

- وأن هذا الكون قد خلقه الله بإتقان. قال تعالى: ﴿ صنع الله الذي أتقن كل شيء ﴾ [4].

- وأنه ليس في خلقه تفاوت ولا فطور كما قال في سورة الملك: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [5].

- وأنه تعالى خلق كل شيء بنظام وتقدير، لاجزافا ولا أنفا كما قال: ﴿ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ [6] وقال: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ [7].

ويهمنا هنا علينا أن نوضح أن التدبر والتفكر يجب أن يكونا في بدائع المخلوقات، وآيات الله سبحانه وتعالى. فقد ورد في الحديث الشريف:

عبد الرحمن النحلاوي: من أساليب التربية الإسلامية التربية بالآيات، ص: ١٩٧.

(١) سورة البقرة: آية: ٢٥٩. (٣) سورة: السجدة: آية: ٧.

(٢) سورة النحل: آية: ٨٨. (٥) سورة: الملك: آية: ٣.

(٣) سورة القمر: آية: ٣. (٧) سورة: الفرقان: آية: ٢.

« تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا ».

من هنا كان الواجب على الإنسان المؤمن بالله أن يتأمل الصفات الإلهية وليس الجوهر. فآيات الله سبحانه وتعالى في الكون متعددة لا يمكن حصرها إذ لا تعد ولا تحصى، يطالعها المؤمن بالله تعالى في نفسه وفي الكون من حوله، وكلما زاد تأمله وتفكره وتدبره في هذا الآيات الكونية زاد إيمانه وعمر قلبه بنور الحق والإيمان.

وآيات الله في الأكوان واضحة شاهدة تدل على أن الله سبحانه وتعالى قد أكرم العقل البشري فألزمه بالنظر في ملكوته ليعرف أن كل صنعة لابد لها من صانع.

ويصبح التفكير في الكائنات هو قراءة العقل في صفحات الكون، فالله سبحانه وتعالى هو قاهر الأنواء ومسخر الريح والهواء.

وهنا نوضح لأصحاب العقول أن علوم القرآن تتلاقى عند علوم الأكوان عندما تكشف أسرار الطبيعة الدالة على الله والتي تبرهن على آيات الله في الآفاق. وفي القرآن الكريم سبعمائة وخمسون آية كونية وعلمية وكلها براهين على وجود الله بديع السموات والأرض.

لذلك فإن كل ما في الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلقه، وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض، وصفة وموصوف، فيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله وعظمته [1].

وبالنظر في ملكوت السموات والأرض وعجائب الآفاق والأنفس إذ بها يدخل العبد في زمرة الملائكة المقربين ويحشر في زمرة النبيين والصديقين مقربا من حضرة رب العالمين فانظر إلى الملكوت لترى عجائب العز والجبروت.

فكل ما يدرك بالبصر يعبر عنه القرآن بالملك والشهادة، وما غاب عن الأبصار فيعبر عنه بالغيب والملكوت. والله سبحانه وتعالى عالم الغيب والشهادة وجبار الملك والملكوت ولا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء، وهو عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا لمن ارتضى من رسول.

ويخاطب الإمام الغزالي: الإنسان العاقل قائلا له: فأجل أيها العاقل فكرك في الملكوت فعسى أن يفتح لك أبواب السماء فتجول بقلبك في أقطارها إلى أن يقوم قلبك بين يدي عرش الرحمن [2].

---

(١) الغزالي أبو حامد: إحياء علوم الدين (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، د. ت) ج ٤، ص: ٤٢٠.

(٢) المرجع السابق، ص: ٤٢١ ـ ٤٣٠.

فمن نظر فى المخلوقات بعين الاعتبار علم أن الله تعالى هو الإله الحق، الأول الآخر، الظاهر الباطن، الواحد الأحد، القدوس الصمد، الحى العليم، القدير المدبر، السميع البصير، المتكلم، الملك الكبير، أوّل ليس له ابتداء، وآخر ليس له انتهاء، ظاهر يثبته العقل، باطن لا يدركه الوهم، كل مخلوق محصور بحد، مأسور فى سور بطود، والخالق بائن مباين، يعرف بعدم مألوفات التعريف. أين الأزل من الزائل، ارتفعت لعدم الشبه الشبهة، اتخذ الأحد فهو أحد، إنما يقع الإشكال فى وصف من له الأشكال، وإنما تضرب الأمثال لمن له أمثال، فأما من لم يزل ولا يزال فما للحس معه مجال، عظمت عظمته عن نيل كف الخيال، كيف يقال له كيف، والكيف فى حقه محال، أنى تتخايله الأوهام وهى صنعه، كيف تحده العقول وهى فعله، كيف تحويه الأماكن وهى وضعه، انقطع سير الفكر، ووقف سلوك الذهن، وقصرت إرادة الوهم، وعجز لطف الوصف، وغشيت عين العقل، وخرس لسان الحس، لا طور للقدم فى طور القدم عن الرقى فيتس المرتقى، بحر المعرفة لا يتمكن منه غامض، وليل لا يتبين للحس فيه كوكب، سبق الزمان فلا يقال له متى كان، تمجد فى وحدانيته عن زحام مع تفرده بالإنشاء، فلا يستفهم عن الصانع بمن، أبرز عرائس المخلوقات من كن ببيت الحكم، فلا يعارض بلم، تعالى عن بعضيته من، وتقدس عن ظرفية فى، وتنزه عن شبه كان، وتعاظم عن نقص لو أن، وعز عن عيب إلا أن، وسما كماله عن تدارك لكن، لا ينال عظمته سابح تمثيل، ولا يدرك قعر بحر حكمته سابح تخييل، منزه الذات عن الشبه والضد والند والمثل والعديل، ثابت الصفات، وقد ضل أهل التعطيل، جال الفكر حول حمى قدسه، ثم رجع كالذليل، سار الوهم يجول فى حندس (*) الحس تمو آنيته (*)، فسد فى وجهه السبيل، وتاه فى عرضه الناوى، وحار الحادى، وضل الدليل، أجدى الذات قديم الوجود، أزلى الصفات بذاته، فوجود صفاته كذاته، فلا وجه للجحود، كف الكيف مشلولة، وباب التشبيه مسدودة، تنزهت عن المثلية ذاته، وتقدست عن الكيفية صفاته، وتعالت عن شبه الشكوك بيناته، ووضحت للعيون والعقول آياته. سبق الأشياء كلها فكلها مصنوعاته، عرى دليل وجوده عن لباس الإلباس، وعز بإظهار عزته عن مماثلة الأنواع والأجناس، وتعالى عن إثبات صفة من صفاته بالمشابهة والقياس.

فسبحان من إله تنزه فى ذاته عن مساواة المعلومات، ومضاهاة العلل، وتعالى من قيوم تقدس فى ذاته وصفاته عن الشبه والضد والند والمثل، لايجوز عليه الحركات، أحاط بكل شىء علما، فما نسى ولا غفل، أظهر فى تكوين الكائنات أسرار ما حكم فى الأزال، عالم الغيب والهشادة الكبير المتعال [1].

(*) حندس الحسى: أى ظلمته. (*) نحو آنيته: يعنى نحو حقيقته.

(١) عبد العزيز الديرينى: طهارة القلوب والخضوع لعلام الغيوب، مرجع سابق، ص: ٣٢-٣٦.

لذلك جاءت الآيات البينات كلها تدعو إلى التفكر وهو تأمل عقلى فيما يبينه الله من حجج بالغة وأدله صادقة كقوله تعالى فى المقارنة بين المبصر والكفيف:

﴿ هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون ﴾ [1].

والتفكر تأمل عقلى لكنه مرتبط بالإيمان بالله فاطر السموات والأرض وهو غير التفكير الذاتى أو التفكير العقلى المحض الذى يفصل بين الربوبية والعبودية بدون علم ولا هدى.

يقول عز من قائل: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ (سورة الحج آية: ٨).

وهذا ينبغى أن يتفطن أصحاب العقول السليمة والرأى الرشيد أن الفكر الذاتى يحمل فى طياته جدلاً، يبتعد فيه عن التفكر فى آيات الله البينات، وبذلك يجنح إلى الباطل ليدحض الحق، ليظفر بتبريرا دعاءاته.

قال تعالى: ﴿ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ [3].

فأصحاب الفكر الذاتى إنما يتبعون أهواءهم ويتغافلون عن ربهم، أما الذين يتفكرون فى خلق الله، وقد رسخت أقدامهم فى حظيرة الإيمان، يجادلون بالتى هى أحسن، وهم يرتبطون دوما بخالقهم.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [4].

فالجدل فى القرآن يقوم على التفكر فى الله. لذلك فإن الجدل العقلى الذى يأمر به الله لابد وأن يرتبط بالحقائق ولا يمكن أن يحظى بها الفكر الذاتى بدون الاستعانة بالهدى الإلهى وإلا وقع فى المتشابهات وانزلق بعقله إلى هوة الضلالات.

نخلص من ذلك إلى أن الجدل القرآنى يعتمد على التأمل العقلى لكنه مرتبط بالإيمان بالله وبآياته البينات: فإذا خرج المتأمل عن الرابطة بين العبودية والربوبية فقد أغلق باب المنة

(١) سورة: الأنعام: آية: ٥٠.
(٢) عبد البارى محمد داود: بين الربوبية والعبودية، مقال منشور بمجلة التصوف الإسلامى (القاهرة نوفمبر، ١٩٩٤).
(٣) سورة: الكهف: آية: ٥٦.
(٤) سورة: آل عمران: الآيتان: ١٩٠، ١٩١.

الإلهية، وابتعد عن الحق إلى إتباع الهوى فيصبح جداله من أجل تحقيق منافع شخصية ومصالح ذاتية.

لذلك فإن الحكماء المسلمين قد تفهموا حدودهم العقلية، واعتمدوا على فاطرهم فى التفكر العقلى والتأمل الذهنى، وقادهم التوجيه الإلهى إلى بر الأمان عندما بحثوا فى أصول الأشياء وحقائق الوقائع. وهذا هو المنهج الجدلى الواجب الإتباع.

فهذا بيان أوضحناه يبين تجوال فكر المتفكرين فى خلق الله تعالى وليس فيها فكر فى ذات الله تعالى، ولكن يستعاد من الفكر فى الخلق لا محالة معرفة الخالق وعظمته وجلاله وقدرته، وكلما استكثرت من معرفة عجيب صنع الله تعالى كانت معرفتك بجلاله وعظمته أتم.

فهكذا تأمل فى خلق الله تعالى وتصنيفه وتأليفه وكل ما فى الوجود من خلق الله وتصنيفه والنظر والفكر فيه لا ينتهاهى أبدا وإنما لكل عبد منهما بقدر ما رزق[1].

وعلى ضوء ما تقدم يمكننا أن نقسم الفكرة إلى ثلاثة أقسام:

الأول : الفكر فى المصنوعات والاستدلال بها على الله تعالى وهو شأن العلماء بالله تعالى.

والثانى : الفكر فى لطائف صنع الله وفواضل نعم الله وهو مادة الشكر لله.

والثالث : الفكر فى الأعمال وتخليعها وهو شأن العابدين.

إن الله سبحانه وتعالى قد طلب من المؤمنين أن يسبحوا فى الأرض مصداقا لقوله تعالى: ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ﴾.

فالسير فى الأرض بالنسبة للإنسان يوسع مداركه وآفاقه ليفكر ويتأمل ويتدبر فى مخلوقاته الله سبحانه وتعالى. فالإنسان إذا ما تأمل وتفكر وتدبر فى خلق السموات والأرض فإنه يرى آيات الله البينات الواضحات.

وبعبارة نستطيع أن نقول أن التفكر والتدبر يمثل لونا من السفر القلبى إلى ملكوت السموات والأرض[2].

ولا شك أن هذا السفر القلبى رمز روحى جميل يعبر خير تعبير عما يجب أن يكون عليه المسلم. ومن الممكن أن نسمى هذا اللون من السفر سياحة للنفس للتأمل والتفكر والتدبر فى بديع صنع الله[3]. أو من الممكن أن نسميه سياحة روحية غير مرتبطة بالزمان والمكان إن سمح لى بهذا التعبير.

(١) الغزالى، أبو حامد: إحياء علوم الدين، ج ٤، ص: ٤٣١ ـ ٤٣٢.
ابن قدامه المقدسى: مختصر منهاج القاصدين (دمشق: دار التراث، ١٣٩٨ هـ) ص: ١١٩.
عبد الباري محمد داود: السياحة فى الإسلام، مرجع سابق، ص: ١٩.

هذا هو المنهج القرآنى الذى دعا إلى التأمل فى الكون وما فيه[1] من الآيات الكونية التى تدلنا على صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى لكى نخشع له ونعبده بها، ونوحده فلا نشرك به أحدا، إذ إنه تفرد بهذه الصفات العظيمة.

وكذلك تدلنا الآيات الكونية على أن الله هو الخالق والرازق، ولا أحد غيره يقدر على الخلق والرزق، حتى الذبابة التى هى أصغر المخلوقات لايقدر على خلقها أحد سوى الله، كما لا يقدر أحد على سلبها رزقها. قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾[2]. فكيف بخلق السموات والأرض والإنسان والدواب» . . وعلى هذا فلا يستحق العبادة إلا الله. قال تعالى:

﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[3].

وعلى ضوء ما تقدم نستطيع أن نقول النظر والتدبر فى الآيات الكونية يجعل الإنسان المؤمن فى تضرع إلى الله بقراءة القرآن، ويتكرر عرض الآيات الكونية فيتأملها ويستجيب قلبه وربما لسانه لأسئلة القرآن وأوامره، استجابة مصحوبة بانفعال الخضوع والشكر لله.

(١) محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية فى السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية (القاهرة: دار الفكر العربى، د. ت) ص: ٦٧٦.
(٢) سورة: الحج: آية: ٧٣.
(٣) سورة: غافر: آية: ٦٢.

الفصل الثانى
حكمة الله وقدرته فى الكون

إن عظمة الخالق جل علاه شىء لا يكاد يتصوره العقل البشرى ولا يستقيم مع الفكر، بل ولا يسعنا الخيال لادراكه مهما أطلقنا العنان وسبحنا فى ملكوت التفكير العميق، فالإنسان مهما بلغ من حدة الذكاء وقوة الإدراك فله مجاله المحدود.

ولقد مر بنا فى صفحات سابقة أن التفكر والتدبر يجب أن يكونا فى بدائع المخلوقات من جبال شامخات إلى بحار زاخرات، ومن أنهار جاريات إلى رياح ذاريات، ومن أفلاك سابحات إلى نجوم ساطعات وكواكب نيرات إلى غير ذلك من عديد المخلوقات[1].

ولقد سبق أن أوضحنا أن النبى ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحى كان يتعبد فى غار حراء بالنظر والتفكر والتأمل فى خلق السموات والأرض وما فيهما من آيات بينات تدل على وحدانية الخالق وقدرته وعظمته.

وقد ورد فى الحديث الشريف: «تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا».

وهنا ينبغى أن يفهم قبل كل شىء أنه لا يعرف الله تعالى حق معرفته إلا الله تعالى. وكيف يطمع الإنسان أن يعرف الله تعالى حق معرفته وهو ليس يعرف نفسه حق معرفتها؟![2].

وقد عرف الله سبحانه وتعالى نفسه إلى خلقه فى آيات بينات استفاض بها القرآن الكريم الذى عجز الأولون والآخرون عن الإتيان بسورة من مثله.

والإسلام دين الفطرة، والفطرة مزيج من العقل والعاطفة. والتعرف إلى الله عنه طريق هذه الفطرة أمر ميسور.

---

(١) حسين فؤاد طلبه: التدبر فى مخلوقات الله (القاهرة: مجلة منبر الإسلام، مقال منشور، مارس ١٩٧٦م) ص: ١٥٤.

(٢) الغزالى أبو حامد: رسالة فى بيان معرفة الله، ملحق كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد، ص: ٢١٧ ـ ٢٢١.

ولقد أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نتفكر فى خلق السموات والأرض ونتدبر ما فيها من آيات ترشدنا إلى عظمة الخالق جل جلاله.

إن الله سبحانه وتعالى أظهر قدرته وحكمته لمن له أدنى بصر وأقل بصيرة، فخلق الإنسان بعد أن هيأ له لوازمه، فمهد له الأرض منبسطه أمامه لينتفع بها فى ضرورياته وكمالاته. ولو كانت الأرض صلبة جامدة ما تيسر له أن يستنفيد منها[1].

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[2].

وينبهنا القرآن الكريم إلى التدبر فى جميع المخلوقات التى فى الأرض فيقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[3].

وهنا يجب أن نلفت النظر ونوجه الانتباه إلى قول الحق تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾. فإن الله سبحانه وتعالى استخدم حرف الجر (فى)، ولم يستخدم حرف الجر (على) عندما تكلم عن الدواب التى تدب على الأرض، وهذا أوجب على الإنسان أن يتدبر فى هذا الاختيار لحرف الجر الذى لا يتم إلا عن حكمة ومعرفة بما خلق، فهذا لم يتضح إلا مع تقدم علوم الفضاء وما اتضح منها أن الغلاف الجوى يمثل جزئية لا تنفصل عن كوكب الأرض إذ بدونه تنعدم الحياة بما يوفره من هواء وما يساعد به فى وضوح الضوء الصادر عن الشمس أو المنعكس من القمر. وبهذا فالغلاف الجوى وهو جزء من الأرض يعيش فيه كل ما يدب فى الأرض من حيوان وإنسان وطير وما يدب داخل الماء، وما يعيش فى جوف الأرض من حشرات وديدان ومخلوقات لا نعلم منها إلا القليل[4].

ويدعونا الحق سبحانه وتعالى فى موضع آخر من الآية السابقة إلى التدبر فى شكل مجتمعات الدواب من حيوان وزواحف وطيور وأحياء مائية من أنها تجمعها جماعات ومجتمعات وشعوب فى شكل أم تماثل شكل جماعات ومجتمعات وشعوب الإنسان والتى بينها الله عز وجل بقوله:

---

(١) أبو العزائم، محمد ماضى: إنسان المؤمنين وإنسان الملحدين (القاهرة: دار المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ) ص: ٢٣.

(٢) سورة: الملك: آية: ١٥.

(٣) سورة: الأنعام: آية: ٣٨.

(٤) عبد العظيم بسيونى: الإسلام والسياحة (القاهرة: دار الهنا للطباعة، ١٩٨٧م) ص: ١٠.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(١).

ويعود القرآن الكريم ليشد انتباه الإنسان إلى تعدد سبل حركة المخلوقات التى تمشى على الأرض فمنها التى تزحف على بطنها كالزواحف ، ومنها الذى يمشى على رجليه كالإنسان ، ومنها الذى يمشى على أربع كالحيوانات، رغم أنها جميعا مخلوقة من ماء، وهذا التعدد لازم لتكامل المخلوقات التى تمشى على الأرض وضرورى لأداء وظائفها المقهورة عليها والمسخرة لها فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢).

ويطلب منا الحق سبحانه وتعالى مراقبة حركة الطيور فى طيرانها فى الهواء للنظر والتأمل فى الحركة فيقول عز من قائل : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾(٣).

وهو القائل سبحانه : ﴿ ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء مايمسكهن إلا الله، إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ (٤).

وإذا كان الله عز وجل يطلب من الإنسان عالمه وجاهله أن يتدبر كيفية حياة الدواب فى الأرض وتكويناتها من شعوب وقبائل فطرت عليها، مثل ما فطر عليه الإنسان فى الحياة فى تكونيات اجتماعية . وإن كان الله طالب الإنسان أن يتدبر حركتها مشيا على الأرض وطيرانا فى الهواء، فإنه طالب كل عالم فى أن يتعمق ليصل إلى لغة الطيور والحيوانات والحشرات ليصل إلى هدف يعلو كل هذا وهو الوصول إلى نغمة الكون مجتمعا متناسقا يردد تسبيحه وأنشوده تنزه الخالق المالك المدبر . وفى هذا يتحقق قمة الملاحظة والتدبر لخلق الله فيورد القصة التى تبين أمة من النمل تستمع لنصح أحد أفرادها فى شكل نصح وتواصى .

قال تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾(٥).

(١) سورة : الحجرات : آية : ١٣ .
(٢) سورة : النور : آية : ٤٥ .
(٣) سورة : الملك : آية : ١٩ .
(٤) سورة : النمل : آية : ٧٩ .
(٥) سورة : النمل : الآيتان : ١٨ ، ١٩ .

والقصة توضح أيضا أن هناك أفراد من البشر من الله عليهم وعلمهم لغة هذه المخلوقات من حشرات وطير وحيوان وهو ما توصل إليه بعض العلماء المعاصرون بعد مرور أربعة عشر قرنا من نزول القرآن الكريم، وكذلك يتحقق أن للطيور لغة يصل إلى فهمها الإنسان بقصة الهدهد مع سيدنا سليمان عليه السلام أيضا(١).

قال تعالى : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦) قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ (٢).

وهذا ما توجه قول سليمان عليه السلام : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٣).

ومن هاتين القصتين يتضح لنا أن القرآن الكريم سبق علماء القرن العشرين فبين أن للمخلوقات لغات يمّن الله على بعض الناس بمعرفتها . وقد وصل رسول الله ﷺ وبعض صحابته رضوان الله عليهم إلى شفافية وعلم ومعرفة بلغة الكون وأنشودته تسبيحه الجبال والطير والدواب، وهو أمر الله لها من قبل لتنسجم مع نبى الله دواود فى تسبيحه عندما قال سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾(٤).

وهذا ما أكده عز وجل بقوله : ﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾(٥).

ويستمر القرآن الكريم فى عرض الآيات الكونية التى تدل على أن المخلوقات جميعها من السماء والأرض تسبح لله فى قوله تعالى :

(١) عبد العظيم بسيونى : الإسلام والسياحة ، مرجع سابق ، ص : ١٠ ـ ١١ .
(٢) سورة : النمل : الآيات : ٢٠ ـ ٢٨ .
(٣) سورة : النمل : آية : ١٥ .
(٤) سورة : سبأ : آية : ١٠ .
(٥) سورة : ص : الآيات : ١٧ ـ ١٩ .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (١).

ثم وسع الله عز وجل المجال لكل راغب فى البحث والمشاهدة والتأمل والتعلم فقال سبحانه : ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم. إنه كان حليما غفورا ﴾(٢)..

وهذا النظام البديع الصنعة حجة تنادى : لم أوجد عبثا ، إذ لوجدت عبثا لما كان هذا التدبير لبقائك أيها الإنسان ، ولما وجدت تلك الحقائق لحفظك ممتعا بالراحة والأمان !!(٣).

وهكذا فإن طالب الإشباع للمشاهدة والتأمل والتعلم أمامه ترغيب من الله عز وجل فى القرآن حتى يعيش مع كل الكون مخلوقا له تنظيمات فى شكل شعوب وقبائل ، وله حركة دائبة تختلف باختلاف الوظائف ، وله لغة وتسبيح ، بل يصل الراغب فى الإشباع للقمة بأن يلاحظ كيف تعيش؟ وكيف تسكن؟ وكيف تأكل ، وكيف تخرج ؟ وكيف تتخذ المأوى ، ويضع الله علامات منيرة على طريق الراغبين فى هذا الإشباع بما ألهم به النحل فيقول سبحانه :

﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا . يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ (٤).

ويبين الحق تعالى أضعف بيت على الأرض ويحدد أن الأنثى هى التى تنيه بقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٥).

بعد هذا العرض لعالم المخلوقات نجد أن الحق سبحانه وتعالى كرم الإنسان وفضله على جميع المخلوقات وسخر جميع ما فى الوجود لخدمته . وقد جعل الله الإنسان خليفة فى أرضه قال تعالى فى سورة : « البقرة» : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ . وأمر إبليس بالسجود تكريما له وتعظيما لشأنه فأبى واستكبر .

(١) سورة : النور : آية : ٤١ .
(٢) سورة : الإسراء : آية : ٤٤ .
(٣) أبو العزائم ، محمد ماضى : إنسان المؤمنين وإنسان الملحدين ، مرجع سابق ، ص : ٢٣ .
(٤) سورة : النحل : الآيتان : ٦٨ ـ ٦٩ .
(٥) سورة العنكبوت : آية ٤١ .

واقتضت حكمة الخالق أن يهبط الإنسان إلى مقر خلافته حتى يرث الله الأرض ومن عليها . والإنسان ما هو إلا عالم مصغر .

وقد قال قدماء العلماء : إن الجسد كالأرض ، وعظامه كالجبال ، وجوفه كالبحر ، ودمه كالأنهار ، وعروقه كالجداول ، وشعره كالنبات ، ونومه كالموت ، ويقظته كالحياة ، وهرمه كفصل الربيع ، وشيخوخته كأيام الشتاء . وما الإنسان إلا روح وجسد .

ولقد وصف الحق سبحانه وتعالى الذين يتفكرون فى خلق السموات والأرض بأنهم أولى الألباب ، وهؤلاء فى أعلى درجات الجنة . والتفكير وسيلة إلى المعرفة . وإذا عرفه أحببته . قال تعالى : ﴿ والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾ . ولن تعرف الله وتدرك عظمته حتى تدرس كتاب الكون ، وكل ما فى كتاب الكون من جمال واتقان وإبداع إنما هو من صنع الله .

لذلك فقد غرس القرآن الكريم فى نفوس الذين ربّوا عقولهم وعواطفهم وسلوكهم حب الله فى الآفاق مبادئ وأسسا منهجية للبحث عن ظواهر الكون بتفكير منطقى سليم .

(١) عبد الرحمن النحلاوى : التربية بالآيات ، مرجع سابق ، ص : ٢٠٦ .

الفصل الثالث

الآيات الظاهرة للتفكر والتأمل والتدبر

إذا نظر الإنسان فيما ورد من الآيات القرآنية الحادثة على الفكر والاعتبار والنظر فى آيات الله الظاهرة فى مكوناته، لتحقق له أن أوجب الواجب على المؤمن معرفة آلاء الله بالنظر والفكر. ونورد بعض الآيات التى تكشف الحقيقة فى هذا المقصد العظيم [١].

قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [٢].

وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ [٤].

وقال تعالى: ﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [٥].

---

(١) أبو العزائم، محمد ماضى: النور المبين (القاهرة: دار المدينة المنورة، ط ٢، ١٤٠٣ هـ) ص: ٨٨.
(٢) سورة: آل عمران: الآيتان: ١٩٠ ـ ١٩١.
(٣) سورة: الرعد: الآيتان: ٢ ـ ٤.
(٤) سورة: الطارق: الآيات: ٥ ـ ١٢.
(٥) سورة: الغاشية: الآيات: ١٧ ـ ٢٠.

وجماع تلك الآيات قوله تعالى: ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا ﴾ [١].

هذه بعض الآيات التى تنبه فكرك، وتوقظ قلبك من نوم الغفلة، وعقلك من رقدة الجهالة.

والآيات الظاهرة فى الكون التى تدل على عظمة الخالق سبحانه وتعالى عديدة يمكننا أن نذكر جزءاً منها تلخصه فى النقاط التالية:

١ ـ الجبال الهائلة والطرق العجيبة مما يجعل العقل فى ذهول بالنظر إلى هذه الجبال و لطرق التى تدل على عظمة الخالق عز وجل فى صدر من يتأمل تلك الطرق العجيبة و لجبال الشاهقة[٢].

وخير مثال على ذلك ما رأيته بالفعل بالجمهورية اليمنية بمنطقة تعز عندما شاهدت هذه الجبال التى تسمى بجبال صبر فهى تدل دلالة واضحة على عظمة الخالق سبحانه وتعالى، وكذلك الأمر بالنسبة للطرق التى انتقلت فيها فهى كذلك طرق عجيبة لما يناسب هذه البلاد وطبيعتها الجبلية[*].

٢ ـ الأجسام السماوية الرفيعة وشدتها وصلابتها وحفظها من التغير والفساد إلى أن يبلغ الكتاب أجله، فإن الأرض والهواء والبحار بالإضافة إليها كحلقة فى فلاة.

قال تعالى: ﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ﴾.

٣ ـ جرم القمر وكيفية اكتسابه النور من الشمس لينوب عنها بالليل، ثم خسوف القمر.

٤ ـ مسير الشمس فى فلكها مدة سنة وشروقها وغروبها كل يوم، ثم كسوفها.

٥ ـ اختلاف الليل والنهار، ومعرفة الأوقات، وتمييز وقت المعاش عن وقت الاستراحة.

٦ ـ تعاقب الفصول الأربعة الصيف والشتاء والربيع والخريف.

٧ ـ النظر إلى ما بين السماء والأرض وما يحدث من انقضاض الشهب والغيوم والرعود والبروق والصواعق والأمطار والثلوج والرياح المختلفة.

---

(١) سورة: الإسراء: آية: ٤٤.
(٢) ابن الجوزى: صيد الخاطر، تحقيق عبد القادر عطا (القاهرة: دار الشباب، ١٩٧٩ م) ص: ١٨٣.
* هذه الملاحظة سجلتها عندما كنت أقوم بالتدريس بكلية الآداب والتربية جامعة تعز قسم الدراسات الإسلامية فى العام الجامعى ١٩٩٦ ـ ١٩٩٧ م بالجمهورية اليمنية.

وكذلك النظر والتأمل إلى السحاب الكثيف المظلم كيف اجتمع فى جو صافى لا كدورة فيه؟!

٨ ـ الأمطار التى تسقط بشدة على رؤوس الجبال وبطون الأودية، ثم تتجمع بقدرة الخالق سبحانه وتعالى فيكون سيلا جارفا، تتلاقى فروعه المختلفة ومجاريه التى تتجمع فى مجرى واحد، فتجرى منه الأنهار.

٩ ـ اختلاف الرياح فإن منها ما يسخره الله ليحمل السحب ويسوقها إلى الأرض الميتة، ومنها ما ينشرها، ومنها ما يجمعها، ومنها ما يعصرها، ومنها ما يلقح الأشجار، ومنها ما يحمل البذور إلى المراعى والأودية بإذن الله تعالى، ومنها ما يربى الزرع والثمار، ومنها ما يجففها.

١٠ ـ الأرض التى جعلها الله قرارا لتكون فراشا ومهادا، والنظر إلى سعة أكنافها وبعد أقطارها حتى عجز الآدميون عن الوصول إلى كل مراميها[١].

ويجدر بنا أن نسجل فى هذا المقام حديث ابن الجوزى عن نفسه. ولا شك أن هذا الحديث يمثل لونا من الحديث النفسى أو إن شئت فقل يمثل لونا من الهجرة الروحية أو السياحة الروحية التى يدعونا فيها ابن الجوزى للنظر والتفكر فى خلق الله عز وجل.

فماذا قال أبو الفرج فى سياحته الروحية؟

قال: عرض لى فى طريق الحج خوف من العرب، فسرنا على طريق خيبر، فرأيت من الجبال الهائلة والطرق العجيبة ما أذهلنى، وزادت عظمة الخالق عز وجل فى صدرى، فصار يعرض لى عند ذكر تلك الطريق نوع من التعظيم لا أجده عند ذكر غيرها

فصحت بالنفس: ويحك اعبرى إلى البحر وانظرى إليه وإلى عجائبه بعين الفكر، فشاهدى أحوالاً هى أعظم من هذه، ثم اخرجى إلى الكون والتفتى إليه فإنك ترينه بالإضافة إلى السموات والأفلاك كذرة فى فلاة. ثم جولى فى الأفلاك، وطوفى حول العرش، وتلمحى فى الجنان والنيران، ثم اخرجى عن الكل والتفتى إليه، فإنك تشاهدين العالم فى قبضة القادر الذى لا تقف قدرته عند حد.

ثم التفتى إليك فتلمحى بدايتك ونهايتك، وتفكرى فيما قبل البداية، وليس إلا العدم، بعد البلى وليس إلا التراب[٢].

(١) أبو العزائم، محمد ماضى: النور المبين، مرجع سابق، ص: ٩٣ ـ ٩٤.
(٢) ابن الجوزى: صيد الخاطر، مرجع سابق، ص: ١٨٣.

فكيف يأنس بهذا الوجود من نظر بعين فكرة المبدأة والمنتهى؟!

وكيف يغفل أرباب القلوب عن ذكر هذا الإله العظيم؟!

بالله لو صحت النفوس عن سكر هواها، لذابت من خوفه، أو لغابت فى حبه، غير أن الحس غلب فعظمت قدرة الخالق عند رؤية جبل، وإن الفطنة لو تلمحت المعانى لدلت القدرة عليه أو فى من دليل الجبل[١].

سبحان من شغل أكثر الخلق بما هم فيه عما خلقوا له، سبحانه.

لا شك أن هذا لونا من الحديث النفسى أو السياحة النفسية تعرض له ابن الجوزى وهو فى طريقه حاجا إلى بيت الله، انتقل فيه من مجال الإدراك المادى إلى الجانب الروحى الخالص. أو بعبارة أخرى يمكننا أن نقول: الخروج عن النفس.

وهو ما يسميه النفرى: بالخروج من النفس، أو عبور النفس وتجاوزها وتلخيص هذا العبور فى كلمات وليلة بليغة:

«اخرج عن نفسك، اخرج عن همك، اخرج عن علمك، اخرج عن عملك، اخرج عن اسمك، اخرج عن كل ما بدا لك (أى ظواهر الكون المادى كله).

وماذا بعد ذلك؟ يكون مطلوبك هو الله، وهمك هو الله، وذكرك هو الله، ونطقك هو الله.

وقد قال جل علاه: ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾.

وإذا كان الخروج عن النفس إنما يعنى الهجرة الروحية أو بعبارة أخرى السياحة الروحية. فالحديث عن النفس والعقل والقلب، وكذلك الروح عند التأمل يجعل المتأمل فى سياحة روحية تنقله من حضيض الحس إلى أوج الروح، وتنكشف له أسرار الملكوت[٢].

وفى هذا يقول الإمام أبو العزائم[٣]:

سياحة العقل فى الآيات للجذب ... سياحة الروح فى الأعلين للقرب
ما فوق أعلين روحى فى مؤانسه ... يجلى لها النور من وصف ومن غيب

(١) المرجع السابق، ص ١٨٣ ـ ١٨٤.
(٢) أبو العزائم، محمد ماضى: شراب الأرواح من فضل الفتاح (القاهرة: دار المدينة المنورة، ط ٣، ١٩٨٧ م) ص: ١٤٥.
(٣) أبو العزائم، محمد ماضى: ديوان ضياء القلوب (القاهرة: دار الكتاب الصوفى، ط ٢، ١٤١١ هـ) المجلد الأول، ص ٣٤٧.

[illegible] عقلي من بدء السياحة في عظيم حيرته مما أرى صوبي

العقل للكون للآيات يشهدها والروح للآي للأوصاف للحبب

[illegible] في ملكوت الله سبحانه وتعالى من أفضل أنواع العبادات، وقد أوجبه [illegible] وأمرهم به في أكثر من سبعمائة آية من الذكر الحكيم ليدركوا من مظاهر [illegible] عجائبه ما يثبت يقينهم، ويقوى عقيدتهم، ويوثق صلتهم بخالقهم عندما [illegible] صنع الله التي تحض وتحث على التفكر والتأمل في هذا الوجود.

[illegible] وهذه آياته وآلاؤه ونعمة على الإنسان الذي كربه وفضله على سائر [illegible] من عقل، وما أتاه من حكمة ليتدبر في خلق ما حوله وما يحيط به وفي ذات [illegible] عظمة الله في كل أحواله ويلهج لسانه بحمده وتسبيحه.

[illegible] الصالحين: إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله [illegible] عبرة.

[illegible] التدبر في آلاء الله إذن موصل إلى السعادة الأبدية، فإن الفكر في تلك [illegible] أنها مبدعة محدثة، خصوصا إذا فكر في تلك الأجرام السماوية [illegible] وفي نفسه وما أحاط به وما فيها من غرائب الحكمة، وبدائع القدرة مما [illegible] الأجرام من [illegible] بعض عجائبه، تحقق عظمة شأن الصانع وكبرياء سلطانه، وذلك لأن [illegible] أسرار الآيات الظاهرة، ويندهش العقل عند ظهور بعض حكمها وما [illegible] العظام والترتيب العجيب.

[illegible] لا يحيط قدرته غيره ولا يبلغ الواصفون صفته [1].

[illegible] على الإنسان أن ينظر إلى ملكوت السموات والأرض بالفكر [illegible] والتدبر، مستمدا ذلك أساسا من القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿ [illegible] يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ [2].

[illegible] الإنسان أن ينظر في المكونات الدالة على قدرة الحق سبحانه وتعالى، فهي [illegible] فإنها دال [illegible] آثار أسمائه وصفاته [3].

[illegible] السياحة في الإسلام، مرجع سابق، ص: ٣٤.

[illegible] ٢٤.

[illegible] الحكم بشرح محمد مصطفى أبو العلا (القاهرة: مكتبة الجندي، [illegible] ت) ج [illegible] ص ٢٩٦

لذلك كان من الواجب على الإنسان أن يتدبر في ملكوت السموات والأرض لأن التدبر يوسع باب الفهم: فيفهم الإنسان أن هذه الموجودات موجودة لغيرها لا لذاتها، فالنظر في الكون سبيل الوصول إلى معرفة مكونه تعالى.

فالله سبحانه وتعالى ـ نصب لك الكائنات ـ أيها الإنسان ـ لا لتراها، بل لترى فيها مولاك ومولاها.

كما قيل في ذلك:

ما أبنيت لك العوالم إلا لتراها بعين من لا يراها

فارق فيها رقى من ليس يرضى حالة دون أن يرى مولاها

فالحق سبحانه وتعالى أمرنا بأن ننظر في السموات والأرض. ونحو ذلك من الآيات الدالة على التفكر في عجائب المخلوقات وما انطوت عليه من العبر والعظات الدالة على العلم بالله عز وجل وماله من صفات الكمال، ونعوت الجمال، ونحو ذلك من دلائل الجلال.

فإذا تفكر القلب في وجود المخلوقات، هداه ذلك التفكر إلى وجود موجدها.

والحق من تفكر في عجائب خلق الإنسان وماخصه به تعالى من كمال الخلق، وعظيم الإتقان، وما يلحقه من المنن، وأنواع الإحسان، وجد نفسه مغمورا في لطف مولاه، مشمولا برأفته وعطفه، في أول منشئه ومنتهاه[1].

ومن ناحية أخرى يجب أن ننبه في هذا الصدد أن التأمل في خلق السموات والأرض سمة من سمات أولى الألباب الذين منحهم الله سبحانه وتعالى الهمه في علم ما يحبه الله سبحانه وتعالى من أحبابه ليسلكوا طريق الله ويجاهدون أنفسهم بالعمل بالكتاب والسنة [2].

ما أموج العقول والقلوب والأرواح أن تقف بكل إجلال وتدبر أمام بديع صنع الله عز وجل متأملة. وما أحوج الأرواح إلى أن تقتبس من نور الرسول ﷺ فيكون ضياء للسالكين، وهدى للعالمين، وقدوة للصالحين.

---

(١) المرجع السابق، ج ٢، ص: ٢٣٦.

(٢) أبو العزائم، محمد ماضي: أسرار القرآن (القاهرة: دار المدينة المنورة، ط ١، ١٤٠٤ هـ) ج ٤، ص: ١١٩.

الفصل الرابع
التفكر فى الأيام وغيرها

إن الحق سبحانه وتعالى أمرنا بالتفكر والتدبر فى كتابه العزيز فى مواضع لا تحصى فقال تعالى :

« إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب »[1] .

أى تعاقبهما فى المجئ والذهاب ، يخلف أحدهما صاحبه إذا ذهب أحدهما جاء الآخر خلفه أى بعده[2] .

وقال تعالى : « هو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا »[3] .

ويقول ابن عطاء الله فى هذه الآية : أراد اختلافهما فى النور والظلمة والزيادة والنقصان .

وما أحسن قول القائل :

ياراقدا الليل مسروراً بأوله ... إن الحوادث قد تطرقن أسحارا

لا تفرحن بليل طاب أوله ... فرب آخر ليل أحج النار

وقال آخر :

إن الليالى للأنام متاهل ... تطوى وتنشر دونها الأعمار

فقصارهن مع الهموم طويلة ... وطوالهن مع السرور قصار

ولقد أثنى الحق سبحانه وتعالى على المتفكرين فى خلق السموات والأرض . فقال تعالى :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ

(١) سورة : آل عمران : آية : ١٩٠ .
(٢) الغزالى ، أبو حامد : مكاشفة القلوب (القاهرة : مكتبة الزهراء ، ط١ ، ١٤٠٣هـ) ص : ٢٢١ .
(٣) سورة : الفرقان : آية : ٦٢ .

قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ ﴾[1] .

ومما يروى عن السلف الصالح أن ننتقل هنا طرفاً من أحوالهم :

عن محمد بن واسع أن رجلاً من أهل البصرة ركب إلى أم ذر بعد موت ألى ذر فسألها عن عبادة أبى ذر ، فقالت : كان نهاره أجمع فى ناحية البيت يتفكر .

وعن الحسن رضى الله عنه أنه قال : « تفكر ساعة خير من قيام ليلة » .

وقيل لإبراهيم بن أدهم : إنك تطيل الفكرة فقال : الفكرة مخ العقل .

وكان سفيان بن عيينه كثيراً ما يتمثل بقول القائل :

إذا المرء كانت له فكرة ... ففى كل شىء له عبرة

وعن طاووس : قال : قال الحواريون لعيسى بن مريم يا روح الله هل على الأرض اليوم مثلك . فقال نعم ، من كان نطقه ذكرا ، وصحته (*) فكرا ، ونظره عبرة فإنه مثلى .

ومما رواه الحسن : « ومن لم يكن كلامه حكمة فهو لغو ، ومن لم يكن سكوته تفكراً فهو سهو ، ومن لم يكن نظره اعتباراً فهو لهو » .

وفى قول الحق تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾[2] .

قال الحسن : أمنع قلوبهم من التفكر فى أمرى .

وعن امرأة أنها كانت تسكن البادية قريباً من مكة أنها قالت : لو تطالعت قلوب المتقين بفكرها إلى ما قد ادخر لها فى حجب الغيب من خير الآخرة لم يصف لهم فى الدنيا عيش ولم تقر لهم فى الدنيا عين[3] .

وكان لقمان يطيل الجلوس وحده فكان يمر به مولاه فيقول بالقمان إنك تديم الجلوس وحدك فلو جلست مع الناس كان آنس لك . فيقول لقمان : إن طول الوحدة أدوم للفكر ، وطول الفكر دليل على طريق الجنة .

(١) سورة : آل عمران : الآيتان : ١٩٠ـ١٩١ .
(*) من أراد أن يقف على حقيقة ما ذكرناه فليراجع بحثنا : سيكولوجية الصمت . دراسة إسلامية نفسية ، بحث منشور بمجلة كلية الآداب جامعة بنها ، العدد الثالث ، ١٩٩٤م .
(٢) سورة : الأعراف : آية : ١٤٦ .
(٣) الغزالى ، أبو حامد : المرغوب من مكاشفة القلق (القاهرة : مطبعة الشمرلى ، ١٩٨١م) ص ١٥٧ .

ولقد قال ذو النون المصرى : إذا سكن القلب حب الله تعالى أنس بالله لأن الله أجل فى صدور العارفين أن يحبوا سواه [١] .

وروى أن مطرف بن الشخير كتب إلى عمر بن عبد العزيز : « ليكن أنسك بالله ، وانقطاعك إليه ، فإن لله عباداً استأنسوا بالله وكانوا فى وحدتهم أشد استئناساً من الناس فى كثرتهم ، وأوحش ما يكون الناس آنس ما يكونون ، وآنس ما يكون الناس أو حش ما يكونون » [٢] .

من هنا يتضح للباحث العلاقة بين الخلوة والأنس والتفكر . وهذا ما عالجناه فى بحث سابق تحت عنوان : « الأنس » [٣] .

وفى هذا المقام نجد أن وهب بن منبه يربط بين الفكر والعلم والعمل فيقول :

« ما طالت فكرة امرئ إلا علم ، وما علم امرئ قط إلا عمل » .

من هنا كان التفكر فى خلق الله عز وجل من أفضل العبادات . وهذا ما أوضحه عمر بن عبد العزيز عندما قال : الفكرة فى نعم عز وجل من أفضل العبادة .

لذلك كان من الواجب على المرء أن يترك الدنيا محبة لله وأن يهجرها .

وفى ذلك يقول يحيى بن معاذ الرازى رحمة الله : ترك الدنيا كلها أخذها كلها ، فمن تركها كلها أخذها كلها ، ومن أخذها كلها تركها كلها ؛ فأخذها فى تركها ، وتركها فى أخذها .

ومما يراه الباحث أن هذا القول ليحيى بن معاذ يمثل دعوة إلى الزهد فى الدنيا وتركها لنيل الرضا فى الآخرة والفوز بالجنة [٤] .

وعلى ضوء ما تقدم نستطيع أن نقول أن الفكر الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية بينما الفكر فى الآخرة يورث الحكمة ويحيى القلوب .

فالتفكر فى الخير يدعو إلى العمل به والندم على الشر يدعو إلى تركه .

---

(١) أبو سعيد الخراز : كتاب الصدق ، تحقيق عبد الحليم محمود (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٩م) ص : ٩٠ .

(٢) ابن عجيبة : إيقاظ الهمم فى شرح الحكم (القاهرة : مطبعة الحلبى ، ط٣ ، ١٤٠٢هـ) ص ٤١٤ .

(٣) عبد البارى محمد داود : الفناء عند صوفية المسلمين والعقائد الأخرى . دراسة مقارنة (القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، ١٩٩٦م) راجع المبحث الخاص : بالأنس .

(٤) ابن حجر العسقلانى : الاستعداد ليوم الميعاد (بيروت : مؤسسة المعارف ، ط٦ ، ١٤٠٥هـ) ص ٢٦ .

من هنا قال الحسن : إن أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر وبالنكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة .

وتتمثل شدة التفكر والتأمل فى خلق السموات والأرض عند داود الطائى رحمة الله تعالى عندما كان جالساً على سطحه فى ليلة قمراء فتفكر فى ملكوت السموات والأرض وهو ينظر إلى السماء ويبكى حتى وقع فى دار جارله ، فوثب صاحب الدار من فراشه عرياناً وبيده سيف وظن أنه لص فلما نظرا إلى داود رجع ووضع السيف ، وقال من الذى طرحك من السطح . قال : ما شعرت بذلك .

ألم يكن هذا التفكر والتأمل هو الذى جعل داود الطائى فى موقف الخوف من الله تعالى . وقد مدح الله تعالى أصحاب هذا المقام بقوله :

« أمن هو قانت بالليل ساجداً وقائماً ينحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه » .

وهذا هو الإمام الجنيد يقول : أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفرة فى ميدان التوحيد والتنسم بنسيم المعرفة والشرب بكأس المحب من بحر الوداد والنظر بحسن الظن بالله عز وجل ، ثم قال : يالها من مجالس ما أجلها ، ومن شراب ما ألذه طوبى لمن رزقه [١] .

لذلك كان من الواجب على المطيع لله الممتثل لأمره أن يقبل بكليته على الله حتى يكون فى موطن القرب من الله .

فالقرب هنا حال يشعر به الإنسان فيتمثل الله دائماً فى كل خطوة يخطوها ، بحيث يدرك أن الله أقرب إليه فى كل أن من حبل الوريد . من الواضح أن القرب ليس قرباً مكانياً ، وإنما هو قرب روحى بالوجود الإلهى الذى لا يخلو منه مكان والذى يوجد فى كل مكان [٢] .

ويقول القشيرى : « أول رتبة فى القرب القرب من طاعته والاتصاف فى دوام الأوقات بعبادته [٣] .

كما سئل الجنيد عن القرب فقال : « قريب لا بالتلاق ، بعيد بلا أفتراق » .

ولقد أضاف قائلاً : « . . . . ولا كيفيته لقربه ومعيته ، وكذلك قربه ومعيته ليس كمعية .

---

(١) الغزالى ، أبو حامد : مكاشفة القلوب ، مرجع سابق ، ص : ٢٢٤ .

(٢) عبد البارى محمد داود : الفناء عند صوفية المسلمين والعقائد الأخرى . دراسة مقارنة ، مرجع سابق ، راجع موضوع : القرب .

(٣) القشيرى : الرسالة ، مرجع سابق ، ص : ٤٤ .

أحد وقربه ، وأنه تعالى كان ولم يكن معه شيء ، وهو الآن على ما هو عليه كان »[1] .

ويحدثنا الجنيد فى موقف آخر مفسراً معنى القرب فيقول :

« إن الله تعالى يقرب من قلوب عباده على حسب ما يرى من قرب قلوب عباده منه ، فانظر ماذا يقرب من قلوب عباده » .

إن القرب هنا قرب معنوى لأنه ليس كمثله شيء .

وهذا ما أورده ابن عطاء الله السكندرى عندما تحدث عن القرب فقال :

« وصولك إلى الله ، وصولك إلى العلم به ، وإلا فحل ربنا أن يتصل به شيء أو يتصل بشيء »[2] .

كما قال : قربك منه أن تكون مشاهداً لقربه ، وإلا فمن أين أنت ووجود ، قربه .

(١) الغزالى ، أبو حامد : روضة الطالبين وعمدة السالكين ، ضمن وسائل الإمام الغزالى ، تحقيق محمد مصطفى أبو العلا (القاهرة : مكتبة الجندى ، ١٣٩٠هـ) ص : ٧٤.

(٢) ابن عطاء الله السكندرى : الحكم ، بشرح محمد مصطفى أبو العلا ، جـ ٢ ، ص : ٤٠ .

الفصل الخامس

أسس البحث فى آيات الله الكونية

يمكن أن نعتبر المبادئ التى قامت عليها نظرة الإسلام إلى الإنسان والكون والحياة أسسا يستطيع الباحث أن يبنى عليها وينطلق منها عندما يبحث عن آيات الله فى الآفاق . ونستطيع الآن أن نقدم بعضها نجمله فى النقاط التالية :

أولا : تحرير الإنسان من العبودية أو العدوان لقوى الكون :

تقوم علاقة معظم الناس بالكون منذ القدم على إفراط أو تفريط ، فبعضهم كالطفل يخاف من قوى الكون أو يستعظم شأنها فيعبدها ويخضع ويستسلم لها ، وبعضهم يغتر بعقله وتدبيره فيعتقد أن عليه أن يقف من هذه القوى موقف المقاومة والمكافحة ، ليتغلب عليها وينتصر ويخضعها لأمره وتدبيره . وكلا الموقفين ينافي التفكير الموضوعى السليم[1] .

وقد رأينا أن الحجج القرآنية التى انطلقت من الواقع وبرهنت على أن الإنسان لم يخلق من غير خالق ، وأنه لم يخلق الكون والسموات والأرض ، التى لابد لها من خالق .

لذلك أمرنا القرآن الكريم أن نتحرر من عبودية الكون وقواه لنعبد خالقها .

قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[2] .

وبين ذلك رسول الله ﷺ بقوله : « إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ، ولا لحياته ، ولكنهما آيتان من آيات الله ، يخوف بهما عباده ، فإذا رأيتم ذلك فصلوا وادعوا ، حتى ينكشف ما بكم »[3] .

(١) عبدالرحمن النحلاوى : من أساليب التربية الإسلامية ، التربية بالآيات ، مرجع سابق ، ص : ٢٠٧ .

(٢) سورة : فصلت : آية : ٣٧ .

(٣) هذا الحديث رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن المغيرة ، وكذلك رواه النسائى وابن ماجه عن أبى مسعود .

وهكذا حرر القرآن الكريم العقل البشرى من الخضوع لقوى الكون، ومن التأثر بما كان يتوهم من مؤثرات خارقة لهذه القوى فى حياة الإنسان.

فالأفعال الإنسانية الاختيارية لا تخرج عن أى تكون من الأكوان الواقعة تحت مداركنا، وما تنفعل به نفوسنا عند الإحساس بها أو استحضار صورها، يشابه كل المشابهة ما تنفعل به عند وقوع بعض الكائنات تحت حواسنا أو حضورها فى مخيلاتنا وذلك أمر بديهى لا يحتاج إلى دليل[1].

وإذا ما تم للإنسان أن يتكشف أنه ليس فى هذا الكون العظيم ما يفقد توازنه أو يجعله يختل فى أنظمة قيد أنملة عن مساره الدقيق، وتعرف على أن هذا المبدع الخلاق الذى لا يستطيع مخلوق أن يحاكيه. فالحق سبحانه وتعالى فاطر السموات والأرض.

إذا نظر الإنسان إلى كل ذلك ابتهر حسه، واحتار عقله، واهتز من الأعماق.

والآيات القرآنية كثيرة فى هذا المعنى تهدف كلها إلى دعوة الفرد إلى النظر فى ملكوت الله سواء كان فى المكان الذى يعيش فيه الفرد أو فى مكان آخر[2].

فهى تدعو الفرد أن يقلب بصره ونظره فى كل مكان يذهب إليه ثم يفكر ويتدبر ليعيش فى ملكوت الله سبحانه وتعالى.

فآيات الله عز وجل فى الكون متعددة لا يمكن حصرها إذا لاتعد ولا تحصى، بطالعها المؤمن بالله تعالى في نفسه وفى الكون من حوله، وكلما زاد تأمله وتفكره وتدبره فى هذه الآيات الكونية زاد إيمانه وعمر قلبه بنور الحق والإيمان[3].

وهنا ينبغى على الإنسان أن يفكر فى سوابغ النعم، فإذا حصل بخياله صور الكائنات وما بها من سوابغ النعم، وجزيل الآلاء، وواسع الفضل العظيم، وتجلت له آيات الله مشرقة فى نفسه وفى الآفاق، وانتعشت تلك الصور على جوهر نفسه، فتعقلها عقله، وتدبرها قلبه، فشعر القلب بأن تلك المواهب العلية، والكنوز الكونية، التى ملئت خيرا له وبركات، لايحصيها عدا، ولا يستقصيها حدا، لم تخلق عبثا، ولم تترك سدى وتحقق أن مبدعها القادر الحكيم، وخالقها القوى العليم، ما تفضل به سبحانه إلا لحكمة أجلاها للبصائر، وسر كاشف به الضمائر، وآيات أجلاها للعقول، ولا تخفى على الإنسان كائن ما كان، ولكن

(١) الغزالى، أبو حامد: المحبة والشوق والأنس والرضا (القاهرة: مطبعة الحلبى، ط١، ١٣٨٠هـ) ص: ١١.

(٢) عبد البارى محمد داود: السياحة فى الإسلام (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٦م) ص ١٦.

(٣) المرجع السابق، ص: ٣٠.

الأهواء والخطوظ والتقليد هى التى جعلت الإنسان يجهل الطريق الموصل إلى الحكمة، والسبيل المبين لها[1].

والحكمة من ذلك هى عبادة الله تعالى، والإخبات لعظمته جل جلاله، والتحقق بأنه هو الله لا إله إلا هو، وأن الإنسان عبد أكرمه الله بعظيم فضله، شديد الاضطرار إلى مولاه، دائم الافتقار إليه جل جلاله[2].

ذلك هو التدبر فى الآيات الإلهية وفى جميع المظاهر الكونية الناطقة بالتسبيح والتهليل والتنزيه لذات الحق، فإذا لاح على المتدبر أريج روض قيامها كلها بالقيوم سبحانه وتعالى انبلج له صبح التحقق بسر قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾[3].

كما يجب على الإنسان أن ينظر فى المكونات الدالة على قدرة الحق سبحانه وتعالى، فهى آثاره الشاهده ببدائع صنعته تبارك وتعالى. والحق سبحانه وتعالى نصب الكائنات لتدل عليه، فإنها دليل على آثار أسمائه وصفاته[4].

من هنا يجب أن نعرف أن النظر فى الكون هو سبيل الوصول إلى معرفة مكونه تعالى.

ثانيا: مبدأ تقليل الحوادث الكونية، والبحث عن أسبابها، وغاياتها، ونواميسها:

لقد أوضحنا فيما تقدم أن القرآن الكريم أشار إلى مجالين كبيرين اختيرت منهما الموضوعات والحوادث، لتكون فيها آيات ودلائل على توحيد الله وصدق كتابه ورسوله ﷺ وهما: آيات الله فى الآفاق، وآيات الله فى أنفسنا البشرية الإنسانية، كما جاء فى قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾[5].

والجدير بالذكر أن القرآن قدم لنا هذا التصنيف الواسع، ثم نشتق منه أصنافا فرعية، على أن كلا من الصنفين إنما عرضه الله علينا لبيان سبل هداتينا، ولترسيخ الإيمان فى قلوبنا، فليس القرآن كتابا مخصصا للعلوم الكونية، أو البشرية أو الإنسانية، أو النفسية، أو التاريخية، وإنما

(١) أبو العزائم، محمد ماضى: الطريق إلى الله تعالى (القاهرة: دار المدينة المنورة، ط٢، ١٤٠٥هـ) ص: ١٤.

(٢) عبد البارى محمد داود: السياحة فى الإسلام، مرجع سابق، ص: ٣٢.

(٣) سورة: الحديد: آية: ٤.

(٤) ابن عطاء الله السكندرى: الحكم، بشرح محمد مصطفى أبو العلا (القاهرة: مكتبة الجندى، د.ت) جـ١، ص: ٢٩٦.

(٥) سورة: فصلت: آية: ٥٣.

ينتقى من آفاق الكون وعجائب النفس البشرية ما يحقق أغراضه وأهدافه حين يستعرض آيات الله. وهذا ما أوضحناه فى ماضى قولنا.

وقد انبثق عن هذا المبدأ تصنيف الآيات بحسب دلالتها، كما رأينا، فدلنا ذلك التصنيف على أن القرآن كلما عرض علينا ظاهرة من ظواهر الكون يسألنا عما تدل عليه لنصل إلى أسبابها فنعزوها إلى حكمة الله أو رحمته أو قدرته، أو يذكر لنا الغاية التى من أجلها خلقت تلك الظاهرة الكونية، وتؤكد لنا هذه النصوص القرآنية أن الله ما خلق السموات والأرض والشمس والقمر إلا بالحق، أى لهدف مقدر، وإلى أجل مسمى عينه الله فى سابق علمه ينتهى به، وعنده تحقيق الهدف المقدر الذى اقتضته الحكمة الإلهية، كما لى قوله جل جلاله:

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾(١).

فطبيعة تكوين الناس فى أنفسهم، وطبيعة تكوين ما الكون كله من حولهم تدل على أن هذا الوجود قائم على الحق، ثابت على الناموس، لا يضطرب ولا تتفرق به السبل، ولا تتخلف دورته، ولا يصطدم بعضه ببعض، ولا يسير وفق المصادفة العمياء، إنما يمضى فى نظامه الدقيق المحكم المقدر تقديرا، وأن من مقتضيات هذا الحق الذى يقوم عليه الوجود، أن تكون هناك آخرة يتم فيها الجزاء على العمل، ويلقى الخير والشر عاقبتهما كاملة. إنما كل شىء إلى أجله المرسوم، وفق الحكمة المدبرة، وكل أمر يجىء فى موعده (وفق الأجل المسمى) لا يستقدم لحظة ولا يستأخر. وإذا لم يعلم البشر متى تكون الساعة، فإن هذا ليس معناه أنها لا تكون، ولكن تأجيلها يغرى الذين لا يعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا فينكرون البعث(٢).

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾(٣).

وإذا كانت الأسباب والغايات تشترك جميعا فى تعليل الحوادث الكونية، فتأخذ الغايات أحيانا محل الأسباب فى هذا التعليل، وقد لا يفرق بينهما إلا السبق الزمنى أحيانا، ولا قيمة لهذا الزمن الدنيوى القصير فى عمر الكون؛ فإن من تمام عظمة القرآن أن يعلل خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق. ومن تمام التناغم مع عظمة القرآن أن يفسر هذا الحق بالناموس. أى النظام الأكبر الذى تتم بموجبه ارتباطات حوادث الكون الكبرى، ودوراته وسننه الربانية،

(١) سورة: الروم: آية: ٨.
(٢) عبد الرحمن النحلاوى: من أساليب التربية الإسلامية، التربية بالآيات، مرجع سابق، ص: ٢٠٩.
(٣) سورة: الروم: آية ٨.

المرتبطة كلها بالأجل المسمى، بالآخرة الى سينتهى عندها أجل هذا الكون.

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾(١).

ويحرص القرآن الكريم أشد الحرص على تأكيد تعليل خلق الكائنات بالحق وارتباطها بالأجل المسمى فى مواضع متعددة نذكر منها:

قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿ خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٥).

وقال تعالى: ﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾(٦).

وقال تعالى: ﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴾(٧).

وقال تعالى: ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾(٨).

وهكذا قام القرآن الكريم بدور أساسى فى تربية العقول على التفكير الجدى، المنهجى الدقيق الصادق الموضوعى البعيد عن كل هوت أو عبث.

وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٩).

وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾(١٠).

(١) سورة: إبراهيم: آية: ٤٨.
(٢) سورة: يونس: آية: ٥.
(٣) سورة: الحجر: آية: ٨٥.
(٤) سورة: النحل: آية: ٣.
(٥) سورة: الدخان: آية: ٣٩.
(٦) سورة: الجاثية: آية: ٢٢.
(٧) سورة: الأحقاف: آية: ٣.
(٨) سورة: التغابن: آية ٣.
(٩) سورة: الدخان: الآيتان: ٣٨-٣٩.
(١٠) سورة: الأنبياء: الآيتان: ١٦-١٧.

ثالثا : مبدأ تسخير قوى الكون للإنسان :

ينبغى أن نوضح هنا أن طلب الحق عند تعليل خلق السموات والأرض، لا يعنى إبعاد الإنسان عن الاستفادة مما فيهما وما بينهما من مخلوقات وكائنات ، وقوى وخصائص ومزايا . بل إن هذه الفوائد إنما هى من الحق الذى خلق الله الكون به ؛ لذلك كثرت النصوص القرآنية الموضحة لكثير مما سخر الله لهذا الإنسان ، ومما خلق الله له فى السموات والأرض من نجوم وشمس وقمر ، وبحار وأنهار ، زروع وأشجار ، وحبوب وثمار . . .

وفى هذا العرض والإيضاح ما فيه من حض على استثمار خيرات هذا الكون بأسلوب غير مباشر ، إنه أسلوب الإغراء والترغيب يقول للإنسان : هلا استفدت مما سخر الله لك من حرارة الشمس ونور القمر ، ومياه الأنهار ، وخيرات البحار ، والفلك التى تجرى فى البحر؟! بل من كل ما فى السموات والأرض [1] .

قال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [2] .

وبهذه التربية القرآنية انقلب الإنسان من أسير كانت الخرافات تستعبد عقله الخاضع لقوى الكون إلى إنسان حكيم ، يدرس ناموس الكون ونظامه ، ويتعرف على الحق الذى أقام الله به الكون وسنّ السنن والقوانين الكونية ، ثم يتصرف بما سفر الله له من قوى الكون وخيراته من غير استئثار ولا طغيان ولا استبداد ومن غير فهم ولا جشع . تصرف الواعى الأمين على ما استأمنه الله ، الحذر الخائف من تضييع الأمانة . ومن المسؤولية عنها أمام الذى وهبه إياها ، وجعله خليفة فى الأرض ، وملكه زمام خيراتها ودوابها . ليمتحنه وينظر كيف يعمل وكيف يتصرف بها ، بعد أن مهد له ودحاها [3] .

قال تعالى : ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾ [4] .

فالإنسان وإن كان لا يدرك بعقله كل أسرار الكون ولا يستطيع أن يصل إلى حقائقه مهما دأب فى الدرس والتحصيل إلا أنّ الله سبحانه وتعالى يعينه ويعلمه ويبصره بما يغمض عليه عندما يصدق الإنسان مع نفسه ويعرف حدوده ويؤمن أنه مخلوق ضعيف وأن هناك خالق عالم قادر رتب كل شىء فأحسن نظامه ، وخلق كل شىء فأبدع صورته .

وعندما يشعر الإنسان فى قرارة نفسه بأن هذا الخالق أبدع ما يكون بقول نوله تعالى ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ [5] .

---

(١) عبد الرحمن النحلاوى : من أساليب التربية الإسلامية ، التربية بالآيات ، مرجع سابق ، ص : ٢١٠ .
(٢) سورة : الجاثية : آية : ١٣ . (٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .
(٤) سورة : النازعات : آية : ٣١ . (٥) سورة : المؤمنون : آية : ١٤٠ .

عندما يعرف الإنسان كل ذلك . ويدرك أن هذا الكون صادر عن إرادة الله الحرة بغير ضرورة وأنه خليفة الله فى الأرض ، كرمه وفضله على العالمين ، وزوده بمواهب واستعدادات وطاقات ، وأمره بالتأمل فى هذا الكون الفسيح والبحث فى أسرار الطبيعة ، والنظر فى هذا الوجود العظيم فى مظاهره المتعددة وما يشتمل عليه من نظام بديع ودقة وانسجام وتناسق وتوازن .

قال تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ﴾ [1] .

وقال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ [2] .

لقد خلق الله سبحانه وتعالى فى الإنسان موهبة عظيمة . ومقدرة فذة . . تلك التى تستطيع أن تتجاوب مع روح الكون العميقة وتنظر فى خلق الله تعالى .

فالإنسان وحده دون الكائنات الكونية ، الشاعر بنفسه وبالله عز وجل . ومن ثم كان هو التفسير الكامل للكون ، أو هو المرتبة الجامعة لكل خصائص المرتبة التى تجلت فيها أسمى الحقائق ، مرتبة الروح التى هى من روح الله ، الروح الذى سجد له الملأ الأعلى وأحاط بما لم تحط به الملائكة ، إذ علمه ربه الأسماء كلها .

إن الإنسان هو وحده بين المخلوقات القادر على أن يحول الصور الكونية إلى معان ومدارك عقلية هى مرآة هذا الوجود حسبما يرى ابن رشد [3] .

هذه القدرة الإلهية أو إن شئت فقل : هذه القدرة المبدعة الخالقة التى من بها الله سبحانه وتعالى على الإنسان هى سره الأكبر ، وبها وحدها ، أصبحت للصور الكونية معان ترجم عنها الإنسان وأبرزها فأصبح وحده الحلقة المفسرة للكون ، أو اللوحة التى يتجلى فيها الكون ، فتتجلى آيات الله الكبرى .

يقول فريد الدين العطار : « الإنسان خلاصة العالم ، أو هو العالم الأصغر الذى احتوى فيه العالم الأكبر ، أو هو روح العالم الشاعر بنفسه وبالله ومن أجله خلق الله كل شىء » .

ويقول الجامى : « الإنسان تاج الخليقة وآخر أسبابها وهو وإن يكن آخر فى ترتيب الخليقة فهو أول فى مجارى الفكر (*) الربانى لأن الجانب الأساسى فيه هو الروح الذى فاض (*) عن الألوهية مباشرة .

---

(١) سورة : السجدة : آية : ٥ . (٢) سورة : سبإ : آية : ٢ .
(٣) طه عبد الباقى سرور : من أعلام التصوف الإسلامى ، ص : ٦٨ .
(*) فى هذا الصدد نحن لا نتفق مع الجامى فيما ذهب إليه بصدد قوله : الفكر الربانى لأن حكمة الفكر لا تليق بالذات العليه ولا تنسجم مع المفهوم الشرعى .
(*) وكذلك كلمة فاض فهى كلمة تخص الفكر الفلسفى . ولعل الجامى تأثر هنا بهذا الفكر .

ويقول ابن عربى : « الإنسان هو العالم الأصغر الذى انعكست فى مرآة وجود كل كمالات العالم الأكبر».

ويقول جلال الدين الرومى : « الإنسان هو عين الكون المبصرة ».

وهنا ينبغى أن نفهم أن الكون منفعل بمظهر الأسماء، ومنور بسنا الصفات، والمواليد كلها حية بالنسبة لأنواعها، يشهد ذلك من ذاق حلاوة الحقيقة، وهى خاضعة لناموس العلم الإلهى وسيره.

رابعا : مبدأ حدوث الكون وأنه مخلوق خلقه الله لهدف وغاية :

هذا الكون الجميل البديع الذى نعيش فيه . هذا الكون الحى المسبح الملهم، هذا الكون الذى سخر لنا ، ووهبه الله سبحانه وتعالى مجالا لعقولنا وأرواحنا ، يجب أن نتذوقه، وأن نفهمه، وأن نحيط به علما.

وقد رأينا مصداق هذا المبدأ فى آيات الخلق. وهذا وارد فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾(١).

وقوله سبحانه : ﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ (٢).

ويجدر بنا أن نوضح فى هذا المقام الآثار التربوية لهذا المبدأ نلخصها فى نقطتين:

إحداهما : ارتباط الإنسان بخالق الكون وخضوعه له. وتوحيده بالعبادة والخشوع.

والثانيـة : تربية الإنسان على الجد وطلب الحق فى كل ما يبحثه ويدرسه ويتعامل معه، اقتداء وتأثرا بصفات الله عز وجل وهو القائل :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (٣).

فالكون كله ظاهره وباطنه يتحرك مسبحا بجلال الخالق الأعظم، متلهفا إلى بلوغ كمال له بالتقديس والطاعة.

وهذا الوجود الجميل الرائع فى ترابطه واتساقه، وانسجام أجزائه كائن حى مؤتلف الخلايا

(١) سورة : الدخان : الآيتان : ٣٨-٣٩.
(٢) سورة : الأحقاف : آية : ٣.
(٣) سورة : الأنبياء : الآيتان : ١٦-١٧.

والأعضاء والوظائف والغايات وتفيض بين جنباته الحياة والوعى، ومن وراء كل هذا تتجلى إرادة قادرة منظمة مبدعة.

والجدير بالذكر أن هذا الكون الذى نعيش بين أحضانه وثيق الصلة بنا . فكل شىء فى هذا الكون الفسيح من قوى وطاقات وروح وفكر وتصور وحركة نغمة فى لحن الوجود الأعظم.

والوجود الكونى، رسالة من الله مكتوبة بأحرف من نور (*)، والمخاطب بتلك الرسالة هو الإنسان ومن هنا الواجب على الإنسان أن يفقه هذه الرسالة حرفا حرفا.

فرسالتنا أن نتفهم هذا الكون وأن نحبه ببدائعه وعجائبه وأن نكشف عن كنوزه وطاقاته وأسراره ورموزه لنزداد علما وقوة وإيمانا (١).

كذلك لابد للإنسان أن يتسامى ويرتفع عن طلب اللذات الزائلة ليستمتع بجمال الوجود فيتلاقى وجدانه العميق مع هذا الكون الفسيح.

من هنا يستغرق الإنسان فى هذا الجمال فيستمتع به لأنه يجد فى الجمال الكونى ثمارا يقتطفها من ينابيع الجمال المطلق.

فمن علت همته عن الأكوان وصل (*) إلى مكونها، ومن وقف بهمته على شىء من الخلق فاته الحق (٢).

وهكذا يغنى عن شهود الخلق والهوى، ولايشهد فى الكون إلا أفعاله وخلقه وحده لا شريك له فى ذلك (٣).

من هنا كان النظر فى الكون سبيل الوصول إلى معرفة مكونه تعالى :

فالحق سبحانه وتعالى أمرنا بأن ننظر فى الكون، النظر فى السموات والأرض. ونحو ذلك من الآيات الدالة على التفكر فى عجائب المخلوقات وما انطوت علي من العبر والعظات الدالة على العلم بالله عز وجل وماله من صفات الكمال، أو نعوت الجمال، ونحو ذلك من دلائل الجلال.

(*) مصداقًا لقوله تعالى : « الله نور السموات والأرض» سورة : النور : جزء من آية : ٣٥.
(١) طه عبد الباقى سرور : من أعلام التصوف الإسلامى ، ص : ٦٤-٦٥.
(*) الأفضل هنا عرف مكونها ليستقيم المعنى مع المفهوم الشرعى وذلك لأن لفظ «وصل» يحتاج منا إلى مناقشة وهو أنه لفظ لم يرد فى النصوص الشرعية من الكتاب أو السنة . والله أعلم.
(٢) ابن عطاء الله : الحكم، بشرح محمد مصطفى أبو العلا، مرجع سابق ، جـ٢، ص : ١٣٥.
(٣) الشعرانى : لطائف المنن، تحقيق عبد الحليم محمود (القاهرة : طبعة القاهرة الثانية ، ١٣٩٦هـ) ص : ١٢٣.

فإذا تفكر القلب فى وجود المخلوقات، هداه ذلك التفكر إلى وجود موجدها.

فالكون بديع وجميل، يحتاج منا إلى تأمل عميق للتعرف على بعض أسراره، ونستشعر من جماله عظمة الخالق وحكمته. فسمات هذا الجمال الكونى تشهد ببديع خلق الله وجميل صنعته، وأن كل ما فى الكون يسبح بحمده ويشكر له.

قال تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾[2].

وينبغى أن نفهم أن هذا الكون الفسيح لا يوجد فيه كفر ولا فسوق ولا عصيان، إنما ترابط وحركة ونظام، وليس فى هذا الكون فوضى. فالفوضى ليست بجمال، وكل ميسر لما خلق له يعبر عن وظيفة ودور فى هذا الكون العجيب. من هنا كان الواجب على الإنسان أن يقف موقف التسليم والإذعان لفاطر السموات والأرض.

خامسا: خضوع الكون لسنن سنّها الله وفق مقادير قدّرها:

يجب أن نوضح لأصحاب العقول أن يعلموا أن كل حوادث الكون وتحركات الشموس والنجوم والأفلاك إنما تجرى وفق سنن ثابتة وخطة رتّبها الله سبحانه وتعالى منذ الأزل. وقد عبر علماء الطبيعة عن هذه السنن بالقوانين.

وإذا كنا نذكر فى هذا المقام القانون الطبيعى عند العلماء، فإن هذا القانون من وضع البشر. لذلك نرى اختلافا واتفاقا بين مفهوم السنة الإلهية الكونية فى القرآن والقانون الطبيعى عند العلماء.

وقد جاء عرض بعض هذه السنن، كتتابع الليل والنهار، وجريان الشمس، ومنازل القمر مقرونا بتقدير كمى، وحسبان إلهى لا يتغير ولا يتخلف.

قال تعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾[4].

(١) سورة: الجمعة: آية: ١.
(٢) سورة: الإسراء: آية: ٤٤.
(٣) سورة: يس: الآيات: ٣٧-٤٠.
(٤) سورة: الرحمن: آية: ٥.

وقال عز وجل: ﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾[1].

ونخلص من ذلك إلى أن هذا الكون إنما يسير وفق ترابط وحركة ونظام رتبة الله عز وجل منذ الأزل. وهذا ما أوضحناه فيما تقدم.

سادسا: الكون مسير وقائم بقدرة الله:

إن استمرار الليل والنهار، بدوران الأرض حول نفسها، وبقاء الشمس سراجا وهاجا تغذى الأرض بحرارتها، واستمساك السماء وتماسكها وبقاءها، واستمرار تألق النجوم فى السماء، كل ذلك وغيره لا يمكن أن يستمر بدون طاقة متجددة وقوة واعية دائبة تمده، ليستمد منها البقاء، واستمرار التألق والتوهج، والحركة والتماسك؛ والقوة والطاقة لا تأتيان من فراغ، بل لابد لهما من مصدر، ولابد أن يكون هذا المصدر واعيا مخططا حكيما، غنيا عن الاستمداد من غيره، ليتسنى بقاء الحياة واستمرارها وتجددها، على ما هى عليه من توازن وإحكام ودقة وانسجام، وقد وجدنا الآيات المتعددة فى القرآن الكريم متحدية البشر أو أى قوة أو قدرة أن تستطيع القيام على تصريف شؤون الكون والإنسان من استمرار الرزق والحياة إلى تدبير أمور الكون بهذا الإحكام والشمول[2].

قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾[3].

وكذلك يقرر المولى جل جلاله أن بقاء السموات والأرض وتماسكهما، لا يكون إلا بقوته وأمره كما قال سبحانه:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[4].

وقال جل من قائل: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾[5].

وكل ذلك مستمد من صفة الحياة والقيومية (*) وهى من صفات الله الأزلية.

(١) سورة: الأنعام: آية: ٩٦.
(٢) عبد الرحمن النحلاوى: من أساليب التربية الإسلامية، التربية بالآيات، ص: ٢١٢.
(٣) سورة: يونس: آية: ٣١.
(٤) سورة: فاطر: آية: ٤١.
(٥) سورة: الروم: آية: ٢٥.
(*) سوف نفرد لهذا الموضوع دراسة مستقلة فى مؤلف آخر إن شاء الله تعالى.

قال تعالى : ﴿ اللهُ لا إلهَ إلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ (١).

فالله سبحانه وتعالى مريد للكائنات، مدبر للحادثات، فلا يجرى فى الملك والملكوت، قليل ولا كثير، صغير ولا كبير، خير أو شر، نفع أو ضر، إيمان أو كفر، عرفان أو نكر، فوز أو خسر، طاعة أو عصيان إلا بقضائه وقدره وحكمه ومشيئته. لا يخرج عن مشيئته لفتة ناظر، ولا فلتة خاطر، بل هو المبدئ المعيد، الفعال لما يريد، لا راد لحكمه، ولا معقب لقضائه، ولا مهرب لعبد عن معصيته إلا بتوفيقه ورحمته، ولا قوة على طاعته إلا بمعرفته وإرادته (٢).

من خلال ما قدمنا نستطيع أن نقول أن هذا الكون الفسيح مسير بإرادة الحق سبحانه وتعالى وقائم بقدرته.

ولقد خلق الله سبحانه وتعالى للإنسان الحواس، فاللسان ليتذوق به، والعين ليبصر بها، والأذن ليسمع بها، والأنف ليشم به، وجعل لكل منها قدرة ومجال، وفى كل منها جمال لايدانيه جمال. وهذا الجمال كله ينطبع فى النفس فتتحرك إلى الكون فى شوق لاستقباله، وكأن هناك رابطة لاتنفصم بين هذا الكون الفسيح، والنفس الإنسانية. وكأن روح الإنسان، وروح هذا الوجود يتعانقان فى لقاء طويل.

قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾(٣).

سابعا : وحدة نظام الكون نتيجة لازمة لتوحيد الخالق :

أشار القرآن الكريم إلى هذا المبدأ فى معرض الرد على المشركين، مبينًا أنه لو حصل تعدد فى الآلهة، أى تعدد فى قيادة الكون لأدى بالضرورة إلى فساده، ثم طالبهم ببرهان من الكتب السماوية، إذ لا حجة لهم أمام هذا البرهان المنطقى.

قال تعالى : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ (٤).

(١) سورة : البقرة : آية : ٢٥٥.
(٢) عبد البارى محمد داود : الإرادة عند المعتزلة والأشاعرة، دراسة فلسفية إسلامية، ص : ١٥٦.
(٣) سورة : الملك : الآيات : ٢٣-٢٥. (٤) سورة : الأنبياء : الآيات : ٢١-٢٥.

فالكون الذى نراه بهذا النظام والتناسق يدل على أنه له إلهًا واحدا حكيما، جعله بهذا النظام والتنسيق، وقوام الكون السموات والأرض، ولو كان فيهما آلهة متعددة غير الله لفسد نظامهما، وانفرط عقدهما، إذ إن تعدد الأنظمة، وتعدد القوامة يلزم منه اختلاف كل نظام عن الآخر، وكل قائم على التنظيم عن الآخر، وهذا يؤدى إلى التضارب والفساد.

وقد جاء هذا المعنى بشكل أوضح فى قوله تعالى:

﴿ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (١).

وهذا النص يذكر من نتائج تعدد الآلهة، لو حصل فى هذا الكون أمرين :

أولهمـــا : استقلال كل إله بما يخلق، أى : انفراده بمخلوقاته ومنعها من الانسجام والتناسق مع المخلوقات الأخرى. ولو كان فى الكون إله للمطر، وآخر للرياح، وآخر للبحر، وآخر للشمس كما زعم الوثنيون؛ لما حصل هذا التنسيق بين الرياح والشمس والبحر، ولما أثارت الرياح والشمس بخار الماء ليصبح سحابا تسوقه الرياح إلى أرض فاحلة فتحيا بالمطر بعد موتها.

وثانيهما : تنازع الآلهة وتعاليها بعضها على بعض لأن العلو من صميم معانى الألوهية، فلا يليق بإله أن يعلوه إله آخر، وهذا ما نرى عكسه فى الكون المنسق المنظم الدال على وحدانية خالقه جل علاه.

تعالى ربنا عن قول القائلين وزيغ الزائغين علوا كبيرا.

وهكذا تصبح وحدة تنظيم الكون نتيجة هامة ولازمه لتوحيد الخالق يعبر عنها المؤمن فى علاقاته بالأشياء والأفعال تعبيرا مفردا فلا يحاكى ولا يقلد غيره، ولا يتكلف فى انطباعاته بما يشاهده أو يراه أو يتذوقه من قيم جمالية أو موضوعات خارجية

فالمؤمن صاحب تجربة روحية ذوقية يستشعر الوجود من حوله من حقيقة التوحيد، والظفر بهذا المعنى هو قمة الإيمان. ويأتى التذوق مقترنا بالتوحيد، فكلما ازداد المتذوق ذوقا كلما كان ذلك دليلا على تكامل الإيمان(٢).

يقترن التذوق إذن بتوحيد الربوبية، وهو علاقة على أن المؤمن يشعر بالطمأنينة. وهذا الشعور الذى يفيض به قلب المؤمن يجعله يتمثل كل شىء على مشاكلة صفة من صفات الله.

(١) سورة المؤمنون : آية ٩١.
(٢) حسن الشرقاوى : الذين ينكرون القدوة (الإسكندرية : مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٤م) ص : ٥٠.

لكل موضوع جمالى يعرض أمامه يمكن أن يتيمه ذوقا عن طريق مشاكلته لتناسق والتناسب والجمال الذى يراه فى بديع خلق الله وآياته فى الكون والخلق والإبداع والحياة[1].

وهنا ينبغى أن نوضح أن الإنسان إذا بلغ كماله الروحى فأصبح من أهل القرب والمعرفة انكشف له الكون بقواه وعوالمه، بل أصبح الكون كله بقواه وعوالمه، وطاقاته وعجائبة طوع أمره الروحى.

تلك هى مرتبة المعرفة الكونية التى صورها لنا إبراهيم بن أدهم بقوله :

« نحن فى لذة لو عرفها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف».

وكلما كوشف الإنسان عن جمال الكون، أو لمس سراً من أسرار القوى، أو أحاط علما بخصيصة من خصائص الطاقات المضمرة فيما خلق الله، زاد إيمانه بربه، وصلته بخالقه، وقربه من بمدعه وموجده.

يقول إقبال : « والحق أن كل طلب للمعرفة هو فى جوهره صورة من صور الصلاة، والتأمل فى الطبيعة تأملاً علمياً هو نوع من المعرفة كأنه يؤدى الصلاة لمبدع الأكوان»[2].

والإنسان وهو يحاول فهم هذا الكون والإحاطة ببدائعه وعجائبه وطاقاته وكنوزه لايحركه الطمع المادى وإنما يبعثه ويحركه روح التعبد والمحبة إذا استقام على المنهج الإسلامى.

والمحبة هى قوام كل شىء فى المنهج الإسلامى، فالكون خلق بالحب، ويدرك بالحب، والله جل جلاله لا تدركه الأبصار ولا تحيط به العقول، ولكن الإنسان يوقد مشاعل الحب فى قلبه ووجدانه وروحه فيمتطى بذلك المعراج الأكبر الذى يقربه من ربه. ومن حبه لربه سبحانه تنبثق محبته للكون.

---

[1] المرجع السابق، نفس الصفحة.
[2] عبد الباقى سرور : من أعلام التصوف الإسلامى، ص : ٦٩.

الفصل السادس

تصنيف الآيات الكونية

لقد تحدثنا فى عرضنا السابق عن الآيات الكونية، ويدل ما مضى من سالف قولنا على أن موضع الآيات الكونية، أى العناصر التى يستدلّ بها على صفات الله وتوحيده من سماء وأرض ونجوم وبحار وأنهار . . . ليست مقصودة ولا مطلوبة لذاتها[1].

فالله سبحانه وتعالى ـ نصب لك ـ أيها الإنسان ـ الكائنات لا تراها بل لترى فيها مولاك ومولاها.

وقد قيل فى ذلك :

ما أبنيت لك العوالم إلا ... لتراها بعين من لا يراها
فارق فيها رقى من ليس يرضى ... حالة دون أن يرى مولاها

إن النفوس الطموحة كلما ازدادت علما ازدادات شعورا بالنقص، والكمال لله وحده[2].

من هنا قال الشاعر :

هو الحى والقيوم جل جلاله ... فعظم عظم الكبرياء رداه
أغنى وأقنى واستنار بنوره ... كل الكيان فجوة فسماه
فالأرض مشرقة بنور جماله ... والفضل منقطر بهدى هداه

كما قال :

سبحان من جلت صفات كماله ... بكماله وجماله وجلاله

ولما كان موضوع هذا المبحث هو تصنيف الآيات الكونية فإن ما يهمنا فى هذا المقام أن نوضح الأسلوب النفسى والتربوى الذى يترك أثره فى النفوس عندما تتجلى لها هذه الدلالات والآيات الكونية.

---

(١) عبد الرحمن النحلاوى : من أساليب التربية الإسلامية، التربية بالآيات، مرجع سابق، ص : ٢١٤.
(٢) عبد الحليم محمود: المدرسة الشاذلية، ص : ٢١.

من الضروري أن تتعرض هذه الدراسة لهذا اللون من التصنيف، وذلك لأن يمكن أن يخطر على بال العلماء الكونيين.

ينبغي أن نوجه الانتباه عندما نقوم بهذه الدراسة فلا بد من أن يصاحبنا المنهج الكتاب والسنة وذلك بخلاف المناهج وفلسفات التربية الأخرى [1].

تقوم أصوله السلوكية المأخوذة من سلوك الأنبياء والأصفياء[2]. وعليه يمكن الإسلامي غايته أن يتحقق بالكتاب والسنة قولا وعملا وحالا وفي هذا المقام ما تتعرض له تصنيفات العلماء الكونيين، لنبين ما يمكن أن تتعرض له من خشي أن تنحرف بمصنفها عن النهج القرآني. ولنضرب الآن أمثله على ما نحن

حسيف حسب العلوم الكونية المعاصرة:

علماء الطبيعة المسلمون في هذا العصر على بيان ما يسمونه:

في القرآن الكريم)، وركبوا لذلك كل صعب وذلول، فسروا الآيات تفسيرا علميا مسايرين النظريات والقوانين العلمية الحديثة في علوم الطبيعة بعضهم، وأساء بعضهم من حيث يريد الخير، وكم من مريد للخير لا خصب يغرى بالبحث والتوسع؛ فالقرآن ما يزال يشير إلى أسرار كونية كتشفها الإنسان إلا في القرنين الماضيين، أو منذ عصر النهضة الأوربية، أي بعد ألف عام أو أكثر؛ وزاد في حماسة الباحثين المجددين لخوض غمار هذا أن يجاروا، أو يباروا النهضة الأوربية في مجال البحوث الطبيعية، أو النقص أو الهزيمة أمامها [3].

مع مثل هذه البحوث فإن أحدا من هؤلاء الباحثين لم يصنف الآيات الكونية الموضوعية؛ لأن عرضها القرآني لا يساعد إطلاقا على ذلك، إذ قلما تجد يقتصر على آية يمكن أن تصنف في علم واحد من هذه العلوم، فالقرآن آيات الله في السماء والأرض والبحار والرياح والسحاب في آية أو

محمد داود: القدوة الصالحة وأثرها في تنشئة الطفل. (القاهرة: دار النهضة العربية، ...

الوهاب: الطبقات الكبرى (القاهرة: مطبعة صبيح، د. ت) جـ١، ص: ٤٠.
النحلاوي: من أساليب التربية الإسلامية، التربية بالآيات، ص: ٢١٥.
ص: ٢١٥-٢١٦.

المنزلقات التي تخشى من مقارنة الآيات الكونية بالعلوم الطبيعية (*):

ينبغي علينا أن نوضح في هذا الصدد أن الباحثين كانوا يأخذون نتفا من هذه الآيات الكونية، كلما لاح لهم جانب من الإعجاز العلمي فيها: ويبينون سبق القرآن إلى بيان ذلك السر، أو القانون الطبيعي الذي اكتشفه العلم الطبيعي مؤخرا.. ونحن لا ننكر فائدة هذه البحوث في إدخال المزيد من الثقة والاعتزاز بالإسلام إلى النفوس، وفي المساعدة على الدعوة إلى الدخول في الإسلام. ولكننا نحذر من منزلقات أهمها:

١ ـ من أكبر الزلات في هذا المجال أن تعتبر البحوث الطبيعية المعاصرة هي الأصل، وأنها هي الدليل على صحه القرآن، أو أن القرآن جاء موافقا لها. فكأن النتيجة تصبح: أنهم يحاكمون القرآن الثابت من عند الله ويحكمون عليه بموجب ما توصلت إليه عقول البشر القابلة للخطأ أو الصواب، فإن لم يحكموا عليه صراحة، حوروا معانيه، ولووا مقاصده إلى ما يوافق العقل والعلم في زعم هؤلاء الباحثين[1].

ولا يشفع لهم احتجاجهم بأن القرآن لا يمكن أن يناقض العقل والعلم، فالقرآن هو الأصل في الاستدلال على معطيات العقل السليم والعلم الصحيح، وفهم القرآن لا يكون إلا على ضوء ما صح من تفسير الرسول ﷺ والصحابة والتابعين، وفي حدود مفاهيم اللغة العربية وقواعدها. وليست هذه الشنشنة جديدة على الفكر الإسلامي فقد حمل المعتزلة ومن تبعهم لواءها منذ عدة قرون أو أكثر ورد عليهم علماء السنة والجماعة منذ الإمام أحمد بن حنبل إلى ابن تيمية إلى محمد بن عبد الوهاب وغيرهم كثير رحمهم الله جميعا وجزاهم عن الأمة خيرا[2].

٢ ـ ومن هذه الزلات أن ينظر إلى الآيات الكونية في القرآن بمنظار الفكر الأوربي أو الإغريقي دون الانتباه إلى أن نظرة الإسلام إلى الكون تختلف في جذورها عن نظرة علماء الطبيعة الغربيين.

لذلك سوف نوردها هنا لبيان الفرق بينها وبين المنطلقات الغربية لبحث الظواهر الكونية أو الطبيعية كما يسمونها.

مقارنة بين النظرة الإسلامية والغربية إلى الكون:

يمكننا أن نوضح المقارنة بينهما في النقاط التالية:

(*) لقد أفاض الباحث عبد الرحمن النحلاوي في تحليل هذه الفكرة تحليلاً واضحا.
(١) عبد الرحمن النحلاوي: من أساليب التربية الإسلامية، التربية بالآيات، مرجع سابق، ص: ٢١٦.
(٢) المرجع السابق، ص: ٢١٦-٢١٧.

أولا : يقوم التصور الإسلامى للكون على أساس أنه مخلوق لله، وبهذا حرر الإسلام العقل من العبودية لقوى الكون. وهذا ما أوسحناه فى صفحات سابقة من هذا البحث.

ولكن البحوث العلمية، التى كتبها علماء الغرب عن قوى الكون وظواهره، تقوم على خلفية ومنطلقات عقائدية، تخالف هذا التصور الإسلامى، المنبثق عن عقيدة التوحيد، ونستطيع أن نلخص تلك الخلفية أو المنطلقات العقائدية المشتركة بين كل فروع المعرفة والثقافة الغربية بقولنا:

الوجود كله فى زعمهم، منحصر فى الطبيعة والإنسان، والإنسان جزء من الطبيعة أو نوع من أنواعها، والطبيعة وجدت هكذا بنفسها، وكذلك سننها أو قوانينها، فهى حسب رأيهم مقدرة بنفسها من غير مقدر لها . . وليس فى هذه الفلسفة الغربية أو التصور الوجودى للكون - كما ترى - مكان للآله وصلته بالإنسان وبالكون ونظامه السببى، ولا للوحى والنبوات، ولا للجزاء والحياة الآخرة، ولا لسائر الغيبيات [1].

وفى هذا تأليه للطبيعة، ولو أنكر المفكرون، أو دفعوا هذه التهمة، لأن كون الإنسان جزءا من الطبيعة وحلقة من سلسلة وجودها يعنى لا محالة، أنها هى التى أوجدته، ما داموا لايعترفون بموجد لها ولا للإنسان [2].

فإما أن يصدر فى رأيهم هذا عن تناقض فى التفكير؛ إذا أن الطبيعة وطاقاتها فى تناقض مستمر، وهى باعترافهم آيلة للاضمحلال يوما ما، والتناقض القابل للاضمحلال لا يكون إلها، ولا يمكن أن يوجد نفسه، فضلا عن أن يوجد الإنسان! والإنسان أرقى من الطبيعة وهو الذى يسخر كثيرا من قواها ويستخدمها والمسخر عاجز عن إيجاد من يسخره ويستخدمه، لأن الأقل كمالاً لا يوجد من هو أكمل منه وفاقد الشىء لا يعطيه؛ وإما أن يصدر عن عقم فى التفكير إذ ينسبون وجود الكون والإنسان إلى المصادفة[3].

ثانيا : إن سنن الكون وقوانينه قد قدرها الله بمقادير محددة. وفقا لحكمة وحسبان إلهى، هذه وجهة نظرا لإسلام حول نواميس الكون وقوانين الطبيعة.

ولكن العلوم الغربية عندما تتكلم عن الطبيعة فهى حسب رأيهم وجدت هكذا بنفسها، وهى مقدرة بنفسها من غير مقدر، وهذا يخالف أبسط المبادئ العقلية وأعمقها فى فطرة الإنسان، مبدأ لزوم وجود محدث لكل حادث، ومنظم لكل نظام، ومقدر لكل تقدير، وحاسب لكل حسبان.

(١) نفس المرجع السابق، ص : ٢١٧-٢١٨.
(٢) عبد الرحمن النحلاوى: من أساليب التربية الإسلامية، التربية بالآيات، ص : ٢١٧.
(٣) المرجع السابق، ص : نفس الصفحة.

وهنا ينبغى أن نوضح موقف الغرب هذا - أو إن شئت فقل الثقافة الغربية - هذا من سنن الكون، دليل آخر على تأليههم للطبيعة، حتى أن ما وصل إلينا من علومهم التى ترجمت إلى لغتنا ما تزال تردد مثل قولهم إن الطبيعة زودت الماء بقانون الأوانى المستطرقة، والأجسام الطافية على سطح الماء بقانون الطفو؛ وهكذا دواليك، فالطبيعة فى زعمهم أوجدت قوانينها بنفسها [1].

ثالثا : جميع الحوادث الكونية من دوران الشموس والكواكب وجريانها، إلى انفلاق الحبة فى التراب. إنما تجرى بقدرة الله وفعله، وكذلك قيام السماء والأرض وتماسكهما وبقاؤهما إلى أجل مسمى. ولقد أوردنا الأدلة على ذلك فى الصفحات السابقة.

ولكن علماء الغرب ينسبون إلى الطبيعة كل هذه القوى. وما يزال علماء الطبيعة الغربيون، ومن تبعهم من المسلمين ممن ترجموا علومهم ودرسوها، ثم درسوها للأجيال يقولون مثلا إن الطبيعة وهبت جذور النبات قدرة على شق التراب، وأوجدت قوة الجاذبية فى الشمس والأرض والقمر، ووهبت الحيوان كذا وكذا من الغرائز، يهتدى بها إلى رزقه وبقائه . . وهذا يؤدى إلى الكفر بالله، وتأليه الطبيعة [2].

رابعا : تنطلق النظرة الإسلامية إلى الكون من أن وحدة نظام الكون، ووحده قوانينه وانطباقها فى كل المتشابهات، كل ذلك إنما نشأ من وحدة الخالق المسير المدبر لأمور هذا الكون، والمقدر الحاسب لكل نواميسه وسننه . . . وقد بادر علماء الغرب إلى الأخذ بمبدأ وحدة نظام الكون، ولكنهم كما رأيت كفروا بعقيدة التوحيد وأنكروا قيومية [*] الله على الكون؛ وتنظيمه وتدبيره لكل أموره؛ مع أن ماتين المقولتين طرفان لموضوع واحد، ومن أقر بأحدهما لزمه الإقرار بالأخرى، ومن قصور بعض العقول أن تقر بإحداهما وتنكر الأخرى. فالكون المسير المدبر فى جميع عناصره وآفاقه بنظام واحد محكم متناسق، لابد له من خالق واحد حكيم مدبر مبدع منظم . . .

وهكذا يمكن القول بأنه لا يضير الباحث، أيا كان تصنيفه أن يطرق هذا المجال فى بحث الآيات الكونية؛ ما دام فى نطاق هذه النظرة الإسلامية إلى الكون والإنسان والحياة، وما دام يحاذر الوقوع فى أحد المزالق التى انحدر إليها الباحثون الغربيون، وما دام هدفه إظهار الحق والبرهان عليه، وتربية النفوس على الإقرار به والعمل بمقتضاه . . . ولكى لا نظلم علماء

(١) نفس المرجع السابق، ص : ٢١٨-٢١٩.
(٢) نفس المرجع السابق، ص : ٢١٩.
(*) سوف نبسط للقيومية دراسة مستقلة فى مؤلف آخر إن شاء الله تعالى.

الغرب جميعا فإننا نقرر ما ذكرناه من اتجاهاتهم الإلحادية هو ما اشتهر عن أكثرهم وما يدل عليه ما وصل إلينا من بحوثهم عن الكون، وهذا لا يمنع أقلية من المنصفين مثل (ايرل تشستر) عضو الجميعة الرياضية الأمريكية الذى قال:

« وهنالك ظواهر عديدة تدل على وحدة الفرض فى هذا الكون، وتشير إلى أن نشأته والسيطرة عليه لابد أن تتم على يد إله واحد لا آلهة متعددة»[1].

نخلص مما تقدم أن لله فى الخلق والتكوين والإبداع، وتصريف شؤون الكون وتنظيم حياة الأقوام والأمم والمجتمعات، سننا مطردة تتصل فيها الأسباب بالمسببات، لاتتبدل ولا تتحول محاباة لأحد من الناس.

(١) عبد الرحمن النحلاوى: من أساليب التربية الإسلامية، التربية بالآيات، ص: ٢١٩-٢٢٠.

الفصل السابع

الجمـــال الكونـــى

التعريف بالجمال:

الجمال هو الحسن، وجمل جمالاً: حسن خلقاً فهو جميل، والصبر الجميل الذى لا ذم فيه ولا جزع[1].

قال تعالى: ﴿ ولكم فيها جمال ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ فصبر جميل ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ فاصفح الصفح الجميل ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ سراحاً جميلاً ﴾[5].

وهنا ينبغى أن نوضح أنه لا يستطيع أحد أن ينكر الحسن والجمال للمحسوسات وذلك لأن كل جمال محبوب عند مدرك الجمال، وذلك لعين الجمال، لأن إدراك الجمال فيه عين اللذة، واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها. ولا تطغن أن حب الصور الجميلة لا يتصور إلا لأجل قضاء الشهوة، فإن قضاء الشهوة لذة أخرى قد تحب الصور الجميلة لأجلها، وإدراك نفس الجمال أيضًا لذيذ فيجوز أن يكون محبوبًا لذاته.

وكيف ينكر ذلك والخضرة والماء الجارى محبوب لا ليشرب الماء وتؤكل الخضرة، أو ينال منها حظ سوى نفس الرؤية ؟!

وقد كان رسول الله ﷺ يعجبه الخضرة والماء الجارى.

(١) محمد إسماعيل إبراهيم: قاموس الألفاظ والأعلام القرآنية (القاهرة: دار الفكر العربى، ١٣٨١هـ) ص: ٦٩.
(٢) سورة: النحل: آية: ٦.
(٣) سورة: يوسف: الآيتان: ١٨، ٨٣.
(٤) سورة: الحجر: آية: ١٨٥.
(٥) سورة: الأحزاب: الآيتان: ٢٨، ٤٩.

فالطباع البشرية تستمتع باستلذاذ النظر إلى الأنوار والأزهار، والطيور الجميلة الألوان الحسنة النقش المتناسبة الشكل، حتى إن الإنسان لتتفرج عنه الغموم والهموم بالنظر إليها لا لطلب خط وراء النظر. فهذه الأسباب ملذة، وكل لذيذ محبوب، وكل حسن وجمال لا يخلو عن إدراك لذة. ولا ينكر حصول اللذة بإدراك حسنها، وإنما ينكر ذلك فى غير المدرك بالحواس [1].

معنى هذا أن الحسن والجمال موجود فى غير المحسوسات. إذ يقال: هذا خلق حسن، وهذا علم حسن، وهذه سيرة حسنة، وهذه أخلاق جميلة.

والأخلاق الجميلة يراد بها العلم، والعقل، والعفة، والشجاعة، والتقوى، والكرم، والمروءة، وسائر خلال الخير، وشىء من هذه الصفات لا يدرك بالحواس الخمس، بل يدرك بنور البصيرة الباطنة، وكل هذه الصفات الجميلة محبوبة والموصوف بها محبوب بالطبع عند من عرف صفاته.

وهكذا نجد فى أنفسنا بالضرورة تمييزاً بين الجميل من الأشياء والقبيح منها.

وانفعال أنفسنا من الجميل بهجة أو إعجاب، ومن القبيح اشمئزاز أو جزع [2].

وقد قيل: العيون ثلاثة: عين ترى ما قبح، وعين ترى ما حسن، وعين ترى ما قبح وما حسن [3].

كما قيل: «احذر أن يركن قلبك لمن يعصى الله ولو تجمل لك، فإنه إنما تجمل لك خائنًا، أو يتستر طائعا، فإن أمن أو يئس أغضب الله فيك غير مبال، ولديها يتعسر على الإنسان أن يدفع عن نفسه ما رماه به من الشر، وأقل ما يرميك به الكذب عليك الذى يشينك دنيا وآخرة وجاها عرضا» [4].

ولعلنا نلاحظ على هذا القول السابق أن صاحبه ربط بين الجمال والطاعة لله سبحانه وتعالى. وهناك فرق بين الجمال المصطنع بالطاعة وبين التجمل المصطنع الذى يركن صاحبه إلى المعصية.

ولعلنا نتلمس موقفا مفسراً للجمال. وأكثر المؤلفين تحليلاً لهذا الموقف هو الإمام أبو حامد

(١) الغزالى، أبو حامد: المحبة والشوق والأنس والرضا (القاهرة: مطبعة الحلبى، ط١، ١٣٨٠هـ) ص: ١١.

(٢) محمد عبده: رسالة التوحيد (القاهرة: مكتبة القاهرة، ط١٨، ١٣٨٥هـ) ص: ٦٧.

(٣) أبو العزائم: محمد ماضى: من جوامع الكلم (القاهرة: دار المدينة المنورة، ط٣، ١٤٠٨هـ) ص: ١١.

(٤) المرجع السابق، ص: ٢٦.

الغزالى فى كتابه: «إحياء علوم الدين» فبعد أن فصل القول فى السماع وبين أن السماع يثمر حالة فى القلب تسمى «الوجد»، وأن الوجد يؤدى إلى تحريك الأطراف بحركات غير موزونة تسمى «الاضطراب»، وبحركات موزونة تسمى التصفيق والرقص، نراه يستطرد فيبين أن كل سماع إنما يتم عن طريق قوة إدراك، وقوى الإدراك الحسية هى الحواس الخمس، وأما القوى الباطنة فمنها العقل والقلب، ولكل قوة من هذه القوى تلذذ بموضوعها إذا استحق هذا الموضوع هذا الشعور باللذة.

والشعور باللذة إنما يتم بعد إدراك لما فى الموضوع من جمال فنميل إليه ونحبه ونلتذ به [1].

ويعرج بنا الغزالى فيقول: «واعلم أن كل جمال محبوب عند مدرك ذلك الجمال، والله تعالى جميل يحب الجمال. ولكن إذا كان الجمال يتناسب الخلقة وصفاء اللون أدرك بحاسة البصر. وإن كان الجمال بالجلال والعظمة وعلو الرتبة، وحسن الصفات والأخلاق وإرادة الخيرات لكافة الخلق وإفاضتها عليهم على الدوام إلى غير ذلك من الصفات الباطنة أدرك بحاسة القلب.

ولفظ الجمال قد يستعار أيضا فيقال: إن فلانا حسن وجميل ولا تراد وصورته. وإنما يعنى أنه جميل الأخلاق، محمود الصفات، حسن السيرة، حتى يحب الرجل بهذه الصفات الباطنة استحسانًا لها كما نحب الصورة الظاهرة...».

ويستطرد الغزالى فيؤكد: «أن لا خير ولا جمال ولا محبوب فى العالم إلاّ وهو حسنة من حسنات الله وأثر من آثار كرمه، وغرفة من بحر جوده، سواء أدرك هذا الجمال بالحواس أو بالعقول. وجمال تعالى لا يتصور له ثان لا فى الإمكان ولا فى الوجود [2].

من هذا النص الرائع تظهر عبقرية الإمام الغزالي عندما عرج بنا إلى ساحة الذوق ليبين لنا موقفه من الجمال وتفسيره. فهو:

أولا: ربط سائر أنواع الجمال بالجمال الإلهى، وكأن الجمالات الجزئية سواء أكانت حسيه أم عقلية إنما تشارك فى الجمال الإلهى وترتبط به لأنها أثر من آثاره.

وهذا الموقف يعود بنا إلى أفلاطون حينما يربط الجمالات الجزئية بمثال الجمال بالذات.

لكن الذى ينبغى الأشارة إليه فى هذا المقام أن أفلاطون يبدأ بالجمال الحسى الذى هو

(١) محمد على أبو ريان: فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجملية (الإسكندرية: دار الجامعات المصرية سنة ١٩٧٧م) ص: ١٩-٢٠.

(٢) محمد على أبو ريان: فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجملية، ص: ٢٠.

اشتهاء، ثم يصعد درجة بواسطة الشوق إلى التجرد عن الحسيات . . إلى المعقولات . . ومن المعقولات إلى الكليات المجردة [1].

والتأمل الأفلاطونى عندما يستهدف أن يرقى فى سلم الجمال درجة بعد درجة . فعليه أن يتجاوز الشهوة الحسية ويسمو بها عن حدود الحس، فيأمل أن يحظى بدرجة أعلى ، أكثر وحدة وانسجاما وتناسقا وترابطا . أى أنه يتجاوز الجمال الجزئى ليصل إلى جمال النفس، ثم إلى جمال النفوس، مستخدما فى ذلك العقل التأملى .

أى أنه عن طريق استخدام الذهن يتعالى عن الواقع فى تأمل سلبى، قاصدا ذلك متعمداً الوصول إلى مبتغاه . وكأن لهذه الرحلة السابحة محطات فى الفضاء، ومواقف يقف عندها ثم إنه يدبر الأمر وكأن بيده الأمر والنهى .

أما الموقف عند الإمام الغزالى وغيره من العارفين فيرون أن المتوجه إلى ذى الجمال والجلال قد أسلم نفسه لله سبحانه وتعالى، وأسلم تدبيره معه، وقد ترك كل شىء ولم يأمل فى شىء . إنه استغراق بلا حدود، واستسلام بلا شروط، وانسلاخ عن خطوط النفس بلا تعمد، واستغراق بالكلية فى المعية الإلهية . إنه ميل القلب برعاية الحق . إنه موافقه بدون حدود، وإخلاص بلا رياء، وطاعة بلا اعتراض، وصدق بلا تكلف . . عمل لله فيما أمر . . ونهى عما نهى . . ورضا بما حكم وقدر، فلا يشهد العبد فى هذه السكينة غير خالقة، ولا يشرك فى سره أحد سواه، ولا يقبل خاطر إلا خاطر الحق تعالى [2].

نعود فنقول : ليس فى الترحال عند المسلمين عقل الكترونى أفلاطونى . ينظم هذه السياحة الروحية، ويحدد المسافات ويبين المحطات، وليس هناك سائق يقطع الرحلة فى خطوات منتظمة، ويسير وفق دليل مطبوع، ومنهج مرسوم ، ومذهب مقرر، إنما هى رحلة محبة، والمحبة سكون للنفس بلا اعتراض . . إنه الطمأنينة الغامرة ضد الحركة وضد النقص وضد العجز والضعف والاضطراب . الطمأنينة هنا الحاضرة من نور الجمال المطلق .

فالسالك الحق إلى ذى الجمال والجلال يتجرد بظاهره عن الأغراض، ويتجرد بباطنه عن الأعواض . . ولا يطالب بعرض من الأعراض . . ولا يأمل عند تركها عوضاً لا عاجلاً ولا آجلاً .

لذلك يرى العارفون أن الطريق للجمال الحق هو مفارقة أهواء النفس وشهواتها وهنا يكون القلب الإنسانى قابلاً للعطاء الرحمانى، ملهماً بالجمال الربانى .

(١) المرجع السابق، ص : ٨ـ١٣ .

(٢) حسن الشرقاوى: فلسفة الجمال، طبعة سنة ١٩٧٨ بدون بلد نشر وسنة نشر ص : ٥٧ـ٦٢ .

ثانيا : ميز الغزالى بين طائفتين من الظواهر الجمالية : طائفة تدرك بالحواس وهذه تتعلق بتناسق الصور الخارجية وانسجامها سواء أكانت بصرية أم سمعية أم غير ذلك .

وأما الطائفة الثانية فهى ظواهر الجمال المعنوى التى تتصل بالصفات الباطنة وأداة إدراكها القلب ؛ فالقلب إذن أى الوجدان هو قوة إدراك الجمال فى المعنويات . وأيضا نجده ميز بين القلب والعقل . وفى نظره أن المعقولات تولد فى العقل، وأن هذه اللذة مرجعها إلى جمال المعقول، وفرق بين جمال المعقول وجمال الصفات الباطنة التى يستشفها الوجدان . وعلى هذا الأساس نستطيع تجوزاً أن نفسر موقف الغزالى فى نظرته إلى التذوق الجمالى بأنه يشير إلى ظواهر جمالية ثلاث : إحداهما : حسية، والثانية : وجدانية ، والثالثة : عقلية .

ومن هنا يشهد المحققون الكون وما فيه من مظاهر الصفات والأسماء، فآمنوا بوحدته، وشاهدوا جماله الظاهر فى روض الكمال الإلهى [1].

فالكون مدرسة لتنقية النفس وتهذيب الخلق، وإرشاد إلى معنى الجمال .

إنَّ النظرة العميقة بالتأمل والتدبر فى هذا الكون العظيم كفيلة بأن تغذى مشاعرنا بمعان الجمال اللامتناهية، وأن توسع مفهومنا للفنون الحقة، فلا تجعلنا ننحصر فى الجمال الحسى المحدود، وإنما تحملنا على الانطلاق إلى تأمل الكون لكل ما فيه من جمال لنستشعره ونستمتع به ونعقله . وهذا هو ما يهدف إليه الإسلام .

فالإسلام لاينهى عن جمال الجسم، وجمال الحس، وجمال الجنس، فكل منها جميل، ولكن على الإنسان ألا يتوقف عند هذه الحدود، بل عليه أن يكتشف ما فى داخل نفسه من نظام . وهذا النظام إنما يتحدد فى ألا يتعدى الفطرة السليمة الموجودة فى الكون .

من هنا نستطيع أن نقول : لا يمكن أن تكون حياة الإنسان جميلة إلاَّ إذا تناسقت وترابطت مع هذا الكون العظيم، ففوضى الإنسان ليست بجمال، إنما الجمال فى الإنسان إذا كان فى نظام .

لكن الذى ينبغى التفطن له هو أن كل ما توهمه قلبك، أوسنح فى مجارى فكرك ، أو خطر لك فى معارضات قلبك ـ من حسن أو بهاء، أو أنس أو ضياء، أو جمال أو قبح، أو نور أو شبح، أو شخص أو خيال ـ فالله تعالى بعيد من ذلك كله، بل هو أعظم وأجل وأكبر [2].

وقد يطلق الجمال على الحق سبحانه وتعالى كنعت من نعوت الرحمة والألطاف [3].

(١) أبو العزائم، محمد ماضى : شراب الأرواح من فضل الفتاح (القاهرة: دار المدينة المنورة، ط٣، ١٤٠٧هـ) ص ١٦١ .

(٢) السلمى، أبو عبد الرحمن : طبقات الصوفية (القاهرة : مطابع الشعب، ١٣٨٠هـ) ص : ٤٧ .

(٣) حسن الشرقاوى : ألفاظ الصوفية ومعانيها (الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية، د.ت) ص: ١٢٤ .

والقلب مخلوق لنظر جمال الحضرة الإلهية. فمن اجتهد فى هذه الصفة فهو عبد حق من غلمان الحضرة [1].

ومعنى هذا أن النظرة إلى تذوق الجمال لم تكن تستند إلى الإدراك الحسى فحسب بل كانت ترتبط اللذة بما هو جميل بإدراك ذهنى يكشف عن جمال المضمون.

فحكم المؤمن على الموضوع الجمالى لا يتبع فيه هوى نفسه أو إرضاء شهواته أو إشباع مطالبه الحسية، إنما حكمه على القيم الجمالية تنبع من تذوقه لتوحيد الربوبية وما يقترن بها من آيات وبدائع وما تشتمل عليه من تناسب وتناسق وترتيب وانسجام.

إنه يربط فى تذوقه للموضوع الجمالى بين عقله الراشد وقلبه المسافر فى ملكوت الله. فإذا ما شاكل الموضوع الجمالى جمال الله ونحى نحوه لذلك فإن المتذوق فى تناسبه وانسجامه يرضى عنه برضا الله ويحبه بحب الله.

ومن هذا المنطلق يأتى حكم المتذوق إن كان صادقًا أو بعيدًا عن الصواب. فإذا كان العمل الجمالى فى صورة تحاكى بديع خلق الله فإنه يمتدح هذا العمل ويثنى على صاحبه ويشهد له بالصدق فى التعبير والتناسب والتناسق والنظام فى ذلك العمل الفنى.

هناك إذن علاقة بين المتذوق والفنان والموضوع الجمالى ويمكن أن نسميها بالرابطة الفنية، ذلك أن كلاً من الفنان والمتذوق يشربان من نبع لا ينضب أبدًا وهو توحيد الربوبية، فكل منهما يستلهم الحقيقة الجمالية من جمال الله ومن نعم الله ومن بديع خلق الله.

والتوحيد من جهة ثانية يتعلق بالألوهية كما يتعلق بالربوبية. فإذا كان المتذوق والفنان ينظرا إلى العمل الفنى من خلال توحيد الربوبية فيثمر زهورًا طيبة وثمارًا يانعة من ثمار الله، فإنه من ناحية أخرى يؤدى الفنان عمله من خلال خشية الله، وكذلك الأمر بالنسبة للمتذوق فإنه يصدر حكمه على القيم الجمالية من خلال ورعه وخشيته لله فلا يتجنى ولا يتجاوز حكم الله. فالعمل الفنى يرتبط بتوحيد الربوبية والاحساس الجمالى بالرحمة والعفو والجود الإلهى، كما يقترن بتوحيد الألوهية وذلك باحترام أمر الله والخوف من وعيده.

فالفنان بين وعد ووعيد، ورجاء وخوف، وجمال وجلال، عندما يؤدى عمله الفنى أو يتذوقه. وإن القيم الجمالية الرائعة لا يمكن أن تكون مشاكلة لبديع خلق الله وللناموس الكونى محاكاة لبديع خلق الله وحكمه البالغة وحججه الدامغة.

(١) الغزالى، أبو حامد: الجواهر الغوالى، كيمياء السعادة ضمن الرسائل (القاهرة: مطبعة السعادة الطبعة الأولى، ١٣٥٣هـ) ص: ١١.

صلة الإنسان بالله والكون:

إن الهدف الرئيسى للقرآن الكريم هو أن يوقظ فى نفس الإنسان شعورًا أسمى بما بينه وبين الخالق وبينه وبين الكون من علاقات متعددة حسبما يرى محمد إقبال [1].

والآن نبحث عن أروع صور الجمال فى تلك الفلسفة الإيمانية التى تفجرت ينابيعها فى العارفين وانبثقت من علاقات الإنسان بالكون الفسيح الجميل الحى المسبح، الذى يعيش فى أحضانه ويحيط به إحاطة مشاركة وانفعال واستجابة ومودة.

ومن صلته بمبدع الكون وموجده الكبير المتعال، الرحمن الرحيم، رب كل شىء ومليكه المهيمن، المتجلى، المنعم الودود، الظاهر والباطن، نور السموات والأرض، قيوم كل شىء فلاشك أن هناك فطرة سليمة فى باطن النفس الإنسانية، وهذه الفطرة تفضى إلى معرفة الجمال وتستشعر به، وتستجيب له، وتستمتع به.. وهذا هو الإدراك الجمالى الذى ينصبغ به النفس بغير تعمد.

والجدير بالذكر فى هذا المقام لو أننا تعمقنا فى تقدير العقل الإنسانى للمعنى الجمالى نجد فى الحقيقة أن الذى يقدر، والذى يقيم ليس العقل فى حد ذاته، وإنما الفكرة السليمة التى تدرك إدراكا واعيا المعنى الجمالى من الوهلة الأولى، وهى بمثابة انقذاف إلى الوجدانية قبل عملية التفكير الذهنى.

فالخالق المبدع أنشأ كل شىء.. وبلا شىء، وجعله فى أبهى حلله، وأجمل صورة، وجعل الحواس للإنسان ليستشعر بها هذا الجمال المحيط به فى كل صورة، يتذوقه بما أودع الله فى نفسه من فطرة سليمة، ومن استعداد عجيب، ثم إن الإنسان بعد أن يتذوق المعنى الجمالى فى الوجود ليبدأ فى تقييمه وتقديره كمرحلة تالية باستخدام منطق العقل. قال تعالى:

﴿ والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ [2].

العلاقة بين المحبة والجمال الكونى:

يرتبط الإنسان أوثق الارتباط بالكون الذى يعيش فيه. من هنا نستطيع أن نقول: إنه لا يرى نفسه وحدة مستقلة، لا فى محيطه الإنسانى ولا فى محيطه الكونى إن سمح لى بهذا التعبير.

(١) طه عبد الباقى سرور: من أعلام التصوف الإسلامى (القاهرة: نهضة مصر، د.ت) ص: ٦٢.
(٢) سورة: النحل: آية: ١٢.

ولكن ينبغى الإشارة إلى أن الإنسان يجد نفسه مرتبطًا أوثق ما يكون الارتباط وأتمة بإخوانه فى الإنسانية، ويصور الحياة على تعدد ألوانها الكونية.

وكذلك يرتبط الإنسان بالكون برباط الفهم والمحبة والمودة.

وبعبارة أخرى نستطيع أن نقول: إن المحبة نوع من التجرد عن الحظوظ، والتجرد هنا هو عبارة عن تخلية النفس من الصفات المذمومة، وتحليتها بالصفات المحمودة.

والجدير بالذكر أن التجرد هنا ليس تجرد أفلاطونى يعبر عن الانطلاق عن الحدود والأشكال الجزئية إلى المثل اللانهائية. وهذا ما أوضحناه فى صفحات سابقة من هذا البحث. إنما التجرد هنا هو تجرد شوق دائم لا علة له، ولا بسبب علة.. إنما محبة غامرة بلا غرض أو تكلف.

وهذا التجرد هو الطريق العملى الذى يسلكه الإنسان الصادق ليتحقق بالمعاناة والمكابدة، والتحلى والبقاء مع الله.

الجمال الإلهى المطلق:

إذا كنا نتحدث عن الجمال فإن الجمال صفة أزلية لله عز وجل، بمعنى أن الجميل الحقيقى هو الله، وأن كل ما هو حسن فى الكون من مخلوقات، فهو مظهر مفيد، ومجلى معين، من مظاهر الجمال الإلهى المطلق.

ولما كان الحق تبارك وتعالى خلق الإنسان، فقد خلق الإنسان جميلاً، ولكن جماله حسن مقيد بالقياس إلى الجمال الإلهى المطلق.

ولقد أودع الحق سبحانه وتعالى فى فطرة الإنسان الإقبال على الجمال، والانجذاب إلى كل ما هو جميل، سواء أكان من صفات الجمال المطلق، أو تجليات له مفيدة بأسمائه وصفاته وأفعاله فى مظاهر الكون [1].

وهذا الانجذاب إلى الجميل فى ذاته أو فى تجلياته هو ما يعرف باسم الحب.

من هنا كان من الضرورى أن نسجل هنا العلاقة بين المحبة والجمال الإلهى.

يلاحظ المتأمل فى التاريخ الإسلامى بصفة عامة، والمتفحص حقائق الحب الإلهى ودقائقه ورقائقه بصفة خاصة، أن العلماء المسلمين المحققين المتحققين، إنما كانوا عارفين بالله بقدر ما

(١) محمد مصطفى حلمى: الحب الإلهى فى التصوف الإسلامى (القاهرة: دار القلم، ١٩٦٠م) ص: ٦٣.

كانوا محبين له، أو أنهم محبون لله بقدر ما هم عارفون[1].

وهذا راجع إلى أن موضوع المعرفة وأداتها وغايتها هى بعينها عندهم موضوع المحبة وأداتها وغايتها. ويتبين هذا فى وضوح وجلاء إذا تدبرنا كلا من التعريفات التى يحدد بها كل من المعرفة والمحبة: فنحن حين نقرأ تعريفات المعرفة وتعريفات المحبة، يخيل إلينا أننا إزاء لغتين تترجم إحداهما ما تعبر عنه الأخرى. فالعارف الذى يتحدث عن معرفته، إنما يتحدث عن المحبة ولكن فى لغة المعرفة، كما أن المحب الذى يتحدث عن حبه إنما يتحدث عن المعرفة ولكن فى لغة المحبة [2].

ولعلنا لو أردنا أن نظهر تطابق المعرفة والمحبة بمعناهما الإلهى، لما وجدنا خيراً من تعريف القشيرى للمعرفة تعريفا مستفيضا يكاد كل لفظ من ألفاظه ينطق به تعريف للمحبة كذلك.

فالمعرفة كما يقول القشيرى هى صفة من عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته، ثم صدق الله تعالى فى معاملاته، ثم تنقى عن أخلاقه الرديئة وآفاته، ثم طال بالباب وقوفه، ودام المتكافه، فخطى من الله تعالى بجميل إقباله، وصدق الله تعالى فى جميع أحواله، وانقطع عن هواجس نفسه، ولم يصغ بقلبه إلى خاطر يدعوه إلى غيره، فإذا صار من الخلق أجنبيًا. ومن آفات نفسه بريًا، ومن المساكنات والملاحظات نقيًا، ودام فى السر مع الله تعالى مناجاته، وكان فى كل لحظة إليه رجوعه، وصار محدثا من قبل الحق سبحانه بتعريف أسراره، فيما يجريه من تصاريف أقداره، يسمى عند ذلك عارفً وتسمى حالته معرفة... [3].

والمعرفة كما يصورها الغزالى هى معرفة حضرة الربوبية المحيطة بكل الموجودات: إذ ليس فى الوجود شىء سوى الله تعالى وأفعاله، والكون كله من أفعاله.

والحق أن للحقيقة العلية ذاتًا واحدة مطلقة لاتكثر فيها ولا تعين، كما أن لها أسماء وصفات وأفعالات متكثرة تتجلى بها أو تتجلى فيها الذات الواحدة المطلقة. والمجالى التى هى من تجليات الذات بمثابة المرائى، هى الموجودات التى تملأ أرجاء الكون، والتى يفيض عليها وجودها فيفيض الوجود على الكون.

وهذا يعنى بعبارة أخرى أن الله سبحانه وتعالى من حيث حقيقته واحد فى الذات والأسماء والصفات والأفعال، وأن ما ينسب إليه أو يحمل من ذات أو اسم أو صفة أو فعل،

(١) المرجع السابق، ص: ٦١-٦٢.
(٢) محمد مصطفى حلمى: الحب الإلهى فى التصوف الإسلامى، ص: ٦١-٦٢.
(٣) المرجع السابق، ص: ٦٣.

فإنما هو على سبيل المجاز، ذلك بأن كل أولئك إنما هو فى الحقيقة عكوس أنوار تجليات الذات والصفات والأسماء والأفعال فى مظاهر الكون.

وإذا كان الحسن المقيد معارا من الجمال المطلق، فقد ترتب على ذلك أن يكون الحب الإنسانى الخالص الموجه إلى الصور الكونية هو فى حقيقته الحب الإنسانى الإلهى الموجه إلى الذات العلية التى تفيض من جمالها المطلق على المظاهر الكونية، فإذا هذا الجمال المطلق يتجلى حسنا مقيداً فى هذه الصور الكونية أو تلك، وترتب عليه أيضًا أن يكون بين المحبين الذين يقف بعضهم مع هذه الصورة الحسنة أو تلك، لا يكاد يبرحها أو يجاوزها إلى ما وراءها من معنى الجمال الكلى، على حين يجاوز بعضهم الآخر كل حد وكل قيد طلبًا للجمال الأسمى.

هكذا يتضح لنا أن المحبة آخذة من الله تعالى قلب من أحب بما يكشف من نور جماله وقدس كمال جلاله [1].

فالمحبة هى أخذ الرب بقلب العبد بحيث لا يلتفت إلى غيره، أو أخذ جمال المحبوب بمحبة القلب حتى لا يجد مساغًا للالتفات لسوى المحبوب، فمتى وقع الالتفات نقص الحب على قدره [2].

وقد قيل: شراب الحب هو النور الساطع عن جمال المحبوب. فمن كشف له عن ذلك الجمال وحظى منه بشىء نفسا أو نفسين، ثم أرضى عليه الحجاب، فهو الذائق المشتاق [3].

وهكذا يتبين أن تذوق الجمال الحقيقى المطلق هو الغاية القصوى التى ينبغى أن يحققها كل مريد لتحقيق المثل الأعلى فى الحياة الروحية بصفة عامة، وفى المحبة الإلهية بصفة خاصة، وأن يسعى إلى تحقيق هذه الغاية القصوى بكل الوسائل الحسية والنفسية والخلقية والروحية. وهذا من شأنه أن يعين المحب على التصفية والتنقيه وعلى التخلية والتلية، فإذا مرآة قلبه قد صقلت، وإذا هو يشاهد على صفحة هذه المرآة الأنوار العلوية التى تنبعث من شمس الحقيقة العلية، وإذا هذه الأنوار العلوية تشهده جمالاً حقيقيًا واحدًا، ووجهًا إلهيًا لهذا الجمال الحقيقى الواحد. وتجبه عن كل مظهر من مظاهر ذلك الجمال الحقيقى التى تتعين فى هذا الوجه أو ذاك من الأوجه الحسان التى يتجلى فيها ويفيض عليها الجمال الحق، وهنالك ينظر المحب إلى الوجود بعين الجمع والوحدة لا بعين الفرق والكثرة. وهنا أيضًا يشهد جمال الذات

(١) عبد الحليم محمود: المدرسة الشاذلية (القاهرة: دار النصر للطباعة، د. ت) ص: ٢٦.
(٢) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين (القاهرة: مطابع التراث العربى، ط١، ١٤٠٣هـ) ج٣، ص: ٤١٠.
(٣) المرجع السابق، ص: ١٤٤-١٤٥.

الإلهية المطلق فى كل شىء، ويشهد كل شىء على صورة أو مظهر من صور جمال الذات ومظاهره حسبما يرى ابن الفارض وغيره من المحبين الإلهين [1].

ويشبه هذا ما يذهب إليه أفلاطون إذ يقول:

« إن من يطمح إلى الجمال الحقيقى، فعليه أن يدأب منذ صباه على الاتصال بالصور الجملية، وأن يجعل من هذه الصور صورة واحدة بعينها موضوعًا لحبه، ثم يلحق هذه الصور بالبدائع العقلية والروائع الروحية، وعليه بعد ذلك أن يؤمن بأن الجمال فى أى من الصور تجلى، فهو هو بعينه صنو الجمال فى أى من الصور الأخرى؛ وإن من يروض نفسه على هذا الوجه فى الحب، بحيث يشاهد الأشياء الجميلة، متدرجه بين مراتبها الوجودية، سيصل عندئذ إلى التحقيق بغاية الحب، وهنالك ينتهى إلى مشاهدة نوع من الجمال عجيب فى طبيعته، أزلى لم يخلق، أبدى لا يفنى، ثابت لا يزيد ولا ينقص، عقلى روحانى، لا سبيل إلى إدراكه على نحو ما يدرك جمال الوجوه، أو جمال أى من أعضاء البدن الأخرى؛ وأن الجمال بهذا المعنى الأفلاطونى لا يوجد فى السماء ولا فى الأرض ولا فيما بين السماء والأرض، ولا يتصور بصورة معينة ولا يتقيد بأشكال متكثرة، وإنما هو بمعناه الكلى، وبإطلاقه عن قيود الزمان وحدود المكان صورة واحدة ثابتة لا تستحيل ولا تتبدل؛ وهذا المعنى الأفلاطونى السامى للجمال هو الذى عبر عنه أفلاطون تعبيرًا لعله أوضح وأروع إذ يتساءل أو يتعجب فيقول:

أليس الجمال الذى يترقرق فى أعطاف جسم ما هو شقيق الجمال الذى يترقرق فى أعطاف الأجسام الأخرى؟!

أفلا ينبغى أن ترد جميع صور الجمال المتفرقة إلى مثال واحد يحتويها فى وحدته؟.. بلى!

ويعرج بنا أفلاطون فيقول: إن ما يجعل لهذه الحياة قيمة إنما هو ذلك المشهد، مشهد الجمال الأزلى الأبدى: فأى مصير مصير هذا الإنسان الفانى الذى منح القدرة على مشاهدة الجمال الذى لا تشوبه شائبه، الجمال فى صفائه ونقائه وبساطته، الجمال الذى لا يكسوه اللحم ولا صبغ الألوان الإنسانية، والذى خلص من كل زخرف زائل خاضع لأحكام الفساد. أى مصير مصير هذا الإنسان، وقد أتيح له أن يشهد وجهًا لوجه الجمال الإلهى فى صورته الواحدة؟! [2].

ويقول الأستاذ الدكتور محمد مصطفى حلمى: فإذا عدنا إلى موقف ابن الفارض من الجمال المطلق والحسن المقيد فى الحب الإلهى وإذا وازنا بين هذا المذهب الإسلامى وبين

(١) نفس المرجع السابق، ص: ٧٠.
(٢) محمد مصطفى حلمى: الحب الإلهى فى التصوف الإسلامى، ص: ٧١-٧٢.

المذهب الأفلاطونى ، وجدنا أن الحب الحقيقى عند أفلاطون إنما هو فى أن يعتقد الإنسان أن الجمال فى أى صورة هوهو بعينه الجمال فى أى صورة أخرى .

أى أنه من حيث حقيقته واحد مطلق مهما تعددت الصور وتكثرت المظاهر .

وكذلك كان الحب الإلهى عند ابن الفارض وعند أشباهه من المحبين الإلهيين[1] .

وهذا الحب ينتهى فيه المحب إلى أن الحسن البادى فى المظاهر الكونية ، والسحر السارى فى المعشوقات الإنسانية ، إنما هو فيض من ذلك الجمال الإلهى المطلق ؛ ووجدنا أيضًا أن أفلاطون يرى أن من يطلب التحقق بالحب الحقيقى فعليه أن يتصل منذ صباه بالصور الجميلة ، وأن ينتقل بين هذه الصور حتى يجعل له صورة واحدة هى أحبها إليه وآثرها عنده ؛ وكذلك يحدثنا ابن الفارض بأنه أحب الصورة المقيدة ، والمظاهر المعنية ، ثم أخذ حبه يرقى رويدًا رويدًا ، وأخذت نفسه تصفو شيئًا فشيئًا ، حتى خرج بحبه وقلبه من مجال الحسن المقيد إلى رحاب الجمال المطلق الذى شهد فيه الجمال المطلق فى كل معنى من المعانى ، وفى كل مجلى من المجالى ، والذى تبين له عنده حسن كل مجلى من هذه المجالى ، وكل معنى من تلك المعانى ، إنما هو مستمد ومعار من منبع ذلك الجمال المطلق[2] .

وهنا يجب أن توضح فى هذا المقام للسالكين العارفين بالله سبحانه وتعالى فى مكابدة الحب الإلهى ، ومشاهدة الجمال الحقيقى ، أذواق تعرض لهم ، ومواجيد تختلف عليهم ، وفيما بين هذه وتلك أحوال تملك عليهم نفوسهم وقلوبهم وعقولهم وأرواحهم ، وما تزال هذه الأحوال بين إقبال عليهم تارة ، وإدبار عنهم تارة أخرى ، حتى يتمكن الحب الإلهى ، وتتمكن مشاهدة الجمال الحقيقى لما فاضت به أرواحهم من آيات التسبيح بجمال الذات الإلهية .

ومما يراه الباحث هنا أن هؤلاء الصفوة وصلوا إلى منزلة عالية فى الحب الإلهى ويتخذونه موضوعا من الجمال المطلق الحقيقى .

وهكذا يتهيأ لهؤلاء المحبين من صفاء السريرة ، وجلاء البصيرة ، ما جعلهم أهلاً لمشاهدة الجمال الإلهى ، وكذلك تعرض هؤلاء لنفحات من الأنس الذى نعمت به أرواحهم من تذوقهم لمعانى الجمال الحقيقى فى معانى ذلك الحب الإلهى . فيحققوا فى أنفسهم هذه المعانى تحقيقًا يتجلى فى إقبالهم على الله ، وإعراضهم عما سواه .

ونخلص من ذلك أن هؤلاء المحبون وجدوا معنى من المعانى السامية فى ذلك الحب الإلهى .

---

(١) المرجع السابق ، ص : ٧٣ .

(٢) محمد مصطفى حلمى : الحب الإلهى فى التصوف الإسلامى ، ص : ٧٤ .

وبعبارة أخرى نستطيع أن نقول أن للحب عند هؤلاء معنى أسمى من معناه الإنسانى الحسى أو العذرى ، وأن للجمال وجهًا أصفى ، بل هو خير وأبقى من كل ما يقع على الحس وتنجذب إليه النفس فى العالم الخارجى . وذلك لأن الحب الإلهى هو الذى يتخذ فيه المحب موضوع حبه من الذات الإلهية أو الحقيقة العلية ، فيفتن فى وصف جماله وجلاله وكماله . ولذلك فالذات الإلهية عند المحب هى المنبع الأسمى لكل ما فى الوجود من آيات الحق والجمال ، وهى المورد الأسنى لكل ما فى الكون من دلالات الخير والجمال ويستغرق المحب فى حبه لله إلى أن يظفر من الله بنظرة يستمتع فيها بجماله الأزلى ، فذلك عنده هو الغاية القصوى والبهجة العظمى من حبه الإلهى .

ومن هنا نظر العارفون إلى الحب الإنسانى الإلهى الذى ينجذب فيه المحب إلى الجمال الإلهى المطلق ، على أنه حالة روحية شريفة لا يذوقها ولا يتحقق بها إلا من هو راض عن نفسه رياضة روحية ، وجاهد حسه مجاهدة قوية ، بحيث يرتفع الإنسان عن نفسه رويداً رويداً ، ويسمو بحسه شيئاً فشيئاً ، وما يزال كذلك بين مجاهدة رياضه حتى يقطع نفسه عن نفسها ، ويقطع كل سبب بينها وبين غيرها .

فإذا هى لا تحس شيئاً ولا تنجذب إلى شىء ، ولا تقبل على شىء ، ولا تميز بين شىء وشىء ، ذلك بأنها قد اشتغلت بشىء واحد ، وانجذبت إلى شىء واحد ، واقبلت على شىء واحد ، وذاك الشىء هو الجمال المطلق الذى انطوى فيه كل ما فى الكون من آيات الحسن المقيد الذى يتمثل فى هذه الصورة الحسنة أو تلك .

ومن هنا أيضاً رأى أهل الحق أن المعرفة اليقينية التى لا يأتيها الباطل أو الشك من بين يديها ولا من خلفها ، وأن السعادة الحقيقية التى لا تعدلها سعادة أخرى ، إنما تكون إحداهما أو كلتاهما فى أن تنصرف عن الحسن المعين إلى الجمال المطلق ، وأن تتسامى بكل ما فى الدنيا من جوارح ظاهرة وجوانح باطنة عن عالم الحس وما فيه من مظاهر زائلة وزخارف حائلة ، إلى عالم الروح بما فيه من حقائق ثابتة ، ولطائف باقية ، وهناك فى هذا العالم الروحى العلوى تحيا الروح حياتها الخليقة بها فى ظل ظليل من الجمال الإلهى المطلق الذى لم تعد تشهد سواه أو تنجذب إلى ما عداه (١) .

ولقد استغرق الشعور بالانجذاب إلى الجمال المطلق ، نفوس بعض المحبين الإلهيين ، استغراقاً يكاد أن يكون تاماً بحيث لم يغادر معنى من المعانى إلا ألم به ، ولا مجلى من المجالى إلا تمثل فيه . وليس أروع ولا أمتع من هذا التصوير الذى صور به ابن القارض استغراق

---

(١) محمد مصطفى حلمى : الحب الإلهى فى التصوف الإسلامى ، ص : ٦٤ .

المطلق لنفسه استغراقاً جعله يحب محبوبه الحقيقى فى كل معنى من المعانى وفى كل مظهر من المظاهر [1] .

من هنا كانت لذة العارف فى الدنيا من مطالعة جمال حضرة الربوبية فهى أعظم من كل لذة يتصور أن يكون فى الدنيا سواها ، وذلك لأن اللذة على قدر الشهوة ، وقوة الشهوة على قدر الملاءمة والموافقة مع المشتهى ، وكما أن أوفق الأشياء للأبدان الأغذية فأوفق الأشياء للقلوب المعرفة [2] .

فالمعرفة غذاء القلب . وأعنى بالقلب الروح الربانى الذى قال الله تعالى فيه :

﴿ قل الروح من أمر ربى ﴾ .

وعلى غرار ما تقدم فلا موجب للمحبة إلا أمران :

أحدهما : الإحسان . والآخر : غاية الجلال والجمال بكمال الجودة والحكمة والتقديس من العيب والنقص ، ولا إحسان إلا منه ، ولا جلال ولا جمال ولا قدس إلا له .

فكل ما فى العالم من حسن وإحسان ، فهو حسنة من حسنات وجودة ، يسوقها إلى عبادة بخطرة واحدة يخلقها فى قلب المحسن ، وما فى العالم من صورة مليحة ، وهيئة جميلة يدرك بعين أو سمع أو شم فأثر من آثار قدرته وهى بعض معانى جماله .

لذلك قالوا : إن اللذة تتبع الإدراك ، والإدراك إدراكان : ظاهر وباطن . فأما الظاهر : فبالحواس الخمس ، فلذة العين فى الصور الجميلة ، ولذة الأذن فى النغمات الموزونة الطيبة ، ولذة الذوق فى الطعوم ، ولذة الشم فى الروائح الملائمة الموافقة ، ولذة جملة البدن فى ملابسة الناعم اللين ، وجملة ذلك محبوبة للنفس أى للنفس ميل إليها .

وأما الإدراك الباطن فهو اللطيفة التى محلها القلب ، تارة يعبر عنها بالعقل ، وتارة يعبر عنها بالنور ، وتارة يعبر عنها بالحس السادس حسبما يرى الإمام الغزالى [3] .

ولقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام : « أحببنى وأحب من يحبنى ، وحببنى إلى خلقى ، قال : يارب وكيف أحببك إلى خلقك ؟ قال : اذكرنى بالحسن الجميل ، وبآلائى واحسانى وذكرهم ذلك فإنهم لا يعرفون منى إلا الجميل [4] .

---

(١) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٢) الغزالى ، أبو حامد : الأربعين فى أصول الدين ، تحقيق محمد مصطفى أبو العلا . (القاهرة : مكتبة الجندى ، ١٣٩٠هـ) ص : ٢٥٨ .

(٣) الغزالى ، أبو حامد : الأربعين فى أصول الدين ، مرجع سابق ، ص : ٢٥٤ .

(٤) عبد المريز الديرينى : طهارة القلوب والخضوع لعلام الغيوب (القاهرة : مطبعة الحلبى ، ط الأخيرة ، ١٣٩١هـ) ص : ١١٢ .

، يهتف أحد العارفين بقوله : « إذا أحبك ربك جملك بالأخلاق ، وطهرك من الريب والعلائق ، فشهد قلبك جماله عليك منه ، فلم تلتفت عنه [1] .

، هذا يعنى أنه كلما أوغلت الفهوم فى معرفة الخالق فشاهدت عظمته ولطفه تاهت فى محبته .

، قد كان ابن عقيل يقول : إن التبذل فيه سبحانه أحسن من التجمل فى غيره .

، هذه الحالة يعبر عنها بجلال العبادة وجمال العابدين . وهذا رأى ابن الجوزى [2] .

، ومن أجل ما تفسر به المحبة فى الله عز وجل : قول التابعى الجليل مسروق . وقد قال له رجل : إنى لأحبك فى الله ، قال مسروق : إنك أحببت الله تعالى . فأحببت من أحب الله .

، لما كان الجمال الإلهى ، وهو من أخص صفات الذات الإلهية وتجلياتها ، متفاوتاً تبعاً لإطلاق الذات وتعين التجليات ، فقد ترتب على هذا أن يكون للحب الإلهى مراتب تبين القيم الذاتية لكل منها من خلال ترتيبها على الوجه التالى :

، حب يظهر من معاينة الحس جمال الأفعال الإلهية فى عالم الشهادة ، وهذا هو الحب الأعم .

، حب يظهر من ملاحظة النفس جمال الأفعال الإلهية فى عالم الغيب . وهذا هو الحب العام .

، حب يظهر من مطالعه القلب جمال الصفات الإلهية فى عالم الملكوت ، وهذا هو الحب الخاص .

، حب يظهر من مشاهدة الروح جمال الذات الإلهية فى عالم الجبروت ، وهذا هو الحب الأخص .

فها هنا ثلاثة محبين بعضهم فوق بعض درجات وينعت حب كل منهم بأنه ألهى . وإذا نظرنا حظوظهم من الانجذاب إلى الجمال الإلهى المطلق ، أو إلى الحسن التكوين المعين [3] .

---

(١) أبو العزائم ، محمد ماضى : من جوامع الكلم ، مرجع سابق ، ص : ٤١ .

(٢) ابن الجوزى ، أبو الفرج : صيد الخاطر ، تحقيق عبد القادر عطا (القاهرة : مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٩٧٩) ص : ٤١٠ .

(٣) محمد مصطفى حلمى : الحب الإلهى فى التصوف الإسلامى ، مرجع سابق ، ص : ٦٤ . ويراجع : المحاسبى ، أبو عبدالله الحارث : رسالة المسترشدين ، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة (دمشق ، حلب : دار السلام ، ط٤ ، ١٤٠٢هـ) هامش ص : ١٧٧ ، وكذلك ابن قيم الجوزية : طريق الهجرتين ، ص : ٢٩٦ - ٢٩٧ .

ومحب الأفعال الإلهية وهو أدنى المحبين ، ومحب الصفات الإلهية وهو أوسطهم ، ومحب الذات الإلهية وهو أعلاهم ، وليس من شك فى أن محب الذات الإلهية هو أعلم هؤلاء المحبين جميعاً ، لأن جمال الذات الإلهية الذى يقبل عليه ، وينجذب إليه ، ويقف عنده حقيقى أزلاً ، ثابت دائماً ، مطلق أبداً .

الجمال الظاهر والجمال الباطن :

أولاً : الجمال الظاهر :

يتمثل هذا اللون من الجمال فى الأخلاق الإسلامية التى تتمثل فى الرحمة للمتقرب إلى الله مع بنى جنسه ، والعفو عمن أساء إليه فيجعله يذوب ندماً ، والإحسان إلى المسىء يجعله صديقاً حميماً ، وتواضع لله تهابه به القلوب ، وذل لله تعظمه به العيون .

وهذا اللون من الجمال الظاهر يمكن أن نسميه جمال المقربين الذين إذا أساء إليهم المسىء نسبوا السوء إليهم واعتذروا له ، لا يغضبون إلا لله لا لأنفسهم ، أخلاقهم أخلاق روحانية ، وأعمالهم أعمال الربانيين ، هم موتى من حيث ما به أهل الدنيا ولكنهم يمشون فى الناس بنور الله فهم فى الناس وليسوا معهم [1] .

وكذلك يتمثل الجمال الظاهر للسالكين فى المسارعة إلى الأعمال كالصلاة والصيام والحج والذكر ، وإطعام الطعام ، ومعاونة الإخوان بالمال والجاه ، والفرح بالمساعدة ، والبهجة بالأعمال الصالحة ، والغضب عند المخالفة على من خالف ، وحب المتبع ، وقبول النصيحة ، وحب الإصلاح والسعى لأهل الاصلاح ، والميل لى مجالس العلم ، وسماع كلام العلماء ، وغير ذلك مما هو معلوم من أعمال السالكين الصالحين . فعلى المريد الصادق أن يجاهد نفسه مجاهدة حقيقية ليتحصن بحصون الأمن * ، ويتجمل بتلك الجمالات . وبذلك يكون مريداً لله ناهجاً مناهج الكتاب والسنة ، ومتى تحقق بهذا الجمال تحقق أنه من التابعين بإحسان لرسول الله ﷺ .

ثانياً : الجمال الباطن :

أما الجمال الباطن فهو علم بالنفس ، يعرف الإنسان به ربه المعرفة التى تجعل النفس تتصور

---

(١) أبو العزائم ، محمد ماضى : مذكرة المرشدين والمسترشدين ، ص : ٧٤ .

* مسالك هذا الطريق عليه أن يتحصن بحصون الأمن ، ويتجمل بالجمال الذى يحبه الله تعالى ورسوله ﷺ . وحصون الأمن نلخصها فى النقاط التالية : **أولاً** : معرفة مالابد منه للمؤمن من العقيدة الحقة . **ثانيا** : مراقبة خواطره وهمه . **ثالثا** : أن يحاسب نفسه بعد كل يوم وليلة . **رابعا** : أن يجعل له فى كل يوم جديد درسا . **خامسا** : أن يتحصن من الوقوع فى الشبهات . **سادسا** : أن يقوم بعمارة كل وقت بواجبه . **سابعا** : أن يتجنب فى كل وقت شياطين الإنس والجن . **ثامنا** : أن يتمثل صورة الموت ومابعده .

رسوم معانى الجمال والجلال والكمال الربانى ، بقدر قابليتها لاقتباس تلك الأنوار القدسية ، واستجلاء تلك الأسرار فى السر حتى تكون تلك المعانى مشهودة للنفس شهود يقين ، فيحصل العشق بعد المعرفة والمعرفة تحصل بعد الوجد ، والوجد يحصل بعد الطلب ، ولا طلب قبل معرفة النفس ، فإذا حصل العشق لمعانى الربوبية تحققت النفس بأضداد تلك المعانى التى هى أكمل جمالاتها ، والحق سبحانه وتعالى يطلب تلك المعانى التى تجرى بها من طلب فوجد فعرف فعشق ، كطلب لمعانى الربوبية سر قوله تعالى : « يحبهم ويحبونه » [1] .

وهو جمال المقربين ، وشاهدة المصطفين ، وموارد الصديقين [2] .

أما عن الجمال الباطن عند السالكين فإنما يتمثل هذا الجمال فى تحليه القلب بمراءة الآيات الدالة على كمال عناية الحق سبحانه وتعالى بالإنسان والتفكر فى بديع الصنعة وما أودعه الله به الإنسان من الإيجاد ، وما أعده له قبل وجوده على الأرض ، وما سخره له بعد وجوده من كل عوالم السموات والأرض لتنكشف لقلبه بعض نعم الله ومنته وإكرامه وإحسانه له ، ثم يشعر قلبه أن هذا الجمال وتلك المنن والنعم فى هذا الكون جعلت ليستعين بها ويتوسل بها فى وجوه التقرب إلى الله ، وإطاعة أوامره واجتناب نواهيه لينتقل بها منها إلى الجمال الحقيقى والنعيم الأبدى والسعادة الباقية ، فإنه بذلك يشكر المنعم ، ويجد فى طلب ما رغبه فيه سبحانه وتعالى زاهداً فيما يغنى ، آخذاً منه بقدر الكفاية ، فيكون من الشاكرين الذاكرين .

وبهذا الجمال تتوالى عليه أسرار روحانية [3] .

وينشد الإمام أبو العزائم بالجمال الظاهر فيقول [4] .

يا ظاهراً بجماله الرحمانى ... فى كل ما يبدو من الأكوان

أظهرت نورك للقلوب مشاهداً ... فى مظهر يومىء إلى البيان

وينشد فى موقف آخر فيقول [5] :

وعاينت الجمال الصرف لما ... شربت راحتى من الدنان

---

(١) سورة : المائدة : آية : ٥٤ .

(٢) أبو العزائم ، محمد ماضى : مذكرة المرشدين والمسترشدين ، ص : ٧٤ .

(٣) أبو العزائم ، محمد ماضى : مذكرة المرشدين والمسترشدين ، ص : ٧٥ .

(٤) أبو العزائم ، محمد ماضى : ديوان ضياء القلوب (القاهرة : دار الكتاب الصوفى ، ط ٢ ، ١٤١٤هـ) ، المجلد الرابع ، ص : ١١١١ .

(٥) أبو العزائم ، محمد ماضى : الفتوحات الربانية (القاهرة : دار المدينة المنورة ، ط ٤ ، ١٤١٠هـ) ص : ٥٦ .

جمال الحق في عين العيان

الجمال الظاهر والجمال الباطن فيقول :

ظاهرك ، فجمل له باطنك بجمال صفاتك [1] .

الجلال :

المقام إلى أن العارفين استدلوا على لفظ الجمال والجلال من القرآن

عبارة عن أوصافه العليا وأسمائه الحسنى ، هذا على العموم .

الرحمة وصفة العلم وصفة اللطف والنعم ، وصفة الجود والرزاقية

أمثال ذلك كلها صفات جمال [2] .

عبارة عن ذاته بظهوره في أسمائه وصفاته كما هي عليه على الإجمال

الجلال عبارة عن صفات العظمة والكبرياء والمجد والثناء ، وكل

ظهوره يسمى جلالاً . كما أن كل جلال له فهو في مبادئ ظهوره على

جمال جلالاً ، ولكل جلال جمالاً .

وجه إلى الجمال ووجه إلى الجلال كاسمه الرب ، فإنه باعتبار

، وباعتبار الربوبية والقدرة اسم جلال ، ومثله اسمه الله ، واسمه

الرحيم فإنه اسم جمال .

المقام إلى أن العارفين استدلوا على لفظ الجلال من قوله تعالى :

ذو الجلال والاكرام ﴾ . وجل الشيء أي عظمه ، ومنه جل فلان في

عظمته تعالى .

أن الجليل هو المستحق لأوصاف العلو والرفعة ، وأما الجميل فإنه

. والجلال نعت من نعوت الجبروت . يتصف بها الله سبحانه

القهر والغلبة ، والجلال لما يمتلكه تعالى من العظمة والكبرياء .

من جوامع الكلم، ص : ١٣ .

الإنسان الكامل (القاهرة : مطبعة الحلبي، ط٤، ١٤٠٢هـ) جـ١، ص : ٨٩-٩١ .

ومما ينبغي أن يعلم أن جمال الحق سبحانه وتعالى وإن كان متنوعاً فهو نوعان :

النوع الأول معنوي : وهو معاني الأسماء الحسنى والأوصاف العلا ، وهذا النوع مختص بشهود الحق إياه .

والنوع الثاني صوري : وهو هذا العلم المطلق المعبر عنه المخلوقات وعلى تفاريعه وأنواعه، فهو حسن مطلق إلهي ظهر في مجال الإلهية ، وسميت تلك المجلى بالخلق ، وهذه التسمية أيضاً من جملة الحسن الإلهي .

وهنا ينبغي أن نوضح أن الجمال المعنوي الذي هو عبارة عن أسمائه وصفاته ، إنما اختص الحق بشهود كما لها على ما هي عليه تلك الأسماء والصفات . وأما مطلق الشهود لها فغير مختص بالحق ، لأنه لابد لكل من أهل المعتقدات في ربه اعتقاداً ما أنه على ما استحقه من أسمائه الحسنى وصفاته العلا أو غير ذلك ، ولابد لكل شهود صورة معتقدة ، وتلك الصورة هي أيضاً صورة جمال الله تعالى ، فصار ظهور الجمال فيها ظهوراً ضرورياً ، لا معنوياً ، فاستحال أن يوجد شهود الجمال المعنوي بكماله لغير ما هو له ، تعالى الله وتقدس عما يقولون علواً كبيراً [1] .

وعلى هذا فإن الخلق لا يظهر لهم من جمال الله تعالى إلا جمال الجلال أو جلال الجمال ، وأما الجمال المطلق والجلال فإنه لا يكون شهودة إلا لله وحده . وأما الخلق فما لهم فيه قدم .

ولقد أوضحنا فيما تقدم أن التعبير بالجلال إنما يعني ذات الحق عز وجل باعتبار ظهوره في أسمائه وصفاته كما هي عليه في حقه ويستحيل هذا الشهود إلا له .

وكذلك عبرنا عن الجمال بأنه أوصافه العلا وأسمائه الحسنى ، واستيفاء أسمائه وصفاته للخلق محال لأن ثمة أسماء وأوصافاً له مستأثرات عنده فظهر بذلك أن ظهور الجمال المطلق والجلال المطلق مختص بالله تعالى .

ومما ينبغي أن يفهم أن صفات الحق وأسمائه من حيث ما تقتضيه على أربعة أقسام بين الجمال فقسم منها صفات جمال ، وقسم منها صفات جلال ، وقسم منها مشترك بين الجمال والجلال وهي صفات الكمال . وقسم منها ذاتية [2] .

فالأسماء والصفات الجمالية مثل : العليم ، والرحيم ، والسلام ، والمؤمن ، والغفارة والوهاب ، والرازق ، والفتاح ، والباسط ، الرافع ، والحنان ، والمنان ، إلى غير ذلك من الأسماء والصفات الجمالية .

---

(١) الجيلي : الإنسان الكامل، جـ١، ص : ٩١.

(٢) المرجع السابق، ص : ٩٢.

والأسماء والصفات الجلالية مثل : الكبير ، والمتعال ، والعزيز ، والعظيم ، والجليل ، والقهار ، والقادر ، والمقتدر ، والقوى ، والمتين ، وذو الجلال والإكرام ، إلى غير ذلك من الاسماء والصفات الجمالية .

فالأسماء والصفات الجمالية مثل : العليم ، والرحيم ، والسلام ، والمؤمن ، والغفار ، والوهاب والرزاق ، والفتاح ، والباسط ، والرافع ، والحنان ، والمنان ، إلى غير ذلك من الأسماء والصفات .

والأسماء المشتركة بين الجمال والجلال والتى تعنى صفات الكمال مثل : الرحمن ، والملك والخالق ، والبصير ، والمقدم ، والمؤخر ، والأول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن ، والربوبية ، إلى غير ذلك من الأسماء والصفات الكمالية .

والأسماء والصفات الذاتية مثل : الله ، والأحد ، والواحد ، والفرد ، والصمد ، والقدوس ، والحى ، والحق ، إلى غير ذلك من الأسماء والصفات الذاتية [1] .

فالعارفون أبداً بين الجلال والجمال فى دهش عظيم وأنس ووصال [2] .

ومما ينبغى أن تنتبه له أن نعلم أن الصفات الواردة من المحبوب وإن كانت لا تنحصر إذ هى على عدد الساعات وتختلف باختلاف الحالات . فإنها ترجع إلى ثلاث صفات : صفة جمال ، وصفة جلال ، وصفة كمال . فمن تجلى له محبوبة بنعوت البهجة للنفوس : من الجود والأحسان والرحمة والامتنان ، والعطف الشامل : واللطف الكامل ، ورفع الحجاب ، وتيسير أسباب الاقتراب ، وسائر الصفات البهية الجليلة التورية ، والنعوت والبهجة النسبية المرحة للانبساط والأنس واللذة والسرور ، فيقال : إنه مشاهد لصفات الجمال .

ومن تجلى له بنعوته الواجبة له : من العز والقهر والعظمة والجبروت والسطوة والقدرة والاستيلاء ، ونظر إلى نفسه فرآها فقيرة مقهورة ناقصة ذاهية فى عز كبريائه وقهر سلطانه ، وحدث ذلك فى نفسه ، من الدهش والذهول ما يكاد يطمس معالم ذاته ، ويغنى رسوم صفاته فيقال : إن هذا مشاهد لصفات الجلال [3] .

ومن تجلى له بصفاته التى لا تليق إلا به : من العلم والقدرة والانفراد بالخلق والإيجاد والحكم المطلق والقيومية التى قام بها سائر الموجودات وعلم ماله من السناء والبهاء والنور

---

(١) الجيلى : الإنسان الكامل ، جـ١ ، ص : ٩١ـ٩٢ .
عبد العزيز الديرينى : طهارة القلوب ، مرجع سابق ، ص : ١٩ .
الترمذى ، الحكيم ، ختم الأولياء ، تحقيق عثمان إسماعيل يحيى (بيروت : المطبعة الكاثوليكية ، د.ت) ص : ٤٧٧ .

الفائض على سائر الموجودات ، وإن ظهورها كلها به ، ووجد فى نفسه بذلك من المحبة والشوق إلى كمال المعرفة به ما لم يعلم حقيقته إلا بارئه ، فيقال : إن هذا مطالع لصفات الكمال .

فصفات الجمال توجب الأنبساط ، وصفات الجلال توجب الفناء والمحو ، وصفات الكمال توجب المحبة والشوق .

ولهذا قالوا : من كوشف بصفات الجمال عاش ، ومن كوشف بصفات الجلال طاش . وبسط القول فى هذه الصفات لا يليق بنا شرحه [1] .

فالسالكون ثلاثة : جلالى وهو إلى الشريعة أميل ، وجمالى وهو إلى الحقيقة أميل ، وكمالى جامع لهما على حد سواء وهو منهما أفضل وأكمل [2] .

ونريد أن نقف وقفة هنا عند الأسماء والصفات الكمالية . فكمال الله تعالى عبارة عن ماهيته ، وما هيته غير قابلة للإدراك والغاية ، فليس لكماله غاية ولا نهاية ، فهو سبحانه وتعالى يدرك ما هيته ، ويدرك أنها لا تدرك .

وهنا ينبغى أن نعلم أن لكل اسم من أسماء الله تعالى وصفاته أثراً ، وذلك الأثر مظهر لجمال ذلك أو جلاله أو كماله ، فالمعلومات مثلاً على العموم أثر اسمه العليم ، فهى مظاهر علم الحق سبحانه وتعالى ، وكذلك المرحومات مظاهر الرحمة ، فالموجودات بأسرها مظاهر جمال الحق .

وكذلك كل صفة جلالية تقتضى الأثر كالقادر والرقيب والواسع ، فإن أثره شائع فى الوجود فصارت الموجودات من حيث بعض الصفات الجلالية مظاهر الجلال ، فما ثم موجود إلا وهو صورة لجلال الحق ومظهر له .

وثم أسماء جلالية تختص ببعض الموجودات دون بعض كالمنتقم والمعذب والضار والمانع وما شابه ذلك فإن بعض الموجودات مظاهر لها لاقل الموجودات ، بخلاف أسماء الجمال فإن كل منها يعم الوجود . وهذا سر قوله تعالى : « سبقت رحمتى غضبى » .

وأما الأسماء الكمالية المشتركة فمنها ما هو للرتبة كاسمه الرحمن والملك والرب ومالك الملك والسلطان والولى . فهؤلاء للعموم ، والوجود بحملته مظهر وصورة لكل اسم من هذه الأسماء .

---

(١) الترمذى ، ختم الأولياء ، الملحق ، ص : ٤٧٧ـ٤٧٨ .
(٢) الشعرانى : الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية ، تحقيقنا ، رسالتنا لدرجة الماجستير ، غير منشورة ، بكلية الآداب جامعة الإسكندرية ، ١٩٨٧ ، ص : ٣٣٦ .

وهذا يوضح الجيلى بقوله : الوجود وبجملته . فالمقصود الوجود من كل وجه وبكل اعتبار فالموجودات صورة لكل اسم من أسماء المرتبة ، بخلاف أسماء الجمال والجلال ، فإن الموجودات مظهر لكل اسم منها بوجه واحد ووجوده متعددة منحصرة باعتبار أو اعتبارات منحصرة[1] .

والله عز وجل يكاشف القلوب مرة بجلاله ، ومرة بوصف جماله ، فإذا كاشفها بوصف جلاله صارت أحوالها دهشة واندهاشاً ، وإذا كاشفها بجماله صارت أحوالها تعطشاً وتعشقاً السالك إلى الله تعالى إذا كاشفه سبحانه وتعالى بجلاله أفناه .

وإذا كاشفة بجماله أحياه[2] .

كشف الجلال يوجب محواً وغيبة ، وكشف الجمال يوجب صحواً وقربه .

والعارفون بالله سبحانه وتعالى يكاشفهم الله تعالى بجلاله ، فإذا كاشفهم غابوا ، وأما العابدون فإذا كاشفهم بجماله طابوا .

وعبارة أخرى : يفرق الإمام القشيرى بين العابدين والعارفين فيرى أن العابدين هم الذين شهدوا أفضال الله تعالى فبذلوا انفسهم . وأما العارفين فشهدوا جلاله فبذلوا قلوبهم ، كما أن المحبين قد شهدوا جماله فبذلوا أرواحهم ، فمن كان له عين اليقين شهد جلاله ، ومن كان له حق اليقين شهد جماله[3] .

وهكذا يكون القول : فمن الجمال غافر الذنب قابل التوب ، ثم من الجلال شديد العقاب فعال جذبت أرواح المحبوبين ، وبالجلال قهر العباد[4] .

ومن هنا كان دعاء الداعى إلهى إلهى أعذنى يا حفيظ يا سلام بجمالك من جلالك . وأسألك يا إلهى أكون جميلاً محبوباً لحضرتك يارب العالمين . وتجل بجمالك وأعذنى يا إلهى من سطوات جلالك الجمالى من جلالك ، وجملنى يا جميل يا الله بحقيقه الرضا منى حتى أكون جميلاً مرضياً هادياً مهدياً[5] .

اللهم يا ظاهراً بظهورك الجميل العلى . اللهم يا متجلى بجمالك الذى خلب العقول

---

(١) أبو العزائم الإنسان الكامل ، جـ١ ، ص : ٩٣ .
(٢) عبد الحليم الشرقاوى : ألفاظ الصوفية ومعانيها ، ص : ١٢٣ .
(٣) المرجع السابق ، ص : ١٢٤ .
(٤) أبو العزائم ، محمد ماضى : أدعية الغفران فى شهر رمضان (القاهرة : دار الزهراء ، ط١ ، ١٣٩٣هـ) ص : ٥ .
(٥) المرجع السابق ، ص : ١١ ، ٢٤ ، ٣٢ .

وحير الألباب نتوجه إليك بك فى مظاهرك واليك بك فى ظهورك أن تتنزل لنا بتنزلك الجمالى العام الذى تخطف به عقولنا حتى تشرف أرواحنا على ذلك شرافاً يجعلها تقتبس من نور عزتك وجبروتك قبساً نورانياً جمالياً يجعل لنا أعمالاً لا تصرف فى طاعتك وأنفاساً تصرف فى ذكرك وشكرك وآيات تشهدنا جمال وجهك ظاهراً عنا قريب يا مجيب[1] .

وأشهدنى الجمال حيث كنت ، وأسمعنى الخير حيث كنت ، حتى أرى فى دينى ونفسى وأهلى ودنياى وآخرتى إلا خيراً وجمالاً . حتى يلين بدنى ويكون لسانى رطباً بذكرك ، ويكون قلبى حاضراً مشاهداً لجمالك العلى ، مراقباً عظمتك العلية . وحققنى يا إلهى بجمالى الذى به أكون معشوقاً لك محبوباً حتى يحصل الحب بينى وبينك وتقبل علىّ وأقبل عليك وتقبل على ، وجملنى يا إلهى بحلل رضوانك الأكبر وأعنى بعنايتك يا إلهى حتى أكون من أهل ذكرك الأكبر .

وجملنى يا إلهى بمعانى جمال أهل محبتك المقربين . وجمل يا إلهى باطنى بالإخلاص لذاتك العليه ، يا حى يا قيوم يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام روح أرواحنا بنسيم القرب وريحان الحب وجمال القبول .

رب واجهنى بوجهك الجميل مواجهة تخرجنى بها مخرج صدق من حيطة آدميتى إلى فسيح ملكوتك الأعلى حتى أسبح فى هذا الأفق المبين مشاهداً أسرار تجليك سبحانك متجملاً بجمال تنزلاتك .

رب أعذنى من نسيانك ومن نسيان يوم الحساب واجعلنى يا إلهى لا أغيب عن شهود مكانتى فى مراتب وجودك مهما واجهتنى بجمالك وتنزلت لى بجودك وأنعمت على نفسى من كمالك يارب العالمين حتى تكون العبودة مكانتى وجملنى بأجمل حللها من الذل الحقيقى والرهبة الحقيقية والخشية من جلالك يارب العالمين . تعالت أسماؤه ، وجلت صفاته ، وعظمت ذاته[2] .

ويجدر بنا أن نسجل فى هذا المقام ما رواه الغزالى بصدد رؤية الحق تعالى فى الجنة نجده يقول : لذة لقاء الرؤية فى الجنة لمعرفة الله ، ومحبته والشوق إليه والرضا به ، وكيف ربط العارفون بين أحوالهم ومقاماتهم بالرؤيا ومطالعة وجه الله الكريم .

---

(١) أبو العزائم ، محمد ماضى : مشارق البيان فى فضل شعبان (القاهرة : دار المدينة المنورة ، ط٢ ، ١٤٠٦هـ) ص : ٥٨ ويراجع : صالح الجعفرى : المعانى الرقيقة على الدرر الدقيقة المستخرجة من بحر الحقيقة ، ص : ١٠ .
(٢) ابن عطاء الله السكندرى : القصد المجرد فى معرفه الاسم المفرد (القاهرة : مطبعة صبيح ، د.ت) ص : ٥ .

ويحمد فيقول : إن أجل اللذات وأعلاها معرفة الله تعالى ، والنظر إلى وجهه الكريم ، والتي لا يؤثر عليها لذة أخرى ، إلا من حرم من هذه اللذات . إن ألذ المعارف وأشرفها وأشرفها بحسب شرف العلوم ، فإن كان في المعلومات ماهو الأجل والأكمل والأشرف والأعظم من خالق الأشياء كلها ، ومزينها ، ومبدئها ، ومعيدها ، ومدبرها ، ومرتبها ؟

وهل يتصور أن تكون حضرة في الملك ، والكمال ، والجمال ، والبهاء ، والجلال ، أعظم من الحضرة الربانية التي لا يحيط بمبادئ جلالها ، وعجائب أحوالها وصف الواصفين[1] .

ويسوق هنا سؤلاً : كيف ينعم الإنسان بجماله ويشعر بالروعة في محيط جلاله ؟!

وقد أوضحنا فيما سبق أن النفوس الطموحة كلما ازدادت علماً ، ازدادات شعوراً بالنقص ، والكمال لله وحده . هذا بالنسبة للإنسان .

وقد كان من دعاء الرسول ﷺ :

« أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافتك من عقوبتك ، وبك منك ، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » .

هذا هو سيد المرسلين وإمام العارفين ، متذلل بين رب العالمين ، وشاهداً عجز العقل عن [illegible] ، وقصور جميع الخلق عن حقيقة ثنائه ، جلّ الواحد الأحد ، وتقدس القيوم الصمد[2] .

وهنا يهتف أحد العارفين قائلاً :

فلا وصل إلا ذلة وتحيرا ... وهيبة اعظام بعز جلاله
ولا قرب إلا أن تكون مولها ... بذكراه ومستغرقاً بجماله

الفناء في الجمال والجلال :

أولا : تعريف الفناء •

الفناء مصدر فني يفنى فناء ، إذا اضمحل وتلاشى وعدم . وقد يطلق على ماتلاشت قواه وأوصافه مع بقاء عينه[3] .

(١) الغزالي ، أبو حامد : إحياء علوم الدين ، جـ٤ ، ص : ٣٠٨-٣١٠.
(٢) عبد العزيز الديريني : طهارة القلوب والخضوع لعلام الغيوب ، مرجع سابق ، ص : ١٩ .
(٣) ابن قيم الجوزيه : مدارج السالكين ، جـ١ ، ص : ١١٨ .
• من المفيد أن يقف على حقيقة ما ذكرناه بشيء من الشرح والتحليل فليراجع كتابنا : الفناء عند صوفية اليمن والعقائد الأخرى . دراسة مقارنة .

ومن هنا فالفناء هو المقام الذي تضمحل فيه أحوال السائرين ، وتنعدم فيه مقامات السالكين حتى يفنى من لم يكن ، ويبقى من لم يزل . ومعنى هذا أن الفناء يصل العبد فيه إلى انكار الذات بالنسبة لموقفه أمام الرب سبحانه وتعالى وهو لا يعني إلغاء وعي الفرد أو نفي الذات حسب منطق المدرسة الصوفية في مختلف الدوائر أو الطوائف الشاذليه بوجه عام .

إذن فلابد أن ترفض وجود أنفسنا . . أي نعتبر ذواتنا عدماً بجانب الموجود الحق ، ثم نكون على وعي بوجوده وحضوره وصفاته كما تتجلى فينا وفي الوجود الظاهر .

نخلص من ذلك إلى أن الفناء ليس فناء الجسد ولكنه فناء القلب . وكذلك ليس المقصود بالقلب الجسم الصنوبري المكون من لحم ودم ، بل هو سر لطيف إلى القلب الظاهر نسبة خفيه وراءها سر الروح الذي هو من أمر الله عز وجل .

ولقد سئل بعض العارفين عن الفناء ؟ فقال : هو أن تبدو العظمة والجلال على العبد فتنسيه الدنيا والآخرة والدرجات والأحوال والمقامات والأذكار وتغنيه عن كل شيء وعن عقله وعن نفسه وفنائه عن الأشياء وعن فنائه عن الفناء فيفرق في التعظيم[1] .

ويرى الباحث أن هذا التعريف السابق للفناء نجد فيه رباطاً بين الفناء والجمال يوضح عظمة جلال الحق سبحانه وتعالى .

وتنصب دراستنا في الصفحات القادمة على معالجة هذا الموضوع بشيء من التركيز نوضح فيه العلاقة بين الفناء والجمال ، وكذلك العلاقة بينه وبين الجلال .

ثانيا : الفناء في الجمال :

الفناء في الجمال ، إنما يعني بسط الأنس ، ورياض الشهود ، والفاني بالجمال في بسط التجلي ومقامه حضرة الربوبية ، بغيبه عن كونه القبدي ، ومظهره العبدي . وبهذا تلوح له من وراء روحه القدسية نور شمس الروح الكلية[2] .

قال تعالى : « ونفخت فيه من روحي »[3] .

وإذا كان الفناء بالجمال إنما يعني بساط الأنس فإن الأنس بالله حال شريف يكون عند

(١) ابن عطاء الله السكندري : الحكم ، بشرح عبدالله الشرناوي (القاهرة : مطبعة صبيح ، ١٣٩٠هـ) ص : ٤٥ .
(٢) أبو العزائم ، محمد ماضي : شراب الأرواح من فضل الفتاح (القاهرة : دار المدينة المنورة ، ط٣ ، ١٤٠٧هـ) ص : ١٧٩ .
(٣) سورة : الحجر : آية : ٢٩ .

طهارة الباطن وكنسه بصدق الزهد ، وكمال التقوى ، وقطع الأسباب والعلائق ، ومحو الخواطر والهواجس [1] .

فالأنس بالله يلازمة التوحش من غيره ، بل هو ابتغاء لمشاهدة حقيقته العلية ، واجتلاء لطلعة جمال ذاته القدسية .

من هنا يقول الداعى : رب اصحبنى بجمالك وكرمك وحفظك ووقايتك فى سفرى . وحضرى ، واخلفنى على أهلى وإخوانى فى سفرى ، وأشهدنى الجمال فيما أنا مقبل عليهم فى حضرى وترحالى حتى أكون دائم الأنس بجنابك ، وأسمعنى الجمال عمن أنا مفارقهم [2] .

وعن إبراهيم بن أدهم أنه قال : أعلى الدرجات أن تنقطع إلى ربك ، وتستأنس إليه بقلبك، وعقلك ، وجميع جوارحك ، حتى لا ترجو إلا بك ، ولا تخاف إلا ذنبك ، وترسخ محبته فى قلبك ، حتى لا تؤثر عليها شيئاً [3] .

وقيل لرابعة : بم نلت هذه المنزلة ؟ قالت بتركى مالا يعنينى وأنسى بمالم يزل . وأنشدت :

إنى جعلتك فى الفؤاد محدثى وأبحت جسمى من أراد جلوسى

فالجسم منى للجليس مؤانس وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

وعلى ضوء هذا التعريف السابق للأنس عند رابعة فى شعرها نستخلص منه أنها ربطت بين الخلوة والمحبة والأنس والجمال .

فالإنسان من حيث فطرته الإنسانية مستأنس ألوف بما أودع فيه من الجمالات الحقيقية التى ميزته عن جميع الكائنات الأرضية [4] .

وإذا كنا تحدثنا عن الفناء فى الجمال عندما يكون الإنسان فى حال الأنس بالله ، فإننا نستطيع أن نقول : إن الأنس بالله يرتبط من جانب آخر بالخلوة مع الله .

وهنا يحدثنا الإمام أبو العزائم موضحاً العلاقة بين الخلوة والجمال فيقول :

« اجعل لك خلوة مع ربك ، ثم انظر من أنت ، تراك تطفه جملك الرب بجماله ، وسخر

(١) السيد المنوفى : التصوف الإسلامى الخالص (القاهرة : مطبعة نهضة مصر ، ١٩٧٩م) ص : ١٤٩ .
(٢) أبو العزائم ، محمد ماضى : أدعية الغفران فى شهر رمضان ، ص : ٣٧ .
(٣) ابن رجب الحنبلى : جامع العلوم والحكم ، تحقيق محمد الأحمدى أبو النور (القاهرة : مطابع الأهرام التجارية ، ١٩٦٩) جـ١ ، ص ٨٣ .
(٤) أبو العزائم ، محمد ماضى : من جوامع الكلم ، مرجع سابق ، ص : ٢٤ .

لك سماوته وأرضه ومن فيهن . ثم انظر ما تقابل تلك النعم ، وبم تواجه هذا المنعم ، ثم تحقق عن شكره ، ولو ساعدتك الملائكة والرسل وأنت طائع ـ فكيف وأنت تحصل منك المعاصى ؟ وهو يرحمك ويمدك بسوابغ النعم ، وبها لن تنجو من الله . فإذا حصل الحياء ففر منك ومن كونك ، إليه جل جلاله بوجهه الجميل ، فيجعل لك نوراً فى قلبك ، لا تغيب إذا غاب الغافلون ، واجعل لك كل يوم خلوة مع الله ، والله ذو الفضل العظيم » .

ومن دعاء العارف الذى يوضح الفناء فى الجمال قوله :

« إلهى إلهى أزل عن لطائف قلبى أدناس الدنيا والآخرة ، بإشراق شمس أحدية ذاتك ، حتى أشاهد سر محو الظلال إشراق أنوار الأسماء والصفات ، عن حضرة فى مقام تشبيه . وجمل يا إلهى تلك اللطائف بمعانى صفاتك ، حتى يحصل لى بعد غيبتى عنى وفرارى منى ـ فى مقام التكييف ـ سراً اتحادى بتحقيق إيجادى ، وفيض إمدادى . فأكون بك لك بلاكون ، فانياً عنى بمعانى صفاتك بلا أين مجذوباً بحلل : « وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون » . متحققاً بجمال : « قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » حتى يضمحل فى عينى كل شىء بانبلاج نور ظاهرك عن تحقيقى بكل شىء هالك إلى وجهك إلهى إلهى لا تحجبنى عنك بى ، وأشهدنى جمالك ظاهر فى ، حتى أكون لك بك دالاً عليك بنفسى فى نفسى لنفسى دلالا أغيب نفساً ولا طرفه » [1] .

إلهى أعطنى منك ما أحب ، وأعنى بك على ما تحب ، حتى أكون ممتعاً منعماً بما أحبه ، واجعل محبوبى وأنسى بوجهك الجميل ، وصفانى من الاشتغال بغيرك ، واحفظنى من الثقة بغيرك ، واجعل محبوبك لى جذبى إليك بك ، بعوامل حنان ورأفة وتنزل إحسان ولطف وكرم ، وأشهدنى يا إلهى من جمالك العلى ما به أكون عاشقاً لك ، وحققنى يا إلهى بجمالك الذى به أكون معشوقاً لك محبوباً حتى يصل الحب بينى وبينك فأقبل عليك وتقبل على [2] .

إلهى إلهى إنك ألبستنى من حلل جمالك ، ما جعلت لى به وداً أصل به أهلى وإخوانى فاجعل يا إلهى حبى لهم وحبهم لى خالصاً لذاتك .

إلهى لا تخرجنا من تلك الدار الدنيا إلا ونحن قد شهدنا وعلمنا وتحققنا وتمكنا ، ثم أخرجنا بعد ذلك بيمينك ، ثم أشهدنا عند قبض أرواحنا جمالك حتى نخرج فرحين مستبشرين ، واجعل لنا فى البرزخ نور حنان ، يواجهنا حتى تكون قبورنا روضة من رياض الجنة وكن لنا يوم القيامة ، واجعلنا عندك فى مقعد صدق عند مليك مقتدر [3] .

(١) أبو العزائم ، محمد ماضى : أدعية الغفران فى شهر رمضان ، ص : ٢٥ـ٢٦ .
(٢) المرجع السابق ، ص : ٢٧ـ٢٨ .
(٣) أبو العزائم ، محمد ماضى : شرابالأرواح من فضل الفتاح ، مرجع سابق ، ص : ٥٦ .

ثالثاً : الفناء فى الجلال :

الفناء فى الجلال هو ميدان المدافعة ، ومجال الممانعة ، وطريق الرياضة ، ووادى التيه ، سبيل الخوف ، فتنقبض النفس الملكية لشهوده لحالة الكونى ، ومظهره العبدى ومقام حضرة الهوية . فإذا عكف البدن فى البداية على عمل الصالحات . وكان فى كمال التسليم للحكم آيات . وهنا يصبح القلب فى صفاء حتى تكون له لوامع أنس ، فيتوجه بكليته إلى حضرة الألوهية بحسن اليقين وكمال التمكين . فمواجهة معانى الصفات بسر صفا تجعله متحققاً بمعانى الصفات فيكون لوحاً محفوظاً ، منازله من مقامات الجمال والجلال تجعل المواجهة بين الرهبة والرغبة [1] .

رابعا : الفناء بالجمال والجلال :

هذا المقام هو مقام العارف المتمكن والفارق الأمكن صاحب العينين المشرقتين بالشريعة والحقيقة . والقلب المنير بحق اليقين ، واللسان المترجم عن أسرار التنزيل ، وحقائق التأويل ، لسانه يكشف ظلال الآثار ، ويظهر حقائق الأنوار ، فتارة يقربك بهمته ، ويرفعك بعزيمته ، وأخرى بمحقك بإشادته ، ويسقيك بعبارته . حاله القرآن ، ومشربه التحقيق ، وعمله فى نفسه عمل محمدى ، يقف موقف الأدب حال الطلب ، ينظر الناظر إليه فى عمله أحضر من أن يذكر ، وفى حاله فوق أن يوصف ، جمع بين كمال رهبة العبودية ، وجمال الرغبة الوادية .

ويصف لنا الحلاج حال فنائه فيقول :

« إذا أراد الله أن يوالى عبداً من عباده فتح عليه باب الذكر ، ثم فتح عليه باب القرب ، ثم أجلسه على كرسى التوحيد ، ثم رفع عنه الحجب ، فيريه الفردانية بالمشاهدة ، ثم أدخله دار الفردانيه ، ثم كشف عنه الكبرياء والجمال ، فإذا وقع بصره على الجمال بقى بلا هو ، فحينئذ صار العبد فانياً ، وبالحق باقياً ، فوقع فى حفظه سبحانه وبرئ من دعاوى نفسه » [2] .

والجدير بالذكر فى هذا المقام أن الحق سبحانه وتعالى عندما يتجلى على عبده بصفة الجمال فإنه يقع فى حالة السكر يفقد فيها العبد وعيه بذاته وعمن حوله فهو مشغول بالله من غير إحاطة ولا شمول ولا تحديد بكيفية زمانية أو مكانية [3] .

---

(١) أبو العزائم : شراب الأرواح ، مرجع سابق ، ص : ٥٦ .

(٢) أبو الوفا الغنيمى التفتازانى : محاضرات فى التصوف الإسلامى (القاهرة : مطبعة المدنى ، ١٩٨٠م) ص : ١٦ .

(٣) القشيرى : الرسالة ، ص : ٣٧ .

من هنا ينبغى أن نوضح أن الواصلين إلى الله لا يتقيدون لسرعة تنقل التجليات الإلهية وانفعالهم بخواص الأسماء ومظاهر الصفات ، فقد يكون الواصل فى مشهد جمال بظهور اسم من أسماء الجمال ، فيشتد الظهور ويقوى الشهود ، فينتقل من مشهد جمال صرف إلى مشهد جلالى جمالى فيندهش ، وينتقل بسرعة من حال إلى حال ، ولذلك فأهل الله يدعون بأصحاب الأحوال ، وليس فى طاقة المشاهد للجمال الصرف أن يتكلف حالاً من الأحوال المغايرة للحالة الذى به ، لأن الواصل فى كل طرفة عين يمد فيض إلهى وفتح ربانى .

الله جميل يحب الجمال *

يقول الإمام الغزالى : لله الجمال والبهاء والعظمة والكبرياء . . .

كمال التقديس والتنزه لا يكون ولا يتصور إلا للواحد الحق ذى الجلال والإكرام .

والكمال لله وحده ، هو المنفرد بالكمال . . المنزه عن النقص . . المقدس عن العيوب .

والجميل محبوب . والجميل المطلق هو الواحد الذى لا ند له . . . الفرد الذى لا ضدله .

الصمد الذى لا منازع له . . . الغنى الذى لا حاجة له . الذى يحكم لا راد لحكمه ويقضى ولا معقب لقضائه .

الذى كمل معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته . ومنتهى نبوه الأنبياء إقرار بالقصور عن وصفه ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » .

فالمراد بالجمال : الكمال الإلهى ؛ له وحده الجمال والكمال ، كل أسمائه حسنى وكل صفاته كاملة والكامل عز وجل يحب من يسعى إلى الكمال باذلاً قصاراه ليتحلى بالإيمان ، ويتجمل بالخلق ويتزود بالتقوى ، ويتزين بالطاعة ، ويرتفع بالتواضع [1] .

والله جميل ، ومن جميل فعله : عطفه ولطفه ؛ إذ يكلف المؤمن باليسير من العمل ويثيب على اليسير الكثير ، ويمهل العاصين ، ويحلم على الآثمين . قال تعالى :

﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ﴾ [2] .

(*) هذا الحديث رواه عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : « لايدخل الجنة من كان فى قلبة ذره من كبر ، فقال رجل : يارسول الله إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنًا . فقال عليه السلام : إن الله جميل يحب الجمال .

(١) محمود بن الشريف : الحب فى القرآن (بيروت : دار الهلال ، ط١ ، ١٩٨٣م) ص : ٩٩-١٠٠ .

(٢) سورة : فاطر : آية : ٤٥ .

وقال تعالى : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ ولو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب ﴾ (٤) .

وهكذا يتضح لنا أن جمال الحق سبحانه وتعالى عبارة عن أوصافه العليا وأسمائه الحسنى، وأن آيات الله فى الكون متعددة لا يمكن حصرها . وأن كل ما فى الكون يسبح بحمده ويشكر له .

(١) سورة : النحل : آية : ٦١ .
(٢) سورة : الكهف : آية : ٥٨ .

الباب الثالث

حقيقة التفكر وثمرته

الفصل الأول : بـاب التفكـــــر

الفصل الثانى : التفكـر والاعتبـار

الفصل الثالث : طرق المعرفة الكونية

الفصل الرابع : المشاهـدات الكونية

الفصل الأول

بـــاب التفكـــر

ينبغي أن نوضح في البداية أن الفكر قد يجرى في أمر يتعلق بالدين وقد يجرى فيما يتعلق بغير الدين . وإنما غرضنا فيما يتعلق بالدين فلنترك القسم الآخر . ونعني بالدين المعاملة التي بين العبد وبين الرب سبحانه وتعالى . فجميع أفكار العبد إما ان تتعلق بالعبد وصفاته وأحواله وإما أن تتعلق بالمعبود وصفاته وأفعاله ولا يمكن أن يخرج عن هذين القسمين[1] .

والسؤال الآن : ما معنى التفكر ؟

والجواب : معنى التفكر هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة . مثاله : أن من مال إلى العاجلة وآثر الحياة الدنيا وأراد يعرف أن الآخرة أولى بالإيثار من العاجلة فله طريقان :

أحدهما : أن يسمع من غيره أن الآخرة أولى بالإيثار من الدنيا فيقلده ويصدقه من غير بصيرة بحقيقة الأمر فيميل بعمله إلى إيثار الآخرة اعتماداً على مجرد قوله . وهذا يسمى تقليداً أولاً يسمى معرفة .

والطريق الثاني : أن يعرف أن الأبقى أولى بالإيثار ثم يعرف أن الآخرة أبقى فيحصل من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة وهو أن الآخرة أولى بالإيثار ، ولا يمكن تحقيق المعرفة بأن الآخرة أولى بالإيثار إلا بالمعرفتين السابقتين . فإحضار المعرفتين السابقتين للتوصل به إلى المعرفة الثالثة يسمى تفكراً واعتباراً ونظراً وتأملاً وتدبراً[2] .

درجات التفكر :

يبغي أن نوضح في هذا المقام أن للتفكر درجات يمكن توضيحها على النمط التالي :

أولها : التذكر : وهو إحضار المعرفتين السابقتين في القلب .

(١) الغزالي، أبو حامد: الإحياء، جـ٤، ص : ٤١٣ـ٤٢٠ .
(٢) المرجع السابق، ص : ٤١٢ .

وثانيهما : التفكر : وهو طلب المعرفة المقصودة منهما .

والثالثة : حصول المعرفة المطلوبة واستناره القلب بها .

والرابعة : تغير حال القلب عما كان بسبب حصول نور المعرفة .

والخامسة : خدمة الجوارح للقلب بحسب ما يتجدد له من الحال[1] .

وإذا كان التفكر خمسة أقسام كما مر بنا نعود فنقول : التفكر[*] في الآيات والعلامات يجعل صاحبها ناظراً في قدرة الله سبحانه وتعالى فيما خلق الله تعالى من السموات والأرض وطلوع الشمس من مشرقها وغروبها في مغربها واختلاف الليل والنهار ، وفي خلق نفسه فإذا تفكر العبد في الآيات والعلامات يزيد به يقيناً ومعرفة . فالتفكر في ذلك دليل على قدرة الصانع وليعرف الذين يتفكرون أن لهذا الكون صانعاً قادراً ومدبراً حكيماً ومما أورده الردذباري أن التفكر على خمسة أقسام :

الأول : تفكر في آيات الله يتولد منه المعرفة .

والثاني : تفكر في آلاء الله تعالى ونعمائه يتولد منه المحبة .

والثالث : تفكر في وعد الله وثوابه يتولد منه الرغبة والرجاء .

والرابع : تفكر في وعيده وعذابه يتولد منه الخوف والرغبة .

والخامس : تفكر في جفاء النفس مع إحسان الله تعالى إليها يتولد منه الحياء من الله .

ويذكر العلماء أن التفكر هو التحدث بعين البصيرة لإدراك البغية وهو ثلاثة أنواع :

الأول : فكرة في عين التوحيد وفي صفات الكمال ونعوت العظمة والجلال وذلك بحر لا ساحل له ولا ينجى من الغرق في هذا البحر إلا الاعتصام بحبل الله تعالى والتمسك بالعلم الظاهر .

والثاني : الفكرة في لطائف الصنعة وفي أسرار الحكمة وعجائب الإبداع .

والثالث : الفكرة في معاني الأعمال والأحوال .

من هنا قال العلماء : بالتفكر يتوصل إلى الحق إذا كان الفكر مصحوباً بنور التوفيق الإلهي والخطاب الشرعي ، فلو انفرد الفكر العقلي عن مصاحبة الشرع زل وضل ، والفكر الصحيح غاية علم اليقين .

(١) نفس المرجع السابق، ص : ٤١٣ .
(*) قال ابن عباس: الفكرة تذهب الغفلة وتحدث للقلب الخشية. (عبيد الضرير: نزهة الناظرين. القاهرة: مطبعة الحلبي، ط٣، ١٣٧٣هـ، ص : ٢٧٨ـ٢٧٩ .

ومما ينبغى أن يفهم أن الذكر من مقدمات الفكر فلابد من سماع ، ثم تيقظ ، ثم تذكر ، والعلم من لواحق التذكر ، لأن من سمع تيقظ ، ومن تيقظ تذكر ، ومن تذكر تفكر ، ومن تفكر علم ، ومن علم عمل ، ومن عمل سعد ، والسعادة غاية الطلب [1] .

ويذهب أحد العلماء فى هذا الصدد فيقول : خالص الفكر يوصل إلى استقامة القلوب ، واستقامة القلوب توصل إلى الصدق والإخلاص [*] .

ولنعرج الآن لنستكمل الحديث عن درجات التفكر بالشرح والتحليل :

أولا : التفكر فى الآيات والعلامات تجعل الإنسان ناظراً متأملاً فى ملك الله سبحانه وتعالى يزيد يقينه بالله سبحانه وتعالى .

ثانيا : التفكر فى الآلاء والنعم فإنه ينظر إلى نعم الله تعالى . وسئل بعض الحكماء عن الفرق بين الآلاء والنعم فقال : كل ما ظهر من النعم فهو من الآلاء وما بطن فهو من النعماء ، ومثل ذلك : اليدان آلاؤه وقوة البدين نعماؤه ، والوجه آلاؤه وحسن الوجه نعماؤه ، والفم آلاؤه وطعم الطعام نعماؤه ، والرجلان آلاؤه . فإذا كان للعبد رجلان ولم يكن له قوة المشى فقد أعطى الآلاء ولم يعط النعماء ، والعروق والعظام آلاؤه وصحتها وسكونها نعماؤه .

وقال بعضهم الآلاء والنعماء واحد . قال تعالى : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » . (الآية) . فإذا تفكر الإنسان فى الآلاء والنعماء يزيد فى المحبة .

ثالثاً : التفكر فى ثوابه . وأما التفكر فى ثوابه فهو أن يتفكر فى ثواب ما أعد الله لأوليائه فى الجنة من الكرامات ، فإن التفكر فى ثوابه يزيده رغبة فيها واجتهاداً فى طلبها وقوة فى طاعة ربه .

رابعاً : التفكر فى عقابه : وهو أن يتفكر فيما أعد الله لأعدائه فى النار من الهوان والعقوبة والنكال فإن التفكر فى ذلك يزيده رهبة ويكون له قوة على الامتناع من المعاصى .

خامساً : التفكر فى إحسانه . وأما التفكر فى إحسانه إليه ، فهو أن يتفكر فى إحسان الله تعالى وهو ما ستر عليه من ذنوبه ولم يعاقبه بها او دعاه إلى التوبة وينظر فى جفاء نفسه كيف ترك أوامره وارتكب معاصيه فإن التفكر فى ذلك يزيد الحياء والخجل [2] .

فإذا تفكر الإنسان فى هذه الخمسة أشياء فهو من الذين قال فيهم النبى ﷺ : « تفكر ساعة خير من عبادة سنة » . (الحديث) .

---

[1] عماد الدين الأموى : حياة القلوب، هامش قوت القلوب لأبى طالب المكى (بيروت : دار صادر بدون تاريخ) جـ٢ هامش ص : ١٠٦ .

[*] قمنا بدراسة مستقلة حول هذا الموضوع فى مؤلف آخر أسميناه : «الاستقامة الشرعية» .

[2] السمرقندى، نصر بن إبراهيم : تنبيه الغافلين (القاهرة : دار إحياء الكتب العربية، د.ت) ص : ٢٠٦ .

فالدنيا لم تخلق لينظر إليها بل ينظر بها إلى الآخرة .

وهذا ما أوضحه القرآن فى أكثر من آية تدعو إلى الحث على التفكر فى مخلوقات الله عز وجل فليتفكر الإنسان فى السماء وعظمها وكواكبها وشمسها وقمرها وما فيها من كواكب ولله تعالى فيه حكمه فى لونه وشكله وموضعه .

وقد قيل : إن الشمس مثل الأرض مائة ونيفا وستين مرة وإن أصغر كوكب فى السماء مثل الأرض ثمان مرات . فإذا كان هذا قدر كوكب واحد فانظر إلى كثرة الكواكب وإلى السماء التى ترى فيها الكواكب وإلى إحاطة عينك ذلك مع صغرها [1] .

من هنا كانت حقيقة التفكر أن يكون المرء دائماً متوجهاً إلى الله وبالله ومع الله فيتحلى قلبه بالرضا وإسقاط التدبير مع الله . وذلك تصديقاً لقوله تعالى

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ [2] .

وبذلك ينشرح الصدر من نور اليقين . وهنا ينبغى أن نؤكد أنه إذا تمكن النور من الباطن اتسع الصدر ، وانفتحت عين البصيرة ، وعاين حسن تدبير الله تعالى . وبذلك يعيش المرء وفقاً للتعاليم الشرعية من زهد فى الدنيا ، ومداومة للعبادة ، وبصر بأمور الدين ، وإدراك البواطن الروحية التى تنطوى عليها العبادات .

التفكر يدعو إلى العمل والخير :

التفكر يدعو إلى العمل ، وكذلك يدعو إلى الخير . ويبين الحق سبحانه وتعالى أن من يتفكر فى دلائل الله وآياته يهتدى إلى الحق . ولقد عرضنا فى حديثنا السابق من هذا البحث آيات كثيرة من القرآن تدل على ذلك . منها قوله تعالى :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [3] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ

---

(١) المرجع السابق، ص : ٢٧٩ .

(٢) سورة : يونس : آية : ٢٢ .

(٣) سورة : آل عمران : الآيتان : ١٩٠، ١٩١ .

وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ (١) .

وغير ذلك من الآيات الكثيرة التى تدعو إلى التفكر والتأمل فى شتى الأمور وتبين أن من يتفكر فى ذلك تفكيراً سليماً يهتدى إلى الحقائق لا محالة ثم إن الإسلام أمر المؤمن ألا يبدأ بعمل ولا يسلك مسلكاً إلا بعد دراسته وإحاطته علماً لأن العلم بشىء يقوى عزمه عليه . ولهذا قال تعالى :

﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾(٢) .

التفكر فى الآيات الكونية :

الآيات الكونية التى تدل على بديع صنع الله قد جاء ذكرها فى القرآن الكريم . وهذه الآيات من الأمور الجديرة بالتفكير ، للاستدلال على عظمة الخالق جل شأنه (٣) .

ولقد قال عمر بن عبد العزيز : « الفكرة فى نعم الله عز وجل من أفضل العبادة » .

وقال عبد الله بن المبارك يوماً لسهل بن على ورآه ساكتاً متفكراً : أين بلغت ؟ قال : الصراط .

وقال بشر : لو تفكر الناس فى عظمة الله ما عصوا الله عز وجل (٤) .

وقال أبو سليمان الدارانى : « الفكر فى لدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية ، والفكر فى الآخرة يورث الحكمة ويحيى القلوب » .

وهنا ينبغى أن نوضح أن الإرادة تقوى بالتأمل والتفكر . ولهذا نجد الإسلام يدعو باستمرار إلى التأمل والتفكر فى الموضوعات المختلفة ، وفى المناظر المثيرة والمدهشة فى الكون ، وفى المبادئ التى جاء بها(٥) .

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ (٦) .

ومن أروع من سجله الغزالى فى هذا المقام ننقل منه طرفاً أورده عن العالم قال فيه :

(١) سورة : البقرة: الآية : ١٦٤ . (٢) سورة : الإسراء: الآية : ١٣٦ .
(٣) يوسف البدرى: سورة يس (القاهرة: دار الاعتصام، د.ت) ص: ١٥١ .
(٤) الغزالى، أبو حامد: المرغوب من مكاشفة القلق (القاهرة: مطبعة الشرقى، ١٩٨١م) ص: ٣٤٥ .
(٥) محمد سلامة محمد غبارى: مدخل علاجى جديد لانحراف الأحداث (الإسكندرية: المكتب الجامعى الحديث: ١٩٨٥) ص: ٢٧٢ .
(٦) سورة : سبأ : آية : ٤٦ .

« فالعالم هو السلم إلى معرفة الله سبحانه وتعالى ، كما أنه الخط الإلهى المكتوب المودع المعانى الإلهية ، والعقلاء على اختلاف طبقاتهم يقرونه حتى يستطيعون الوصول إلى الحكمة التى وضعت دالة على الله مثل قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾(١) . ولم يتوصل الإنسان إلى المعرفة إلا بجد وتفكر وقوة مفكرة ، خصته الحكمة الإلهية بأن جعلته دفتراً حيث يستدل بما شاهد فى نفسه على مالم يشاهد ، فيكون ضرباً من التمثيل والاستقراء الذى يقاس به الشاهد على الغائب وهو طريق الأنبياء جميعاً (٢) .

من هنا يرى الغزالى أن صاحب الفكر الذى ملأ قلبه من حال التعظيم لله عز وجل يلهم بالحكمة . فإن « حقيقة الحكمة » تنال من العلم اللدنى وما لم يبلغ الإنسان هذه المرتبة لا يكون حكيماً لأن الحكمة من مواهب الله تعالى .

من هنا يصبح التفكر باباً من أبواب العلم اللدنى إذا تفكرت النفس تعلمت وارتاضت بالعلم ، ثم تفكرت فى معلوماتها بشروط التفكر يتفتح عليها باب الغيب ، فالمتفكر إذا سلك سبيل الصواب يصير من ذوى الألباب ، عالماً كاملاً عاقلاً ملهماً مؤيداً (٣) .

ولقد قال رسول الله ﷺ : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمن على الله ! » (٤) .

لذلك كان على الإنسان أن يتفكر دائماً فى ملك السموات والأرض من النعماء ، وخفى الألطاف ، وغرائب الصنع ، وعجائب القدرة للحق سبحانه وتعالى لأن كثرة التفكر تورث الحكمة .

إن دوام النظر وسياحة الفكر لها أهميتها بالنسبة للإنسان وهى ترتبط بالمحبة والمعرفة وفى هذا يقول أبو طالب المكى : « من عرف الله أحبه ، ومن أحبه نظر إليه » (٥) .

ولهذا قال بعض الصالحين : « من دخل إلى الدنيا وهو عنها حر ، ارتحل إلى الآخرة وهو عنها حر » .

(١) سورة : فصلت: آية : ٥٣ .
(٢) السيوطى، جلال الدين: صوت المنطق والكلام، تحقيق على سامى النشار (القاهرة: طبعة الخانجى، ١٩٤٧) ص ١٢٨ .
(٣) الغزالى: الرسالة اللدنية، ضمن رسائل الإمام الغزالى، ص : ١١٤-١١٦ .
(٤) رواه الترمذى: النووى: رياض الصالحين (الإسكندرية : دار القادسية، د.ت) ص : ٢٩ .
(٥) أبو طالب المكى: قوت القلوب (لبنان : دار صادر، د.ت) جـ٢، ص ٥٤-٥٥ .

والدليل على ذلك قول بعض السلف : أنت محتاج إلى الدنيا وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج . فإذا بدأت بنصيبك من الآخرة مر على نصيبك من الدنيا [1] .

فالنظر فى الأمور نجاة من الغرور ، والعزم فى الرأى سلامة من التفريط ، والندم والروية والفكر يكشفان عن الحزم والفطنة ، ومشاورة الحكماء ثبات فى النفس وقوة فى البصيرة . ففكر قبل أن تعزم ، وتدبر قبل أن تهجم ، وشاور قبل أن تقدم [2] .

فمن تأمل بعين الاعتبار انفتحت عين بصيرته وانكشف له علل القلوب وأمراضها وأدويتها بنور العلم واليقين [3] .

من هنا قال الحسن البصرى فى موعظته إلى عمر بن عبد العزيز . أما بعد : فإن رأس ما هو مصلحك ومصلح به على يدك : الزهد فى الدنيا ، وإنما الزهد باليقين ، واليقين بالتفكر ، والتفكر بالاعتبار ، فإذا أنت تفكرت فى الدنيا لم تجدها أهلاً أن تبيع بها نفسك ، ووجدت نفسك أهلا أن تكرمها بهوان الدنيا ، فإن الدنيا دار بلاء ومنزلة غفلة [4] .

من ثمة أن أبا الحسن البصرى ربط بين الزهد فى الدنيا ، وعلم اليقين ، واليقين بالتفكر ، فعلم اليقين ، والتفكر المؤسس على العبادة ، والإيمان ، ومداومة مراقبة النفس تأمنياً لطريق الوصول ، فكل من اتبع طاعة الله لزمته مودته . ومن صحح باطنة بالمراقبة والإخلاص زين الله ظاهرة بالمجاهدة ، واتباع السنة [5] .

وفى ذلك يقول صاحب : « التوهم إن أهوال يوم القيامة إنما تخفف على أولياء الله عز وجل الذين توهموها فى الدنيا بعقولهم فعظم خطر النجاء عندهم ، فتحملوها من ثقل همومها فى الدنيا على قلوبهم وحرقة خوفها على ضرورتهم فخففها فى القيامة بذلك عليهم مولاهم [6] .

ومما يروى عن عيسى عليه السلام أنه كوشف بالدنيا فرآها فى صورة عجوز شوهاء عليها من كل زينة . فقال لها : كم من الرجال تزوجت ؟ فقالت : لا أحصيهم . فقال لها :

---

(١) ابن تيمية : مجموعة الرسائل والمسائل (مصر : المطبعة الشرقية : ٣٢٣هـ) جـ١ ، ص : ٢٣٨ .
(٢) الغزالى ، أبو حامد : المرغوب من مكاشفة القلق ، مرجع سابق ، ص : ١٥٨ .
(٣) الغزالى ، أبو حامد : مكاشفة القلوب ، تقديم محمد رشيد القباني (القاهرة : مكتبة الزهراء ، ط١ ، ١٤٠٣هـ) ص : ٣٤٥ .
(٤) عبد الرحمن بدوى : تاريخ التصوف الإسلامى (الكويت : وكالة المطبوعات ، ط١ ، ١٩٧٥م) ص : ١٦٣ .
(٥) القشيرى : الرسالة ، مرجع سابق ، ص : ١٢ .
(٦) المحاسبى ، الحارث بن أسد : التوهم (القاهرة : دار الوعى ، ١٣٩٩هـ) ص : ٢٧-٢٨ .

أيطلقونك أم يموتون عنك ؟ فقالت : بل قتلت كلهم . فقال عيسى عليه السلام عجباً لازواجك الباقين كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين ؟ ! [1] .

فإذا استقام العقل وصح اليقين بإمعان النظر فى أحوال الدنيا السريعة الذهاب سريعة الانقلاب ، واعمال الفكرة فى الآخرة ونعيمها الذى لا انقضاء له ، فإذا نظر بعين بصيرته ، وتدبره بحسن قريحته صح له رفض الدنيا والإقبال على الآخرة ولا يدرك أحد إلا بفضل الله عز وجل [2] .

فمن طال فكرة فى معرفة الله سبحانه وتعالى قد ينكشف له من أسرار ملك الله وغير الشيء اليسير فإنه يصادف قلبه عند حصول الكشف من الفرح ، بل يكاد يطير به ويتعجل من نفسه فى ثباته واحتماله لقوة فرحة وسروره ، وهذا مما لا يدرك إلا بالذوق .

وعليه يمكن القول أن الذى يعرف أن الله رب ، وأنه عبد ، فيفرق بين مقام الربوبية وبين مقام العبودية فلا يشعر بحوله ولا قوته ، وإنما تنعقد إرادته مع الله تعالى ، فلا يرضى إلا بما يرضى الله عنه ، ولا يكره إلا ما ينهى الله عنه عبد متوكل عليه بالكلية مسقط التدبير لا يجد لنفسه شيئاً غير ما يعطيه الله سبحانه وتعالى له [3] .

هكذا يصبح المؤمن فى الدنيا كالغريب لا يجزع من ذلها ولا ينافس فى عزها له شأن والناس شأن [4] .

فالمؤمن فى الدنيا كالغريب المجتاز ببلده غير مستوطن فيها فهو يشتاق إلى وطنه وهمه الرجوع إليه ، والتزود بما يوصله فى طريقه إلى وطنه ولا ينافس أهل ذلك البلد الذى هو وطن فيه فى عزهم ولا يجزع مما أصابه عندهم من الذل .

ومما روى عن نبى الله نوح عليه السلام أنه عاش ألف عام إلا خمسين . ولما سئل عن الدنيا أجاب : ما وجدت الدنيا إلا داراً دخلت فيها من باب وخرجت من الآخر [5] .

من هذه الموعظة الحسنة لنبى معصوم فاض النجربة الدنيوية مئات السنين ، نجد التأمل أنه لا أمل له فى توثيق عرى الصداقة مع الدنيا ، إذ لا أمن معها ولا أمان لها .

---

(١) محمد شاهين حمزه : السيدة نفيسه (القاهرة : مطبعة الجندى ، ط٢ ، ١٩٧٠م) ص : ١٤ - ٤٠ .
(٢) ابن عبدالله الباهلى الأشبيلى : الذخائر والأعلاق فى آداب النفوس ومكارم الأخلاق (: المطبعة الوهبية ، ١٢٩٨هـ) ص : ٦٨ - ٦٩ .
(٣) الشعرانى : الكوكب الشاهق ، تحقيق حسن الشرقاوى (الإسكندرية : دار المعارف ، ١٩٨٠م) ص : ٢٣ - ٢٨ .
(٤) ابن رجب الحنبلى : كشف الكربة فى وصف أهل الغربة (القاهرة : دار الفتح ، ١٤٠٠هـ) ص : ١٤٢ .
(٥) حسن الشرقاوى : نحو تربية إسلامية (الإسكندرية : مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٨٣م) .

التفكر في النفس :

إن الحق سبحانه وتعالى جعل للنفس البشرية أهمية لا تقل عن أهمية السموات والأرض ، وسائر الآفاق . . . وقد تكرر مثل هذا في قوله تعالى : ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ﴿٢٠﴾ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ (١) . فجعل الحق سبحانه وتعالى آياته في النفس البشرية في مقابل آياته في الأرض بما فيها بحار وجبال ، ورياح وأمطار ، ودواب ، وأشجار ، وليل ونهار ، ومواصف ، وزلازل إلى آخر ذلك من الآيات .

بل فضل الله الإنسان من بعض الوجوه على الجبال والسموات والأرض ، فحمله الأمانة من دونهن . قال تعالى : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ (٢) .

ولقد أمر الله سبحانه وتعالى الإنسان بالتفكر في نفسه فإن في خلقه من العجائب الدالة على عظمة الله . قال تعالى : ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ .

فإذا تفكر الإنسان في ذلك ازداد بذلك يقيناً ومعرفة . ومن ذلك تفكره في إنعام الله عليه . قال تعالى : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ .

ومن ناحية أخرى إذا ما تفكر الإنسان على ما فرط فيه من الذنوب فعمل على تصفية نفسه بالاستغفار وإخلاص الإنابة والاعتذار وجدد عقد الاستقامة فيكون له بهذا الاستغفار من الله عز وجل تحية وكرامة (٣) .

ولذلك يصبح الإنسان طائعاً لله تعالى تائباً توبة نصوحا تتميز بأنها موصولة بالماضي بالندم على ما سلف ، ومتصلة بالحاضر بالإقلاع عن الذنب ، ومرتبطة بالمستقبل بالعزم على اجتناب المعاصي (٤) .

والتوبة النصوح هي تلك التوبة الصادقة الخالصة الخالية من الآثام والمعاصي (٥) .

ومما يذكر أن بعض العارفين بالله تعالى اجتاز مرة في بعض سياحته براهب في صومعة على رأس جبل ، فوقف بإزائه فناداه : يا راهب ، فأخرج الراهب رأسه من صومعته وقال :

(١) سورة : الذاريات : الآيتان : ٢٠-٢١ .
(٢) سورة : الأحزاب : الآية : ٧٢ .
(٣) أبو طالب المكي : قوت القلوب ، مرجع سابق ، جـ٢ ، ص : ١٠٠ .
(٤) عبد الباري محمد داود : دراسة إسلامية عند المتكلمين والفلاسفة والصوفية ، مرجع سابق ، ص : ١٥٠ .
(٥) عبد الحليم محمود : القرآن والنبي (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٩م) ص ٢٢٨ .

من ذا ؟ قال : رجل من أبناء جنسك الآدميين . قال : فما ذا تريد ؟ قال : كيف الطريق إلى الله ؟ قال الراهب : في خلاف الهوى . قال : فما خير الزاد ؟ قال : التقوى . قال : تباعدت عن الناس ، وتحصنت في هذه الصومعة (١) .

ونخلص من الحوار السابق بين العارف والراهب أنه دعوة إلى تصفية النفس من كدورات البشرية حتى تمتلأ النفس بالفكر وتنقطع إلى الله من ربقة الاستعباد المادي .

وهنا يصبح المرء مشغولاً بفكره وقلبه متوجهاً إلى الله ساكناً إليه فاراً من الناس (٢) .

ومن هنا أيضاً يصبح الإنسان ألا يكون مستعبداً لشيء مادي أو معنوي في هذه الحالة ، وإنما العبودية الحقه هي لله وحده .

وبذلك تصبح الحياة الروحية هي الحياة التي يخضع فيها الإنسان لألوان مختلفة من مجاهدة النفس ، وكشف حجاب الحس ، وتصفية القلب وتنقيته من أدران الشهوة والهوى ، وقطع العلائق المادية التي تفسد عليه صلته بربه وصلته بأشباهه ثم هي بعد ذلك كله تأمل في الكون ، وزهد في متاع الدنيا وجاهها ابتغاء الظفر برضوان الله .

فإذا حقق العبد ما ذكرناه هانت عليه دنياه وجد في طاعة مولاه . فيبادر إلى التفكر في الموت وسكراته وفي حال ماضي من إخوانه وأقاربه وأقرانه وكيف كانوا وإلى أين صاروا وأنه صائر إلى ما صاروا إليه وقادم على ما قدموا عليه ، فإن التفكر في ذلك يحمل على الخوف والخشية وقصر الآمال والمبادرة إلى التوبة وإلى صالح الأعمال .

وهذا بالضرورة يجعل الإنسان أن يتفكر في أحوال القيامة وكيف يحشر الناس حفاة عراه إلى أرض المحشر ، وفي ازدحام الناس وقرب الشمس من رؤوسهم وشدة العرق مع ما في قلوبهم من القلق . فإن التفكر في ذلك كله يدعوه إلى فعل الخيرات والتأهب للوقوف بين يدي عالم الخفيات .

وينسحب بالضرورة أيضاً في هذا المقام باب التفكر وحقيقته وثمرته في الجنة والنار . فيتفكر فيما أعد الله لعباده الصالحين في الجنة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر : فإن التفكر في ذلك يزيده رغبه فيها وقوة على طاعة الله عز وجل .

وكذلك يتفكر في نار جهنم أعاذنا الله منها وشدة حرها . فإن التفكر في ذلك يزيده خوفاً ويزجره عن معاصي الله عز وجل .

ويترتب على ذلك أن يتفكر إذا حدثته نفسه بمعصية فإن الله سبحانه وتعالى مطلع عليه وناظر إليه وأنه أقرب إليه من حبل الوريد ويستحضر قوله تعالى :

(١) ابن عربي : الموعظة الحسنة (القاهرة : عالم الفكر ، ط١ ، ١٤٠٨هـ) ص : ١٣ .
(٢) الشعراني ، عبد الوهاب : الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية ، تحقيقنا ، رسالتنا لدرجة الماجستير ، غير منشورة . (الإسكندرية : كلية الآداب ، ١٩٨٧م) ص : ٣٠٤ .

﴿ وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾ .

فإن التفكر فى ذلك يحمله على الحياء من الله سبحانه وتعالى والامتناع عن المعاصى [1] .

ويحدثنا سفيان بن عيينه فيقول : إن الدهر كله عند الله يومان أحدهما مدة أيام الدنيا والآخر يوم القيامة ، فالشأن الذى هو فى اليوم الذى هو مدة الدنيا الاختيار بالأمر والنهى والإحياء والإماتة والاعطاء والمنع ، وشأن يوم القيامة الجزء والحساب والثواب والعقاب [2] .

فليكن هم العاقل فى إقامة حق الله والرضا بتدبيره [3] . وحتى نظف المرء طرق الإجابة من أدران الذنوب ، وصبر على ما يقضيه الحق سبحانه وتعالى له ، فكان كل ما يجريه الحق أصلح للمرء ، إن كان عطاءً أو منعاً .

وهنا يتجرد المرء من إرادته وحوله وقوته وأصبح لا يشعر بوجود غير وجود الحق فيلهم بالمتن والعطايا والفتوحات والكشوفات عن حقائق الأشياء . وبذلك يكون له علم وتجربة روحية يرقى فيها للوصول إلى الحق بنفسه متصفاً بالأوصاف الإلهية ومتخلقاً بالأخلاق الربانية . وبذلك يصبح ولى من أولياء الله عز وجل . يتولى الحق سبحانه وتعالى أمره فلم يكن له عن نفسه أخبار ولا مع غير الله تعالى قرار . شغله بالله ، وفراره إليه ، وهمه إليه [4] .

وقيل : إن إبراهيم بن أدهم قال لرجل : أتحب أن تكون لله ولياً ؟ فقال : نعم ، فقال : لا ترغب فى شىء من الدنيا والآخرة ، وفرغ نفسك لله تعالى وأقبل بوجهك عليه ليقبل عليك ويواليك . فالولى عبد مشغول بالله حتى يتولاه من فضله ولطفه .

وسئل الواسطى . كيف يغذى الولى فى ولايته ؟ فقال : فى بدايته بعبادته ، وفى كهولته بستره بلطافته ، ثم يجذبه إلى ما سبق له من نعوته وأوصافه ، ثم يذيقه طعم قيامه به فى أوقاته[5] .

وفى القرآن الكريم شواهد تدل على أن الله سبحانه وتعالى اختص بعض عباده بالقرب منه . ويتضح ذلك فى تلاوتهم للقرآن لما يحدث لهم من الحضور التام بالقلب فى الحضرة الإلهية ومناجاة الله بكلامه . والخضوع التام للأمر والنهى فتنحصر طريقة الاستنباط عند هؤلاء فى تلاوة سور القرآن وآياته وتكرارها وتدبر معانيه وألفاظه . ولا ينتقلون من آية إلى

(١) عبيد الضرير : نزهة الناظرين ، ص : ٢٧٩ .
(٢) المرجع السابق ، ص : ٢٨٤ .
(٣) ابن الجوزى : صيد الخاطر ، مرجع سابق ، ص : ٢٨٤ .
(٤) القشيرى : الرسالة ، مرجع سابق ، ص : ١١٧ .
(٥) القشيرى : الرسالة ، مرجع سابق ، ص : ١١٨ .

أخرى حتى يشاهدوا معانيها ، ويفتح الله عليه مع حضور القلب وجمع الهمة والاشتغال بما هم فيه دون غيره . فيحزنون للوعيد ، ويفرحون للوعد ، ويشعرون بالخشية والرهبة عند تلاوة آيات الوعيد والاعتبار ، فيمن الله عليهم ويكشف لهم معانيها وأسرارها ويفتح عليهم بما يستغلق على غيرهم فهمه ، فهم أصحاب فقه القلوب .

وفى هذا الصدد يقول أحمد بن أبى الحوارى : « إنى لأقرأ القرآن فأنظر فى آية فتنجار عقلى فيها [1] .

فالحيرة بديهة ترد على قلوب العارفين عند تأملهم وحضورهم وتفكرهم تحميهم عن التأمل والفكر ، فهى منازلة تتولى قلوب العارفين بين اليأس والطمع فى الوصول إلى مطلوبة ومقصوده لا تطمعهم فى الوصول فيريحوا ولا تؤيسهم عن الطلب فيستريحوا . فعند ذلك يتحيرون [2] .

والحق سبحانه وتعالى اختص من عباده قوماً احتباهم للدار الآخرة فشغلهم بها ، فأجسامهم فى الدنيا عاملة على نوال الخطوة ، التى تحققوا يقيناً بأنها ولا محالة كائنة ، ولابد من الرجوع إليها ، وأنها لا تنال السعادة فيها إلا بنوال الوسيلة إليها فى تلك الدار الدنيا [3] .

والجدير بالذكر أن السير فى طريق المجاهدة فرع من الهداية يمنحها الله من يشاء من عباده . لقوله تعالى : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإيمان » .

فالحقيقة موهبه من الله وتفضلاً بعضها اكتساباً ينمى بالجهد والمجاهدة والدربة والمران مع وجود الأساس والجوهر الفعال وهو الشفافية الروحية ورقة الوجدان وصفاء الذوق . وبذلك يصل العبد إليها بإيصال الحق تعالى إياه . فيقول الخراز تدليلاً على ذلك :

« عبد موقوف عند الحق بالحق للحق » . يعنى موقو مع الله بالله لله . وكذلك : « منه به له » . أى : « من الله بالله لله » .

واستناداً لهذا الفهم قال الخراز أيضاً : فمن شاهد الله بقلبه خنس عنه مادونه وتلاشى كل شىء وغاب عند وجود عظمة الله تعالى ، ولم يبق فى القلب إلا الله عز وجل . وهو يرى أن القرب من الله هو طهارة القلب من كل الأشياء وسكون القلب مع الله .

ويفسر ذلك الطوسى بقوله : إن العبد يكون ناظراً إلى أفعاله ويضيف إلى نفسه أفعاله فإذا

(١) أبو نعيم الأصبهانى : حلية الأولياء ، ج ١ ، ص : ٢٢ .
(٢) الطوسى ، أبو نصر السراج : اللمع ، مرجع سابق ، ص : ٤١١ .
(٣) أبو العزائم محمد ماضى : شراب الأرواح ، مرجع سابق ، ص : ١٥٤ .

غلب على قلبه أنوار المعرفة يرى جميع الأشياء من الله قائمة بالله ؛ معلومة إلى الله مردودة إلى الله [1] .

وكذلك يبين لنا السراج الطوسى الفرق بين الفكر والتفكر فيقول : إن التفكر هو جولان القلب ، والفكر وقوف القلب على ما عرف ، فالتفكر صحة الاعتبار ، والفكر ما ملأ القلب من حال تعظيم لله تعالى . فالفكر فى قيام الأشياء بالحق .

كما يروى لنا الطوسى حاكياً عن الجنيد : « أنه سئل عن اليقين . فقال : اليقين ارتفاع الشك . لأن أول اليقين الثقة بما فى يد الله تعالى ، ونهايته التصديق بالغيب بإزالة كل شك وريبه واستبشار وحلاوة المناجاة وصفاء النظر إلى الله تعالى بمشاهدة القلوب بحقائق اليقين ، بإزالة العلل ومعارضة التهم .

يفهم من ذلك أنه فى حالة تجلى الله للعبد ، فلا حاجة إلى البصر أو القلب ، فالكل بالنسبة إلى قدرة الله واحدة . ويؤيد ذلك قول الغزالى : « . . . . لأن نور النفس إذا أتم إشراقه ، تأدى إلى البدن ، ولذلك عول أصحاب الفراسة فى معرفة مكارم النفس ، فقالوا : الوجه والعين مرآة الباطن .

وإذا كنا قد تحدثنا فى موقف سابق أنه لا ينبغى على الإنسان أن يتفكر فى ذات الله . وهنا نوضح موقف سهل عندما تكلم عن الصفات الإلهية وخاصة صفات الذات . فقد سئل عن ذات الله تعالى . فقال :

« ذات الله موصوفة بالعلم ، غير مدركة بالإحاطة ، ولا مرئية بالأبصار فى الدنيا ، وهى معروفة بحقائق الإيمان من غير حد ، ولا حلول ، وتراه العيون فى العقبى ظاهراً فى ملكه ، وبصفاته ، وقد حجب الخلق سبحانه وتعالى عن معرفة كنه ذاته . ودلهم عليه بآياته . فالقلوب تعرفه ، والأبصار لا تدركه ، ينظر إليه المؤمنون بالأبصار من غير إحاطة ، ولا إدراك كيفوفة » [2] .

ويرى الشبلى الله سبحانه وتعالى عن كل شىء فيقول :

« الله تعالى موجود عند الناظرين فى صنعه ، مفقود عند الناظرين فى ذاته » [3] .

ويرى أنه لا نتفق مع الشبلى فيما ذهب إليه بصدد قوله السابق : مفقود عند الناظرين فى ذاته

---

[1] أبو نصر السراج الطوسى : اللمع ، مرجع سابق ، ص : ٤١١ .
[2] عبد الكريم القشيرى : الطبقات الكبرى ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص : ٦٧ .
[3] أبو نعيم الأصبهانى : حلية الأولياء ، ج ١ ، ص : ٣٦٨ ـ ٣٧١ .

بالنسبة لتنزيه الحق . فهذا اللفظ لا ينسجم مع ظاهر الشريعة الإسلامية ، وكان الأجدر به أن يقول : محجوب عند الناظرين فى ذاته .

لذلك وجب على الإنسان أن يتحرر من كل شىء يجعله مستعبداً لغير الله سبحانه وتعالى . فكون الأكوان معك يقتضى ملكك لها ، واستغناؤك عنها ، وهى حينئذ حر عنها وهى محتاجة إليك ، وفاوته لك . هذا هو المعنى الحقيقى فى الإسلام أن تملك وتهجر بمعنى أن تملك الشىء ولا تكون عبداً له [1] .

من هنا كانت المشاهدة هى السر النورانى الذى يقذفه الله فى قلب عبده المؤمن ، وسر السر هى الرابطة التى تربط بين العبد وربه ، وهى النور الذى بتمامه يؤثر فى زيادة الكشف ولهذا لا يفوز بدرجة النظر والرؤية إلا العارفون بالله فى الدنيا ، لأن المعرفة هى السر الذى ينقلب فى الآخرة مشاهدة . فمن لم يعرف الله تعالى فى الدنيا ، فكيف يراه فى الآخرة ؟ !

ومن هنا أيضاً يتضح السر الذى وفر فى القلب تفضلاً من الله ولطفاً بعبده المؤمن الذى وقر الإيمان فى قلبه وهو سر العبودية بالله تعالى ، فأهل العرفان يؤثرون دائمه ومطالعة وجهه الكريم عن كل شىء حتى عن لذة العلم والمعرفة والاطلاع على أسرار الربوبية ، فكل مطمعهم مطالعة وجهة الكريم ، فهم مشغولون به عن سائر الخلق ، وذلك كشف للنفس آفاق الملكوت ، وهذا لا يتحقق إلا بتجرد النفس من شهوات البدن .

يفهم من ذلك أن النفس عندما تترقى عن الآلات البدنية تسرح فى فضاء المشاهدات الباطنية والوجدانية وهذه يحظى بها الأولياء أهل العلوم الدينية والمعارف الربانية فتكون سياحه نفسية فى الكون لهؤلاء الأخيار الذين يسيحون فى الأرض للتفكر والتدبر فى خلق الله عز وجل [2] .

نخلص مما تقدم إلى الحقائق التالية :

١ ـ أن اهتمام الإنسان بنفسه وبجنسه البشرى أكبر من اهتمامه بما حوله من الكائنات ، ومن هنا اكتشف علم النفس أن عاطفة اعتبار الذات لها من قوة التحريض وبعث الاهتمام ، ما لا يقل عن سائر الغرائز والدوافع الأخرى عند الإنسان ، ولما كان القرآن الكريم كتاب هداية يستحوذ على اهتمامنا ، جعل الله لآياته فى أنفسنا من الوزن مثل فالآيات الله فى الآفاق .

---

[1] أبو الوفا الغنيمى التفتازانى : الإنسان والكون (القاهرة : دار الثقافة للطباعة والنشر ، ١٩٧٥م) ص : ٩٤ .
[2] محمد جلال شرف : دراسات فى التصوف الإسلامى (الإسكندرية : دار الفكر الجامعى ، د.ت) ص : ٤٤٧ .

٢ ـ إن احتكاك الإنسان بالبيئة ، سواء البيئة الاجتماعية أم الطبيعية ، أم الكونية ، يجعله يتعرف على كثير من طبائعه وخصائصه التى فطره الله عليها من هلع وجزع أو بخل أو طمع ، أو خصومة وجدل ، أو ضعف أو وجل . . .

لذلك نجد بعض النصوص القرآنية ، تعرض لنا بعض هذه الطبائع من خلال تعرض الإنسان لبعض الحوادث الكونية ، كالعواصف البحرية ، أو بعض الظواهر العضوية أو الاجتماعية ، كتطور الأجنة فى الأرحام ، وكالتزاوج بين الأنام .

وبهذا العرض القرآنى الحكيم لآيات الله فى الإنسان أصبح تأمل الإنسان لنفسه ولمجتمعه لا يقل سهولة عن تأمله لآيات الله فى الآفاق .

٣ ـ أن كثيراً من الآيات الكونية مصحوبة ـ كما أوضحنا فى هذا البحث ـ بالإشارة إلى أن هذا الكون خلق على ماهو عليه ، وقدر له الأجل المسمى . . . ليعتبر به الإنسان من جهة ، وليتمتع بفوائده ، ويكون ذلك جزءاً من ابتلاء هذا الإنسان وامتحانه ، وليبلغ أجله المسمى ، ثم يسأل يوم القيامة ، وينال جزاءه الذى يستحقه ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

فالإنسان هو المخلوق المتميز الذى خلق ليعبد الله ، ولذلك انطوى تركيبه وتصويره على ما ميزه الله به ، وكان لنا فى خلقنا وتنظيم حياتنا الجسدية والنفسية ما كان من آيات الله وعجيب صنعه ، لنتأمل ونعتبر به ونشكر الله عليه ، ونزكى أنفسنا كما أوصانا الله تعالى ، وكما أحب لنا .

٤ ـ أن مشيئة الله وحكمته اقتضت أن يخلق الإنس والجن ، ويجعلها آية على بعض صفاته وأسمائه الحسنى .

قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ ﴾ (٣) .

والإنسان من أجدر المخلوقات لتتحقق فيه آثار هذه الصفات ، والآيات الدالة عليها ، والملائكة والسموات والأرض لا يذنبون .

(١) سورة البروج : آية : ١٤ .
(٢) سورة : الحشر : آية : ٢٤ .
(٣) سورة : الزخرف : آية : ٨٤ .

وإذا نظرنا إلى آيات الله فى أنفسنا نجد أنها تربى فينا القرب من الله سبحانه وتعالى ، والشعور بفطرتنا الدينية ، فطرة التعلق بالله والخوف من عقابه ، والشوق إلى لقائه ، والرغبة فى رحمته وثوابه ، والخضوع لحكمه ، واتقاء غضبه ، وإخلاص العبودية والتبعية له ولدينه وشريعته . . ، والشعور بالافتقار إلى كرمه ورزقه وفضله ، والالتجاء إليه فى الشدائد (١) .

ولا ينبغى أن يغفل فى هذا المقام أن إيقاظ الفطرة الدينية مع ما يصاحبها من الانفعالات والعواطف المناسبة يثمر ثمراته فى سلوكنا ، وفى نظرتنا إلى الكون وإلى المجتمع ، أى إنه يضعنا فى مواقف جديدة ، وكل موقف يتطلب منا تعديل سلوكنا بما يناسب الآية التى أيقظت فينا الشعور الدينى فى جانب من جوانبه ، وأوجدتنا فى هذا الموقف الجديد .

وهكذا تربى هذه الآيات فى الإنسان الجانب الإدراكى العقلى ، حين يدرك مظاهر حكمة الله فى خلقه ، والجانب الانفعالى كالخوف والمحبة ، والجانب السلوكى .

آيات الله فى أنفسنا ودلالتها العصرية :

ينبغى أن نوضح فى هذا المبحث المقصود من طرح هذا العنوان فتقول بقد يظن الباحث أن تصنيف هذه الآيات حسبما تتطلبه منا العلوم المعاصرة ربما كان أقرب إلى أفهام الناس وأكثر جذباً لأنظارهم ، فى هذا العصر ، فالإنسان يدرس فى العلوم المعاصرة : إما من الناحية العضوية (الفيزيولوجية أو الفسيولوجية) ، وإما من ناحية الصلة بالحياة وبالجنس البشرى ، أى الناحية (البيولوجية) ، وإما من ناحية طبيعته النفسية (السيكولوجية) ، وإما من ناحية العلاقة بالمجتمع (السوسيولوجية) ؛ وإما من ناحية نموه ونمو عقله ، ومدركاته ، أو نمو وجدانه ومشاعره وانفعالاته ، أو نمو جسمه ووظائفه العضوية ، أو نمو إرادته ونزوعه وتطور أنماط سلوكه ، وعلاقة ذلك النمو بثقافه مجتمعه وأهدافه ومثله العليا ، أى من الناحية (البيدانموجية) أو التربوية ، ولو جمعت الآيات الداله على كل من هذه العلوم المعاصرة لأستهوت جمهور الدارسين (٢) .

وإليك بيان ذلك بشىء من التحليل : ـ

أقام بعض الباحثين الإسلاميين المعاصرين ، أبحاثهم على هذا الأساس فوجد بعضهم أسساً لعلم النفس الإسلامى ، ووجد بعضهم أسساً لعلم النفس التربوى الإسلامى ، وقد أسلم عدد من الأطباء الغربيين عندما وجدوا فى القرآن وصفاً علمياً لتطور الجنين فى الرحم ،

(١) عبد الرحمن النحلاوى : من أساليب التربية الإسلامية ، التربية بالآيات ، مرجع سابق ، ص : ٢٧٤ .
(٢) عبد الرحمن النحلاوى : من أساليب التربية الإسلامية ، مرجع سابق ، ص : ٢٧٥ .

لم يكن معروفاً إبان نزول القرآن ولا بعده بقرون ، فأيقنوا أن هذه الآيات من عند الله الذى أنزل القرآن ، وخلق الأجنة وطورها فى الأرحام كيفماشاء ، ولا يمكن أن تصدر عن غير بشر ... مزود بالآلات والمجاهر العلمية التى عرفت اليوم ... بيد أن معظم هذه الأبحاث يبدأ من منطلقات العلوم المعاصر ، مع أن فى القرآن الكريم مرتكزات ومنطلقات لدراسة النفس ... لا يمكن أن تلتقى مع المنطلقات العقائدية التى قامت عليها العلوم الأوربية [1] .

فالإنسان كما يفهم من العلوم الأوربية - جزء من الطبيعة ، ونتيجة لتطورها الطويل ، وليس له عندهم ميزة فى أصله وبدء وجوده ، والعقل عندهم وحده طريق معرفة الحقائق وليس ثمة طريق آخر ... ثم إن المثل الأخلاقية والقيم والمفاهيم الحقوقية - التى يمتاز بها الإنسان - ليست فى زعمهم - إلا حقائق لوقائع أو حوادث ، كالحوات الطبيعية ، نشأت وتطورت . فهى ليست ثابتة ، والإنسان نفسه - عندهم - إنما هو ميدان اجتماعى مفكر فحسب ، وليست النفس الإنسانية إلا مجموعة من الغرائز . هكذا تدل العلوم والبحوث الغربية المعاصرة عن الإنسان .

وليس فى هذه الفلسفة الغربية أو التصور الوجودى للكون والإنسان مكان للإله ، ولا لصلته بالإنسان وبالكون ، ولا للوحى والنبوات ، ولا للجزاء والحياة الآخرة ، ولا لسائر الغيبيات . ثم إن هذه المفاهيم منبثة مفرقة فى مختلف العلوم التى تعلم فى نظم التعليم السائدة فى العالم الإسلامى ، ومنها العلوم التى تدرس الإنسان . وقد يتكون من مجموعها مذهب فكرى عقائدى يخالف الإسلام مخالفة جذرية .

لذلك يجب معرفة المنطلقات والأصول الفكرية والاعتقادية الإسلامية حول الإنسان ليتقيد بها كل من يصنف أو يدرس شيئاً عن آيات الله فى الإنسان .

الإنسان فى المنهج الإسلامى والمناهج الأخرى :

شغلت مشكلة الإنسان ومحاولة معرفته حقيقته ومكانته ، بنى آدم على مختلف العصور ، فكان تصور الإنسان لنفسه ، يراوح بين إفراط وتفريط ؛ يميل إلى الإفراط حيناً فيرى نفسه أكبر وأعظم كائن فى العالم . كما زعم قوم عاد .

قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [2] .

وكما نادى فرعون : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [3] .

(١) المرجع السابق، ص : ٢٧٦ .
(٢) سورة : فصلت : آية : ١٥ .
(٣) سورة : القصص : آية : ٣٨ .

ويربأ بنفسه أن يعترف أنه مسؤول أمام أحد ، ويتحول إلى متأله يستهويه القهر والجبروت والظلم والشر والطغيان ومازلنا نرى بعض الزعامات الشيوعية والرأسمالية فى هذا العالم نماذج لذلك ولكن بصورة أخرى . .

ويميل إلى جانب التفريط حيناً آخر فيطأطئ رأسه أمام شجر أو حجر أو جبل أو نهر أو حيوان ، ويرى السلامة فى أنها يسجد للشمس والقمر والنجوم والنار وكل موجود يرى فيه القوة .

لكننا إذا نظرنا إلى الإنسان فى المنهج الإسلامى فإننا نجد أن الإسلام قد عرض الإنسان على حقيقته ، وبين أصله ، وما تميز به عن سائر الكائنات . ويمكن تلخيص ذلك فى النقاط التالية :

أولا : حقيقة الإنسان وأصله :

خلق الله الإنسان الأول (آدم) من طين ، ثم نفخ فيه من روحه وبذلك ميزه فى بدء خلقه وصوره فأحسن صورته ، وخلق منه أنثاه حواء ، وعلمه الأسماء ، وأسجد له ملائكة السماء فسجدوا كلهم أجمعون إلا أبليس أبى . ونهاه عن الأكل من الشجرة فنسى فأكل منها ، فعصى وغوى ، وتلقى كلمات منه تعالى ، فقالها فتاب عليه وهداه ، وأهبطه ، إلى الأرض خليفة فيها بعد أن هيأ له ، وسخر له كل ما فيها [1] .

ومن المهم أن نؤكد لذوى العقول أن الله سبحانه وتعالى سخر كل ما فى الوجود لخدمة الإنسان حتى الملائكة . وهذا يبين قيمة الإنسان عند الحق تبارك وتعالى .

فالإنسان هو الكائن الحى فى هذا الوجود وقد نال كثيراً من الدراسات العلمية سواء أكانت الدراسات الاجتماعية بوصف الإنسان منتمياً إلى جماعة من الجماعات ، كما اهتمت الدراسات النفسية والفلسفية كذلك بالإنسان . وكل هذه المحاور الدراسية تتناول الإنسان من جانب تخصصها . وهذا الأمر ينسحب على كل العلوم التى تتناول الإنسان أو بالأحرى كل التخصصات .

والإنسان هو الكائن الحى المنتصب القامة ، ذو العقل والتفكير والأخلاق الفاضلة ، والعواطف الجياشه ، والاحساسات الصادقة ، والمنطق السليم ، والكلام الفصيح المبين [2] .

(١) أبو العزائم، محمد ماضى: إنسان المؤمنين وإنسان الملحدين (القاهرة: دار الكتاب الصوفى، د.ت) ص: ٦ .
(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة .

والعقيدة الإسلامية تؤكد فى صراحة ووضوح بأن الإنسان مخلوق خلقه الله سبحانه وتعالى وحدثنا عن كيفية خلقه وتنشئته . والدليل على ذلك ما ساقه لنا القرآن الكريم فى أكثر من آية توضح أن الإنسان مخلوق خلقه الله عز وجل .

قال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾ (٢) .

وقال أيضاً : ﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين ﴿٧١﴾ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ (٣) .

ويتحدث الحق تعالى فى خلق ذرية آدم : ﴿ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾(٤) .

ويتحدث سبحانه وتعالى فى خلق الإنسان الذى هو آدم :

﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج ﴾ (٥) .

ويتحدث فى خلقه أيضاً : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴿١٢﴾ ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ﴿١٣﴾ ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ (٦) .

ويتحدث الحق تعالى : ﴿ الرحمن ﴿١﴾ علم القرآن ﴿٢﴾ خلق الإنسان ﴿٣﴾ علمه البيان ﴾ (٧) .

ويوضح القرآن الكريم بأن الله عز وجل خلق آدم بيديه ، وسواه ، وأسجد له الملائكة .

قال تعالى : ﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين ﴿٧١﴾ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴿٧٢﴾ فسجد الملائكة كلهم أجمعون ﴿٧٣﴾ إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ﴿٧٤﴾ قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين ﴿٧٥﴾ قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ (٨) .

---

(١) الحجر : آية : ٢٦.
(٢) السجدة : آية ٧.
(٣) ص : الآيتان : ٧١، ٧٢.
(٤) السجدة : آية : ٨.
(٥) الإنسان : آية : ١.
(٦) المؤمنون : الآيات : ١٢-١٤.
(٧) الرحمن : الآيات : ١-٤.
(٨) ص : الآيات : ٧١-٧٦.

أما عن أقوال الرسول ﷺ فى هذا الصدد : فما رواه مسلم فى صحيحه قول الرسول ﷺ فيما تلقاه وحياً من ربه سبحانه وتعالى : ﴿ خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم ﴾ (١) .

والمعنى هنا كما يوضحه النبى عليه الصلاة والسلام بأن الله سبحانه وتعالى خلق آدم من طين . كما بين ذلك فى القرآن الكريم .

ثانيا : تكريم الإنسان وتفضيله :

يتميز الإنسان عن غيره من الكائنات الأخرى ؛ فقد منحه الله سبحانه وتعالى من المواهب والقدرات ما يسيطر به على ما حوله من الكائنات ويسخرها لمصلحته ، ورزقه الله من الأغذية والمتع ما لم يتح لغيره من الحيوانات . قال تعالى :

﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ (٢) .

وقال جل وعلا : ﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾ (٣) .

هذا هو الإنسان المكرم فى معتقد المؤمنين أجمعين . فسبحان من أظهر عجائب قدرته ، وغرائب حكمته ، فى مبدع بدأ خلقه من سلالة من طين ، ثم جعل نسله من ماء مهين .

هذا هو الإنسان الذى خلقه الله ليعمر به ملكه وملكوته ، وجعل الأرض له مقراً للإقامة ، ومستقراً له بعد الموت ، ثم ينشئه النشأة الثانية فيمنحه الملك الكبير المتعال .

وقد سخر الله للإنسان كل ما فى الملك والملكوت ، وصرفه تصريف الربوبية فى الملك ، لذلك جعل الله الإنسان خليفة عنه فى هذا العالم ، ووعده عند الاستقامة أعظم كرامة . قال تعالى : ﴿ وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا ﴾(٤) .

كما خلق الله تعالى لبنى آدم كل ما لابد لهم منه فى حالتى الضرورى والكمالى ، ولا مانع من أن الله وضع فى كل حقيقة كون منها الإنسان علماً ضرورياً بكل الأشياء اللازمة لتلك الحقيقة ، فما من كائن فى الوجود إلا والإنسان محتاج إليه ، لافرق بين ما فى السموات

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه.
(٢) سورة : الإسراء : آية : ٧٠.
(٣) سورة : الحج : آية : ٦٥.
(٤) سورة : الإنسان : آية : ٢٠.

... والأفلاك وغيرها ، ... ما في الأرجاء من مكونات ، وما في الأرض من نبات وحيوان ... وما فوق ذلك من جمال الملكوت ، وما في الجنات من نعيم مقيم ، لذلك كانت ... الإنسان وعلمه ، ... منها الحيوان لا يعلم شيئاً من ذلك كله (١) .

... ينبغي أن يفهم من الإنسان أنه يوجد به قوى مفارقة ، منها العقل النظري وهو الذي ... ما يجب فعله من الأعمال الإنسانية ، ويقيس الأشياء والنظائر التي لم يرد بها نص .

... تلك القوى أيضاً العقل العلمي وهو الذي يتم به جوهر النفس ، وتصير نفساً طاهرة ... الشر ، وتتفاوت مراتبه فقد يكون بالوهب أو بالكسب .

... حمل الله سبحانه وتعالى للإنسان الحس الصحيح ، والعقل الكامل . وهذا وارد في ... تعالى : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار ... قليلاً ما تشكرون ﴾ (١) .

... الله سبحانه وتعالى الأسماع للخبر الصادق ، والأبصار لشهود الأكوان الدالة على ... سبحانه ، والقلوب لفقه الآيات الدالة على القادر الحكيم المصور البديع المنعم ، ومن ... تتهي إرسال الرسل معلمين للخير دالين عليه (٣) .

قدرة الإنسان على التمييز والاختيار والاهتداء بوحي الله ورسله :

... الإنسان بقدرته على التمييز بين الخير والشر ، بما غرس في طبيعته من الاستعداد لهذا ... التميز بالقدرة على اختيار الخير أو الشر بما أعطى من إرادة تعينه على ذلك .

... تعالى ﴿ ونفس وما سواها (٧) فألهمها فجورها وتقواها (٨) قد أفلح من زكاها (٩) وقد ... من دساها (١٠) ﴾ (٤) .

... اعتراف الكفار بما أتوا من نعمة الاختيار ، وبأنهم اختاروا الباطل والشر ، ... سيقهم خزنة جهنم : ﴿ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير (٨) قالوا ... بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء ﴾ (٥) .

... يكرم في الإنسان ، فحياً تراه وروحه في ملكوت الله الأعلى سابحة ، مشرفة

... محمد مناصي : إنسان المؤمنين وإنسان الملحدين ، ص : ١٦-١٧ .

... سورة : ٧٨ .

... محمد مناصي : المرجع السابق ، ص : ١٧-١٩ .

... سورة الآيات : ٧-١٠ .

... سورة : ٨-١٠ .

على قدس العزة والجبروت ، ، إذ بك تراه في أسفل سافلين ، أضل من الأنعام ، بل فوق عالين . قال تعالى : ﴿ وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ (١) .

والإنسان هو المحجوب بالأدران النفسانية ، المعبود بالحظوظ الحيوانية ، لا يذوق لذة الإيمان ، ولا حلاوة الإحسان ، بل يدعوه الغرور بالانشغال بالنعم عن المنعم ، فإذا أذاقه الله ألم الاحتياج يئس وباع دينه بدنياه ، حتى يزكى نفسه بنور التسليم والانقياد ودراسة العلم النافع .

وهكذا أرسل الله لكل أمة رسولاً بدلهم على الحق ، وينذرهم لقاء يوم القيامة ، يوم الحساب ، ثم ذكرهم بذلك عند حلول العذاب . قال تعالى : ﴿ ألم يأتكم نذير ﴾ . وقد أنزل الله الوحي على رسله مصدراً للهداية والتشريع لتنظيم حياة البشر .

لذلك وهب الإنسان العقل للتمييز بين الحق والباطل * ، وجعل الله له السمع والبصر ، لتعينه هذه الحواس على تعقل الأمور ووعيها . فإذا لم يستعمل عقله لهذا الغرض ضل عن الحق واستحق عقاب الله ، بسبب اتباع الهوى الذي يعمى عن الحق ، ولذلك حكى الله لنا تنمية كلام الكفار بعد أن اعترفوا بتكذيب الرسل واختيار الباطل على الحق ، فبين لنا على لسانهم سبب ضلالهم عن الحق واستخفافهم عقاب الله . ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير (١٠) فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير ﴾ (٢) . فكان ذنبهم أنهم لم يستمعوا الحق ولم يعقلوا سبيل الهدى بل حجبوا عن ذلك سمعهم وعقلهم .

رابعاً : مسؤولية الإنسان وجزاؤه :

يجب أن نوضح في هذا المقام أن الإنسان لم يخلق عبثاً . قال تعالى :

﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون (١١٥) (٣) .

وكذلك لم يترك الإنسان سدى فهذا المخلوق الذي فضله الله بتركيبه وتصويره ، والمتميز بما أوتي من قدرات ومواهب واستعدادات ؛ إنما خلق كذلك ، لتسند إليه مهمة عظمى هي حمل الأمانة ، والعمل بشريعة الله وتبليغها ، وجعل الله حياة هذا الإنسان مضمار أو مجالاً

---

(١) سورة : آل عمران : آية : ١٣٩ .

(*) من أراد أن يقف على حقيقة ما ذكرناه فليراجع مقالنا المنشور بجريدة الجمهورية بتعز يوم ٤ نوفمبر ١٩٩٦م العدد ٩٩٥٩ الصفحة الثالثة تحت عنوان : « الصراع بين الحق والباطل » .

(٢) سورة : الملك : آية : ١١ .

(٣) سورة : المؤمنون : آية : ١١٥ .

لاختيار مدى استجابته لهذه الأمانة ولما تدبه الله إليه من عبادته ، أى طاعته وتحقيق شريعته وتنظيم أموره وسلوكه على أساسها . وترتب على ذلك بعث الإنسان يوم الحساب ليجازى بأعماله إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

قال تعالى : ﴿ يؤمئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم . فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ (١) .

من هنا نستطيع أن نقول يعيش الإنسان فى الحياة الدنيا بين سلطانى الدين والشهوة فتتنازع السلطان إحداهما مع الأخرى . . . ويجب أن نوضح أنهما فى نزاع دائم وكفاح دائم وحرب مستقرة ميدانها نفس الإنسان .

أما بالنسبة للدين فإنه بلاشك له سلطان قوى رادع وهو يبسط نفوذه على قلب الإنسان وجوارحه ومعالمه فيقتضى القلب إيماناً جازماً لا يعبث به شك ولا يلعب به وهم ، ويقيناً لا تتخطفه الظنون ، وتقتضى الجوارح إسلاماً وخضوعاً ، كما يقتضى النفس الكمال والفضل والإحسان ، يقصد من ذلك إلى إعداد البشرية وتقويمها وجعلها صالحة للخلافة التى أنبطت بها ، وإلى الحد من سلطة الغرائز الشريرة وإلى ضبط الميول الجامحة وعقلها حتى لا تجتار بالإنسان مناطق البشرية إلى حدود البهيمة المعجمة(٢) .

وهنا يجب أن نوضح إذا تكمل الإنسان بالكمال الحقيقى المؤهل له وقهرت نفسه الملكية بقية القوى وسخرتها لجلب تلك الكمالات ، ترقى على مراقى القلب حتى يصل إلى مقام تخدمه الملائكة المقربون ، إما إذا أهمل تزكية نفسه وانزوت تلك النفس الطاهرة الملكية ، وتسلطت بقية القوى على الإنسان ، فإن غلبت عليه النفس الأبليسيه كان حسوداً لجوجاً جاحداً منكراً مفسداً متكبراً ، لذلك نرى من ابتعد عن طريق الحق سبحانه وتعالى أعماه الجهل والعياذ بالله .

إن الإنسان لو ترك وغرائزه لفسد المجتمع ، وما تماسك المجتمع إلا لأن الإنسان لا ينطلق مع غرائزه ، وهذا السمو بالغرائز وتوجيهها التوجيه الصحيح فى صورته الصادقة لا شك أنه من عمل الدين وأثر من آثار دعوته .

ويجب أن ننبه فى هذا الصدد موقف الإسلام من الشهوات والملذات وكيف يزجر الإنسان نفسه ويقوم حارساً عليها . فالله سبحانه وتعالى خلق فى الإنسان الشهوة ولا تعتبر الشهوة فى حد ذاتها حراماً أو حلالاً إلا باقترانها بالأفعال المحرمة والمباحة .

---

(١) سورة : الزلزلة : الآيات : ٦ـ٨ .

(٢) عبد البارى محمد داود : الإنسان بين زاجر الدين وسلطان الشهوة (الجمهورية اليمنية ، تعز : مقال منشور ، العدد ٩٩٤٩ بتاريخ ٢٥/ ١٠/ ١٩٩٦م) ص : ٣ (جريدة الجمهورية بتعز) .

فالشهوة قد خلقت لفائدة وهى ضرورية للإنسان محبول عليها فى تركيبه الفكرى فلو محيت لا نقطع عن الطعام ومات وهلك ، كما أنه لو انقطعت عن الإنسان شهوة الجماع ما عاشت الإنسانية ولتوقف النسل بين الناس (١) .

ويستخلص مما سبق عن الزاجر فى الإنسان كونه قوة إذا تكامل كان نعمة ورحمة وهدى له فيه يستقيم حالة فيكون الصدق شعاره والإخلاص بابه والطاعة الخالصة لله سبحانه وتعالى .

فالزجر بهذا المعنى واعظ فى القلب يدل على خوف العبد من وعيد الله ورجاء فى وعده تعالى .

خامساً : قدرة الإنسان على المعرفة والعلم والثقافة :

يتمتع الإنسان بقوة التخيل والتصور والفكر والعقل . وهذا ما تقتضيه مسؤولية الإنسان فقد فطر على الاستعداد للتعلم ، قال تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم ﴾ (٢) .

وكذلك فطر الإنسان على اختزان المعلومات فى الذاكرة . قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ (٣) .

وكذلك أيضاً جعل الإنسان على الموهبه الحسابية لقوله تعالى :

﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ (٤) .

كما أن الإنسان يتمتع بموهبة المحاكمة العقلية ، وموهبة البيان . قال تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ (٥) . وأيضاً القدرة على الكتابة وعلى الاستفادة من المخزون فى الذاكرة أو فى الكتب ، للتكيف مع المواقف الجديدة ، وعلى الجدل والخصومة ، والحجة والبرهان ، والاستعداد لتعديل الغرائز والسلوك لتزكية النفس والسمو بها كما فطر على الاستعداد لتوحيد الله وعبادته ليحمل الأمانة ، ويكون خليفة له القيادة فى الأرض .

---

(١) المرجع السابق ، راجع المقال المنشور .

(٢) سورة : القلم : الآيات : ١ـ٥ .

(٣) سورة : البقرة : آية : ٣٣ .

(٤) سورة : الإسراء : آية : ١٢ .

(٥) سورة : الرحمن : الآيتان : ٣ـ٤ .

ومعظم هذه الخصائص التى امتاز بها الإنسان وصفت فى القرآن على أنها آيات تدل على حكمة الله وتصويره وإبداعه ، ورحمته ، وعلمه ، وأنه لطيف خبير بعباده ، سميع بصير ، عليم بذات الصدور ، رحمن رحيم ، غفور ودود ، يجيب المضطر إذا دعاه [1] .

ولما كان الإنسان هو صورة الكون أجمع ، وهو المقصود بالذات من كل الكائنات ، كان لابد له أن يعرف الله بقدر ما أهله الله لمعرفته .

من هنا جاءت الأوامر القرآنية للإنسان بأن يكون كبير النفس عن التشبه بما هو دونه من أنواع الحيوانات ، وأن يترفع عن شهواته وحظوظه ، ملتزماً بتنفيذ الأمر الإلهى وأن يعمل بما يرضى الله عز وجل ؛ وترضاه النفوس الطاهرة الزكية ، فيكون الإنسان خليفة فى الأرض ، عزيزاً بالله ، ذليلاً له سبحانه وتعالى .

لذلك كان الواجب على الإنسان لا ينتظر خيراً إلا من الحق سبحانه وتعالى باستعمال عقله وجوارحه فيما خلقت له من العمل النافع . ولا يخاف أحداً إلا الله مادام عاملاً بما أوصاه به . كذلك أمر القرآن بالتوحيد الذى لا يقبل العقل غيره ، ولا تطمئن القلوب بغيره . وأن كل ما سوى الله عبيد مقهورون ، وخلق مربوبون ، وأكرمهم عند الله التقى العامل بوصاياه سبحانه وتعالى .

والعقيدة التى أمر القرآن بها الإنسان جعلته عظيماً كبيراً وأشعرت قلبه العزة وأذاقته حلاوة الإيمان .

لذلك يجب على الإنسان أن يتيقن بأن الإسلام لا يقيده عن ملاذه ويحبسه عن شهواته ، ويحرمه مما هو خير له فى دنياه . ولكن الإسلام نهى الإنسان عما يضره ، وأباح له كل ما ينفعه .

ويؤيد ما قلناه : اقتضت حكمة الحق تبارك وتعالى أن تطالب الإنسان بمعرفة الله بقدر لو قصر عنه الإنسان لهلك ، لأن أصغر إنسان مؤهل لأن يعرف الحق سبحانه وتعالى معرفة تحصل بها النجاة من الهول ، والسلامة من المقت والسخط ، وتتفاوت بعد ذلك مقامات أهل الخصوصيات فى هذا المجد العلى ، والخير الحقيقى [2] .

ولما كانت طرق العلم الخير الصادق والحس الصحيح والعقل الكامل . معنى قوله تعالى : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ [3] .

---

(١) عبد الرحمن النحلاوى : من أساليب التربية الإسلامية ، التربية بالآيات ، ص : ٢٨٠ ـ ٢٨١ .
(٢) أبو العزائم ، محمد ماضى : حديث الجمعة (القاهرة : دار المدينة للنورة ، ط١ ، ١٤٠٢هـ) ص : ٥٣ .
(٣) سورة : النحل : آية : ٧٨ .

فالحق سبحانه وتعالى هو المنعم المتفضل المعطى الوهاب ، ولمقتضى حكمة كان من فضل الله على الإنسان أن يدله عليه سبحانه ، ويبين له سبله سبحانه وصلاحه فى الدنيا والآخرة [1] .

فالعارفون بالله فانون عن أنفسهم ، لا قوام لهم بذاتهم ، وإنما قوامهم من حيث ذواتهم بالله . فهم يتحركون بحركة الله ، وينطقون عن الله بما يجرى على ألسنتهم وينظرون بنور الله فى أبصارهم [2] .

فمن عرف الحق : أى من تحقق فى مقام المعرفة بالله تعالى (شهده فى كل شىء) . أى رآه ظاهراً فى أعيان الموجودات ، فلا يستوحش من شىء ، يأنس به فى كل شىء : لأن العارف إذا كان فى مقام البقاء يرى الخلق ، ويرى الحق ظاهراً فى كل الأشياء ، بها مع عدم عن نفسه وحسه .

وننقل طرفاً هنا مما سجله القشيرى فى « الرسالة » حيث قال . فمعرفة الله واستيلاء المعرفة على القلب تتولد عنها المحبة . فإذا عرف القلب لمع بحب الله . فبتوحيد الله الخالص وبمعرفته الثابتة تمتلئ القلوب بالمحبة والمعرفة فهو العبودية المحضة مشغول قلبه مع حب ربه ومعرفته بعين قلبه [3] .

حقيقة الإنسان :

ينبغى أن نوضح فى هذا المقام أن الحياة إما أن تكون حياة حيوانية ، أو حياة ملكية خالصة ، أو حياة مزدوجة منهما وهى الحياة الإنسانية ، هذه مسألة يدركها فإن القادر الحكيم سبحانه وتعالى جعل حياة للدنيا فقط وهى حياة الحيوانات ، وحياة للآخرة وهى حياة الملائكة ، وحياة للدنيا والآخرة وهى حياة الإنسان .

فكأن الإنسان هو المقصود من بقية الأنواع لأنه النوع الوسط . هو الذى يصدق عليه أنه المخلوق المؤهل لنيل السعادتين ، وأنه يحيا حياتين : حياة دنيوية ، وأخروية .

وهاتان الحياتان إما أن تكونا فى رغد وسعادة ، أو إحداهما فى رغد وسعادة والأخرى حياة عناء وشقاء ، أو كلا الحياتين فى شقاء وعناء [4] .

---

(١) أبو العزائم ، محمد ماضى : الإسلام دين الله (القاهرة : دار الكتاب ... ، ط٣ ، ١٤١٣هـ) ص : ٧٦ ـ ٧٧ .
(٢) صالح الجعفرى : المعانى الرقيقة على الدرر الدقيقة المستخرجة من بحر ... ص : ١٣ .
(٣) القشيرى : الرسالة ، ص : ١٤٧ .
(٤) أبو العزائم ، محمد ماضى : وسائل إظهار الحق (القاهرة : دار الكتاب ... ، ط٥ ، ١٤١٣هـ) ص : ٩ .

ومعلوم أن حكمة القادر سبحانه وتعالى اقتضت أن يكون الإنسان عالماً وسطاً بين عالم الملك والملكوت ، فأبرزته القدرة كأنه صوره لجميع العوالم مع صغر حجمه . فالإنسان كون صغير ، والكون إنسان كبير وأودع الله سبحانه وتعالى فيه كل معانى الأنواع .

فالإنسان جماد من حيث إنه من طينة ويميل إلى السكون والراحة ، ونبات من حيث إنه يتغذى وينمو ، وحيوان من حيث إنه يحس ويتحرك ، وملك من حيث إنه يشهد الغيب بدلائل المشهود ولا يعصى الله ما أمره ويفعل ما أمره الله سبحانه وتعالى به إذا صفا وتكمل ، وإبليس إذا نزع إلى هواه ورأيه وخطه ونسى يوم الحساب ، وخليفة عن ربه إذا تجمل بأخلاق ربوبية[1] .

والإنسان يبلغ بكمالاته النفسانية إلى أن يكون فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وينحط بتبع هواه وحظه إلى أن يكون فى هاوية السخط والمقت ولظى الجحيم .

قال تعالى فى التنبيه بقدر الإنسان : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [2] .

وقال سبحانه فى منزله الإنسان العلية وما انحط إليه من البلية .

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ [3] .

وقال تعالى فى بيان كون الإنسان شيطاناً : ﴿ شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [4] .

والإنسان هو الهيكل الصغير الضعيف كما قال تعالى : ﴿ وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾ [5] .

وقال تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [6] .

وعلى ذلك فالإنسان جامع لكل حقائق الكائنات ، يبلغ من المقامات فى القرب من الله ما يطيعه ويجيبه ، وينحط بالمعصية والمخالفة إلى أسفل الدركات حتى يتمنى أن لم يكن شيئاً [7] .

---

(١) أبو العزائم ، محمد ماضى : الإسلام دين الله ، ص : ٧٥ .
(٢) سورة الحجر : الآيتان : ٢٨-٢٩ .
(٣) سورة التين : الآيتان : ٤-٥ .
(٤) سورة الأنعام : آية : ١١٢ .
(٥) سورة النساء : آية : ١٢٨ .
(٦) سورة غافر : آية : ٥٧ .
(٧) أبو العزائم ، محمد ماضى : الإسلام دين الله ، ص : ٧٥-٧٦ .

والإنسان هو الذى جمع فيه الحق سبحانه وتعالى قوى بسائط العالم ومركباته وروحانياته ومبدعاته ومكوناته . والإنسان من حيث أنه بواسطة العالم حصل ، ومن أركانه وقواه أوجد ، هو العالم ، ومن حيث إنه صغر شكله وجميع ما فيه ، كالمختصر من الكتاب ، وهو الذى قلل لفظه واستوفى معناه . والإنسان هكذا إذا اعتبر بالعالم ، ومن حيث إنه جعل من صفوة العالم ولبابه وخلاصته وثمرته فهو كالزبد من المخيض ، والدهن من السمسم ، فما من شىء إلا والإنسان يشبهه من وجه ، فإنه كالأركان من حيث ما فيه من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة .

وكالمعارف من حيث هو جسم . وكالنبات من حيث ما يتغذى ويتربى . وكالبهيمة من حيث ما يحس ويتوهم ويتخيل ويلتذ ويتألم . وكالسبع من حيث ما يحرض ويغضب ، وكالشيطان من حيث ما يغوى ويضل . وكالملائكة من حيث ما يعرف الله تعالى ويعبده ويطيعه . وكاللوح المحفوظ من حيث قد جعله الله مجمع الحكم التى كتبها على سبيل الاختصار .

فقد ذكر بعض الحكماء فى بدن الإنسان أربعة آلاف حكمة . وفى نفسه قريباً من ذلك وكالقلم من حيث ما يثبت صور الأشياء فى قلوب الناس ، كما أن القلم يثبت الحكم فى اللوح المحفوظ . ويكون الإنسان من قوى مختلفة قال تعالى :

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ [1] أى مختلطة من قوى أشياء مختلفة .

ويكون العالم والإنسان متشابهين ، إذا اعتبر قبل : الإنسان عالمٌ صغير ، والعالم إنسان كبير [2] .

ولذلك قال تعالى : ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [3] .

فأشار الحق تبارك وتعالى بالنفس الواحدة إلى ذات العالم .

ولا شك أن هذه النظرة التى ينظر بها للإنسان من خلال العالم ، وكذلك العالم من خلال الإنسان تنسجم مع مفهوم الشريعة الإسلامية فى دعوتها إلى التأمل والتفكر والتدبر فى بديع صنع الله سبحانه وتعالى .

ومن هنا نستطيع القول بأنه لا يمكن أن تقوم دراسة الإنسان منفصلة عن العالم . كما أن

---

(١) سورة : الإنسان : آية : ٢ .
(٢) أبو العزائم ، محمد ماضى : النور المبين لعلوم اليقين (القاهرة : دار المدينة المنورة ، ط٢ ، ١٤٠٣هـ) ص : ٣٠-٣١ .
(٣) سورة : لقمان : آية : ٢٨ .

الإنسان ... العالم كله ، لأن الله خلقه بعد خلق جميع الكائنات ، فهو زبدة الوجود ... خلقه الله تعالى ليجعل به ملكوته الأعلى . جمله بمعانى صفاته . ... هو الإنسان المتخيل المتصور المفكر العاقل ، وما عداه فحيوان على ... ذلك لجهله بمبدئه ومعاده وغروره بعاجل حظه وهواه .

... نوعه قد تدفعه نفسه الفاضلة وأخلاقه الكامله ، وعقيدته الحقة ، ... خير عامة بنى نوعه من الخلائق أجمعين إلى رتبة الإجلال والإعظام ... نفوس والأموال إذا ما تجمل به من الصفات المحبوبة للنفوس ، ... وهو منهم وبهم . ينظرون إليه نظر الأكبار والأعظام وهو غريب ... بهم ، وإنما قربته أخلاقه ، ورفعته أعماله ، ورقته أحواله ، لا ينكر ... الفضيلة ، قليل النظر عن المكارم ، محب لذاته ، مبغض للخير ... (١) .

... الإنسان قد قلاه أرحامه ، وكرهه أقاربه ، وملّه عشراؤه ، وسعى فى ... معد أو بلاء مؤذ ، وهو القريب النسيب الحسيب .

... غاية من خلق الإنسان :

... ما الغاية التى من أجلها خلق الله الإنسان ؟

... هذا السؤال المتقدم نجده فى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ ... ﴾ (١) .

... من خلق الإنسان كما أوضحها الحق سبحانه وتعالى هى العبودية ... هنا أيضاً كان الواجب على الإنسان أن يعرف هذه الغاية . فالعبودية ... الإخلاص لله فى النية والقول والعمل (٣) .

... ﴿ ... أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ... ﴾ (٣) .

... إنسان المؤمنين وإنسان الملحدين ، ص : ٣٩.

... ٥٦.

... الغاية من خلق الإنسان ومعرفة الشباب لها (الجمهورية اليمنية ، تعز ، مقال ... العدد ٩٩٧٠ ، بتاريخ ١٥/١١/١٩٩٦م) ص : ٣.

هناك إذن رابطة بين العبد وربه تتمثل فى تنفيذ الأمر الإلهى كما هو واضح فى الآية السابقة . فالعبد عليه أن يأتمر بأمر الله فيطيعه ويعمل له ، فإذا أخطأ ونسى وغوى عليه أن يرجع إلى ربه داعياً مستغفراً أن يعفو عنه وأن يحسن له . كما أن هذه العلاقة تقوم على الصدق والحق والرجاء فى وعد الله والخوف من وعيده . وتتلخص هذه الرابطة فى العمل بأمر الله تعالى من ناحية وفى الدعاء من جانب العبد من ناحية أخرى ، وهذه الرابطة قائمة على الأدب مع الله والطاعة له جميعاً ، وهذا ما يجعل هناك علاقة بين العبودية والربوبية .

وكذلك تتجلى الرابطة بين العبودية والربوبية فى أن الحق سبحانه وتعالى يحب من عبده أن يوفى بعهده كما أوجب ذلك على نفسه ، فإذا عمل العبد أعمالاً فأتقنها فإن الله سبحانه وتعالى يجازى هذا العبد الصالح على ما قام به من أعمال للبر وأفعال للخير وما كلفه من فرائض وتكاليف ويتمثل ذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ (١) .

ومن معانى العبودية الخضوع والانقياد لحكم الله ، والتزام المنهج الإسلامى . قال تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢) .

ولما كان الإنسان عبداً من الواجب عليه ألا ينشغل عن وظائف العبودية لأن الحق تبارك وتعالى هو مالك كل شىء بيده مقاليد الأفق جميعاً ، فهو المدبر للإنسان قبل وجوده وبعد وجوده . من هنا أصبح من لوازم العبودية إسقاط التدبير مع الله .

والحق سبحانه وتعالى وهب للإنسان العقل ليشهد غرائب قدرته وعجائب حكمته . وسخر له ما فى السموات والأرض وجعله خليفة فى الأرض ومنحه عيوناً فى قلبه يبصر بها أسرار الغيب من الآيات المنبلجة فى الآثار ، وفطرة على الدين ، فلا ترى فرداً من بنى الإنسان إلا وهو يخضع لقوة يسميها «الله» اهتدى إلى الطريق الحق من هداهم الله وأخطأ معرفته من حجبهم الله (٣) .

خلق الله الإنسان ليشهده غرائب قدرته فى مكوناته بما جعل له من النور فى قلبه ويكاشفه بعجائب حكمته فى آياته بما منحه من نور الفكرة ، وأعده لنيل الكمالات الروحانية ، أو ارتكاب النقائص الشيطانية . قال تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ (٤) .

فإرادة الله سبحانه وتعالى من حيث إنه يبين طريق الهدى وطريق الضلال ، وخلق

---

(١) سورة : البقرة : آية : ٤٠ .
(٢) سورة : آل عمران : آية : ٨٥ .
(٣) أبو العزائم ، محمد ماضى : إنسان المؤمنين وإنسان الملحدين ، مرجع سابق ، ص : ٤٠ .
(٤) سورة : البلد : آية : ١٠ .

الإنسان من الاستعداد ما يختار به هذا أو ذاك . ويسر له الطريقين سواء ، وهو بذلك يختار لأن إرادة الله اقتضت أن يكون لهذا الخلق المسمى بالإنسان طبيعة خاصة يملك معها الهدى والضلال ، ويختار الهداية أو يحيد عنها ، ويؤدى دورة فى هذا الكون بهذه الطبيعة الخاصة التى فطره الله عليها لفرض ولحكمة فى طبيعة هذا الوجود [1] .

وهنا ينبغى أن توضح حقيقة الإنسان وهى أن الله سبحانه وتعالى فطره محتاجاً ، وأحاطه سبحانه بالمكونات والكنوز ، وجعل مفاتيحها العمل والفكر ، لا لحاجة الله لذلك العمل ، بل ليظهر الإنسان سر استخلافه ويشاهد معانى تنزلات الأسماء والصفات ، ويترقى حتى يتحقق بالعجز عن إدراك كمالات الذات ، والعمل كدح وذكر وفكر ، ففطرة الإنسان على الاضطرار والحاجة وسرها كنوز الخيرات والبركات له حساً ومعنى [2] .

وما دام الإنسان محتاجاً إلى الله والحاجة تكون إليه على الحقيقة فإن الإنسان ينشغل بالله ويركن إليه [3] .

وعلى هذا فالإنسان الصادق على ما يرى الشاذلى هو الذى يتحقق بأوصافه من الفقر والضعف والعجز والذلة ، ويعرف أنها من أوصاف العبودية ، فليجلس عليها ناظراً لأوصاف الحق تعالى من الغنى والقدرة والعزة ، ويعرف أنها من أوصاف الربوبية وبذلك يعلم حقيقة نفسه [4] .

لذلك نجد أن هذا النوع من الفقر والحاجة إلى الله له وظيفة معرفية تساعد السالك على الوصول إلى الله تعالى ، فإذا شعر السالك بحاجته وافتقاره إلى الله تعالى سواء فى الرزق أو فى غيره من الأمور ، فإنه يعرف أن صفاته الإنسانية ناقصة بالإضافة إلى صفات الكمال الإلهية ، وهذا هو ما عبر عنه ابن عطاء الله أيضاً بقوله :

« ألا ترى أن الحاجة باب إلى الله وسبب موصل إليه » [5] .

من هنا تصبح العبادة الحقة هى ما تحقق فيها الافتقار المطلق من جانب العبد والغنى المطلق من جانب الحق ، والله وحده هو الغنى المفتقر إليه ، بل إن الافتقار إلى الأسباب افتقار فى الحقيقة إلى الله وحده .

(١) عبد البارى محمد داود : بين الربوبية والعبودية (القاهرة : مجلة التصوف الإسلامى ، مقال منشورة العدد السادس ، نوفمبر ، ١٩٩٤م) ص : ٤٤ - ٤٥ .

(٢) أبو العزائم ، محمد ماضى : إنسان المؤمنين وإنسان الملحدين ، ص : ٤٠ .

(٣) ابن مفلح المقدسى : الآداب الشرعية (الرياض : مكتبة الرياض الحديثة ، ١٣٩١هـ) جـ٢ ، ص : ٢٣ .

(٤) ابن الصباغ ، محمد بن أبى القاسم الحميرى : درة الأسرار وتحفة الأبرار (تونس : المطبعة التونسية ، ١٣٠٤هـ) ص ٧١ .

(٥) ابن عطاء الله السكندرى : التنوير فى إسقاط التدبير (القاهرة : مطبعة صبيح ، د.ت) ص : ٤٤ .

ولهذا يقول ابن عربى فى شرح الآية الكريمة : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ﴾ [1] . والفقراء هم الذين يفتقرون إلى كل شىء من حيث ذلك أن الشىء هو مسمى الله . فإن الحقيقة تأبى أن تفتقر إلى غير الله . وقد أخبر الله أن الناس فقراء إلى الله على الإطلاق والفقر حاصل منهم ، فعلمنا أن الحق قد ظهر فى كل ما تفتقر إليه .

وفوق ذلك ما ساقه الجنيد عند ما يعرض لوصف بلاء أهل الفناء ، حيث قال :

« . . . أقام لها عطشاً إليه فى كل مأتم مأتماً ، ورفع لها فى كل كسوة علماً ، يذيقها طعم الفقر ، ويجدد عليها رؤية احتمال الجهد . أى الشعور الدائم فى كل الأحوال بالفقر إلى الله » .

ويقول أيضاً : « إن الله كشف لعباده معايبهم فى ذكر الطين لهم ، وعرف مقاديرهم بذكر النطفة ، أشهدهم على عجزهم فى تقلبهم ، ليعرفوا فاقتهم إليه فى كل حال » [2] .

وهكذا يتحول معنى الفقر إلى العبودية الكاملة التى لا تعنى عند الجنيد سوى العود إلى الشعور بحال مشابه لما كان عليه أثناء أخذ الميثاق ، وهى الحال التى بحلوله دائماً أن يفسر على ضوئها فكرة « الفناء » ، وهى أحد مفاتيح مذهبه إن لم تكن المفتاح الأول . والجنيد على آية حال يشير إلى الحقيقة اللازمة فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [3] .

وقد قال ابن تيميه فى هذا المعنى « من أراد السعادة الأبدية فليلزم عتبة العبودية » [4] .

سعادة الإنسان بنيل الفضائل والبعد عن الرذائل :

للإنسان سعادة ينشدها العقلاء ويأباها الأغبياء ، فسعادة الإنسان بنيل الفضائل التى يكون بها شبيها بالملائكة الروحانية ، متجملاً بجمال الأنبياء والمرسلين مما تبتهج به الأرواح الملكية ، والنفوس المطهرة الزكية ، وليست السعادة مأكل شهى ، وملبس بهى ، وملامسة النساء على فراش وطىء ، هذه سعادة البهائم السائمة ، بل وليست السعادة إفتراس السباع للأجسام ،

(١) سورة : فاطر : آية : ١٥ .

(٢) محمد مصطفى : المقامات والأحوال « دراسات عن الجنيد » (القاهرة : دار الطباعة المحمدية ، ١٤٠٨هـ) ص : ٨٣ .

(٣) سورة : فاطر : آية : ١٥ .

(٤) ابن قيم الجوزية : مدارج السالكين (القاهرة : مطابع التراث العربى ، ط١ ، ١٤٠٣هـ) جـ١ ، ص : ٣٢٤ .

ولا ادخار المال الحرام ، ولا غدر لأهل الذمام ، ولا ختل للعقول كختل التعالب أو اللئام ، فإن السبع يفترس ظلماً ، والنملة تدخر غنماً ، والفأر يسرق غرماً ، والديك يأتى الدجاجة رغماً[1] .

هذه سعادة الوحوش النافرة والسباع الكاسرة ، وكيف يتشبه الإنسان بالبهائم ويقول إنى إنسان ؟!

من هذا العرض السابق يتضح لنا الفرق بين معنى السعادة الحقيقية عند الإنسان أنها ليست بنيل الشهوات وأنها لا تنال إلا بالتخلى عن الشهوات والرذائل والتحلى بمكارم الأخلاق . ولا شك أن هذا المنهج هو منهج التربية الصوفية المعروف عندهم بالتخلى والتحلى .

ولكى نستوضح ذلك ننظر فيما تعرض له الجنيد (ت ٢٩٧ هـ) عندما عرف التصوف فقال :

« التصوف هو تصفية القلب عن موافقة البرية ، ومفارقة الأخلاق الطبيعية ، ومجانبة الدعاوى النفسية ، ومنازلة الصفات الروحانية ، والتعلق بالعلوم الحقيقية ، واستعمال ما هو أولى على الأبدية ، والنصح لجميع الأمة ، والوفاء على الحقيقة ، واتباع الرسول ﷺ فى الشريعة »[2] .

ومن التعريفات التى أوردها الجنيد فناء النفس بالمعنى الأخلاقى ، لا بالمعنى الوجودى ، إذا أنها عرفت بأنها المذموم من أخلاق العبد[3] .

وهذا ما يرمى إليه الكتانى فى ربط التصوف بالأخلاق فيرى أن :

« التصوف خلق فمن زاد عليك فى الأخلاق زاد عليك فى الصفاء » .

ولا يختلف سهل التسترى (٢٨٣ هـ) عن الجنيد فيما أورده فيقول : « وأول ما يؤمر به المريد التبرى من الحركات المذمومة ، ثم التنقل إلى الحركات المحمودة ، ثم التفرد لأمر الله تعالى ، ثم التوقف فى الرشاد ، ثم الثبات ، ثم البيان ، ثم القرب ، ثم المناجاة ، ثم المصافاة ، ثم المولاه ، ويكون الرضا والتسليم مراده ، والتفويض والتوكل حالة ، ثم يمن الله تعالى بعد هذا بالمعرفة ، فيكون مقامه عند الله مقام المتبرئين من الحول والقوة ، وهذا مقام حملة العرش وليس بعده مقام »[4] .

(١) أبو العزائم ، محمد ماضى : إنسان المؤمنين وإنسان الملحدين ، ص : ٤٠ ـ ٤١ .
(٢) الكلاباذى ، أبو بكر محمد : التعرف لمذهب أهل التصوف ، تحقيق محمد أمين النوارى (القاهرة : طبعة القاهرة الثانية ، ١٤٠٠) ص : ٢٥ .
(٣) محمد مصطفى : دراسات عن الجنيد (القاهرة : دار الطباعة المحمدية ، ١٤٠٧هـ) ص : ٢٠٠ .
(٤) كامل سعفان : سبحان الله (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٠م) ص : ٢٩ .

وعلى ضوء هذا العرض السابق عند سهل نستخلص ملاحظتين :

إحداهما : عرض لنا عدداً من المقامات فأصبح تعريفاً شاملاً جمع فيه معظم المقامات عند الصوفية أو عند المريد السالك حسبما يرى الباحث .

والثانية : تشبيه الفانى فى حب الله بحمله العرش من الملائكة . ولا شك أن هذا تشبيه عظيم يدل على علوهمة الصوفى الفانى عندما يصل إلى مقام المتبرئين من الحول والقوة .

ومن الملاحظة الثانية يقرر الباحث بما لا يدع مجالاً للشك أن التسترى مسقط للتدبير مع الله .

فمن المعروف بداهة ، ومن المقرر فى التربية الصوفية أنه كلما ضاقت دائرة الحس فى الوعى الإنسانى اتسعت دائرة المعنى . أى أنه بقدر ما يتخلى الإنسان عن المحسوسات المادية وتوابعها يستطيع أن يتمتع بقدر من الوعى الروحى . وتلك هى النظرية المعروفة فى التصوف « بالتخلى والتحلى كما مرآنفاً » .

عناية الله للإنسان :

لقد كان الإنسان محل عناية الحق سبحانه وتعالى ، فخلق له الكائنات جميعها ، وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض ، ولمعرفة هذه العناية يجب على الإنسان أن ينظر بعين التفكير والاعتبار إلى ما خلقه الله وسخره له ، ليدرك أن الله سبحانه وتعالى عنى به عناية كبرى ، حيث خلق له كل شىء موافقاً لوجوده ، مسهلاً له سبيل الحياة فى راحة وهناء ، فبسط له الأرض ، وأنبت له ما فيها وكل ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، وأجرى له الأنهار ، وذلل له الحيوان ، ورفع فوقه السماء ، ومهد تحته الأرض ، وصرف له الرياح فى أفقه الخاص ، وأجرى السحاب ، وخلق له شمساً تضىء له الفجاج ، وتنمى له النبات ، وتحفظ بحرارتها كيان الجسم ، وجعل له نهاراً للعمل ، وأعطاه القوة ، وهيأ له الأسباب ، وجعل له الليل للراحة ، وأنار الكون بالقمر والكواكب ، وخلق للإنسان فى السنة أربعة فصول مختلفة الأجواء ، بحيث تتناسب مع صحته ، ونمو النبات والحيوان ، وخلق له من نفسه زوجاً تعينه على الحياة ، وتقاسمه نعيمها .

وبالجملة فكل هذه الموجودات التى خلقها الله مناسبة لوجود الإنسان ؛ هى المرآة الصقيلة التى يرى فيها بعين البصيرة آثار عناية الله به ، فيدرك أن ذلك لم يخلق عبثاً ، ولا وجد موافقاً لحياته إتفاقاً ، وإنما هو صادر عن فاعل قادر مريد[1] .

(١) أبو العزائم ، محمد ماضى : عقيدة النجاة (القاهرة : دار المدينة المنورة ، ط ٤ ، ١٤٠٣هـ) ص : ٢٣ ـ ٢٤ .

هذا هو أحد الدليلين المحسوسين على معرفة وجود الله تعالى ويسمى بدليل الإمداد أو العناية .

ومما يراه الباحث هنا أنه من الواجب على الإنسان أن يعيش حياته متفكراً متدبراً متأملاً معتبراً ، مستغرقاً بقلبه فى ملكوت السموات والأرض .

أما عن الدليل الآخر فهو دليل الإيجاد . ويسمونه العلماء بدليل الإبداع .

فتدبر الإيجاد إنما يعنى اختراع جواهر الأشياء مثل اختراع الحياة فى الجماد ، بل اختراع الجماد نفسه والقوى الحسية والعقل وسائر المخلوقات التى خلقت على غير مثال .

فلو نظر الإنسان إلى نفسه بعين المتأمل لوجد فيه من دلائل الإبداع ما يعجز عقله عن إدراك كنهه والوقوف على سر حقيقته ، وإلا ، فهل يدرك الإنسان مثلاً كيف خلقه الله من نطفة قذرة ؟ وكيف سواه وأنزله من مكان ضيق ثم أنشأه فإذا هو إنسان سميع بصير متكلم عاقل ؟ وهل يمكنه كيف تبصر العين ، أو تسمع الأذن ، أو ينطق الفم ، أو يعقل العقل ، أو تتحرك اليد والرجل ؟ (١) .

ثم إذا نظر الإنسان حوله إلى الكائنات فرأى تلك السماء المرفوعة بغير عمد ، وما فيها من الكواكب والأفلاك ، ونظر إلى الأرض وما فيها من أنواع الحيوان والنبات تنمو وتخرج الغذاء وهى لم تكن شيئاً ، أفلا يتحقق أن كل هذه المخلوقات آيات ناطقات بعجيب الاختراع على خير مثال سابق ؟ !

وإذن فلابد أن يكون لهذه المخلوقات من مبدع قادر حكيم ، أوجد فيها هذه القوة وتلك الروح ، فصيرها حية متحركة ، بعد أن كانت ميته جامدة .

لذلك كان من الواجب على من أراد معرفة الله حق معرفته ، أن يعرف جواهر الأشياء ليقف على الإبداع الحقيقى فى جميع الكائنات ، لأن من لا يعرف حقيقة الشىء لم يعرف حقيقة الإبداع .

قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾(٢) .

ونخلص من ذلك إلى أن دليل الإيجاد الذى تحدثنا عنه يدعو الإنسان أن يفتش فى أعماق نفسه . وهذه نظرة يقف معها متأملاً سر حقيقته . هذا ليس فقط ولكن أيضاً بدعوة للنظر مرة أخرى للتدبر فى ملكوت السموات والأرض .

---

(١) المرجع السابق ، ص : ٢٩ .
(٢) سورة : الأعراف : آية : ١٨٥ .

قال تعالى : ﴿ (١٦٤) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾(١) .

وقوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ (٢) .

ولا شك أن ما أنعم الله تعالى به على الإنسان من وسائل العلم وملكات المعرفة وهى الحواس والعقل والقلب ، للتفكر والتأمل والتدبر فى بديع صنع الله ، واعتبار هذه نعمة يجب شكر المنعم سبحانه وتعالى بها ، لدليل واضح على أهمية العلم وعلو مكانه المعرفة فى الإسلام .

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ والله اخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ (٣) .

كما يدل على ذلك من جهة أخرى ما تكرر تنبيه القرآن الكريم إليه وهو أن كل ما فى الكون من موجودات وظواهر مسخر كله لخدمة ومصلحة الإنسان .

من هنا ينبغى أن نوضح أن تسخير ما فى الكون لخدمة الإنسان يتطلب منه ـ لكى يتم الانتفاع به ـ أن يدرس خصائصه ، ويتعرف على أسراره ، فالليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والشجر والدواب كلها ميادين للمعرفة . وليس بوسع الإنسان أن ينتفع بها ليحقق الغاية من تسخير الله تعالى لها إلا إذا تدبر خصائصها وتعرف حكمها وأسرارها .

وهذا واضح فى قوله تعالى :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٤) .

وهناك ناحية أخرى لها أهميتها الخاصة فى بيان أهمية النظر والتفكر باستخدام الدليل العقلى . مثال ذلك ما يتكرر وروده فى القرآن الكريم من صور الاستدلال بالخلق على وجود الخالق جل شأنه .

---

(١) سورة : البقرة : آية : ١٦٤ .
(٢) سورة : الطارق : آية : ٥ .
(٣) سورة : النحل : آية ٧٨ .
(٤) سورة : الجاثية : آية : ١٣ .

قال تعالى : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وما لها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ﴾(١) .

ويقول عز من قائل : ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾(٢) .

من خلال ما قدمناه في الحديث عن عناية الله بالإنسان نجد أن العلماء ذكروا لنا دليلين هامين هما : دليل الامداد ، ويسمونه دليل العناية ، والآخر : دليل الإيجاد . ويسمونه الإبداع .

وقد جاء ذكر هذين الدليلين في كثير من الآيات القرآنية ، إما بتفصيل كل دليل على حده ، وإما بذكرهما معاً(٣) .

فمثال دليل الإمداد قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾(٥) .

وقوله : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴾(٦) .

ومثال دليل الإيجاد قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾(٧) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾(٨) .

أما الآيات التي ذكرت الدليلين معاً فهي الأكثر . مثل قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(٩) .

(١) سورة : ق : الآيات : ٦-٨.
(٢) سورة : الذاريات : الآيتان : ٢٠-٢١.
(٣) أبو العزائم ، محمد ماضي : عقيدة النجاة ، مرجع سابق ، ص : ٣٠.
(٤) سورة : النبأ : الآيات : ٦-١١.
(٥) سورة : الفرقان : الآية : ٦١.
(٦) سورة : عبس : الآيات : ٢٤-٢٩.
(٧) سورة : الغاشية : آية : ١٧.
(٨) سورة : الحج : آية : ٧٣.
(٩) سورة : البقرة : الآيتان : ٢١-٢٢.

حكمة اختصاص الإنسان بحمل الأمانة :

لا شك أن الإنسان كما بينا في عرضنا السابق هو العالم الوسط الذي خلقه الله تعالى صالحاً للدارين ، مؤهلاً لأن يتجمل بالكمالات حتى يكون في أعلى الجنان ، تتولى خدمته الملائكة بعناية الله وحسن تدبيره ، أو يتعشق الضلالات وتستعبده الشهوات ، حتى يكون في هاوية السخط والمقت أسفل سافلين في العذاب الأليم مع الشياطين ، ولهذا فإن الله سبحانه وتعالى جعله محل البلوى ينص قوله تعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾(٢) .

وهنا ينبغي أن نوضح أن الابتلاء نوع من التجارب التي يجريها الحق سبحانه وتعالى على عبده ليختبره حتى يعرف مدى صدقه في إيمانه وعبوديته الخالصة لله عز وجل . فالعبد الصالح هو العبد الشاكر في الابتلاء ، الصابر على الجفاء ، المحب بلا رجاء ، الراضي كل الأحوال والأوقات(٣) .

ولقد سئل ابن خفيف : متى تصح العبودية ؟ فأجاب قائلاً : إذا طرح العبد كله على مولاه ، وصبر معه على بلواه .

كما قال أبو علي الدقاق : إنما يستعذب الأولياء البلوى للمناجاة مع المولى .

فمن استلذ بمناجاته مع مولاة في سره ونجواه ، رزقة راحة القصد ـ وأشهده جريان أحكامه على وفق اختياره وترتيب إرادته(٤) .

وعلى ضوء ما تقدم نلاحظ الربط بين الصبر والابتلاء وإسقاط التدبير لله سبحانه وتعالى .

ولما كان الحق سبحانه وتعالى خلق الإنسان صالحاً للدارين ، ركبه جلت قدرته من قوى متباينة ، بعضها يفارقه ، وبعضها لا يفارقه .

فأما القوى التي لا تفارقه كالغازيه والمربية والمولدة ، وتلك القوى لها الرئاسة على أنواع

(١) سورة : الأحزاب : آية : ٧٢.
(٢) سورة : محمد آية : ٣١.
(٣) الجيلاني ، عبد القادر : الغنية لطالبي طريق الحق (القاهرة : مطبعة الحلبي ، ط ٣ ، ١٣٧٥هـ) جـ١ ، ص : ١٩١.
(٤) ابن الخطيب : روضة التعريف بالحب الشريف ، تحقيق عبد القادر عطا (القاهرة : ط١ ، ١٣٨٦هـ) ص : ٤١١.

أخرى تخدمها ، ومنها القوى المدركة وهى ظاهرة وباطنه ، فالظاهرة منها الحواس . والباطنة منها المتخيلة والواهمة والذاكرة والمفكرة ، والقوى المحركة الشهوانية والغضبيه ، والقوى التى تحرك الأعضاء وكل تلك القوى التى ذكرناها وجميعها لا يفارق الإنسان .

وأما القوى المفارقة فهى كثيرة ، منها العقل العلمى ، وهو الذى يستنبط ما يجب فعله من الأعمال الإنسانية ، ويقيس الأشياء والنظائر التى لم يرد بها نص صريح لا فى الكتاب ولا فى السنة بالجزئيات المستنبطة من الكتاب والسنة ، ومن تلك القوى العقل العملى وهو الذى يتم به جوهر النفس وتصير نفساً طاهرة زكية بالفعل ، وتتفاوت مراتبه فقد يكون بالوهب أو بالكسب [1] .

تلك القوى التى تدرك المعقولات روح مجردة .

هذا هو الإنسان الذى خلقه الله سبحانه وتعالى وجعله أهلاً لتحمل الأمانة كما خصه الحق تعالى بطبائع مخصوصة تميز بها عن غيره من المخلوقات الأخرى .

الآيات القرآنية فى النفس الإنسانية :

والآن نسوق أمثله على آيات الله فى أنفسنا نوضحها فى النقاط التالية :

أولا : خلق الإنسان من تراب :

تخضع هذه الآية إلى ناموس أكبر يلف الكون ، ويشمل الكرة الأرضية برها وبحرها وجوها ، ساكنها وهامدها ، لخصه الله لنا بقوله تعالى :

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ .... يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [2] .

إنه ناموس يصولنا « تلك العملية الدائبة التى لا تكف ولا تنى لحظة واحدة من لحظات الليل والنهار فى كل مكان ، على سطح الأرض ، وفى أجواء الفضاء ، وفى أعماق البحار ، . . . ففى كل لحظة يتم هذا التحول ، بل المعجزة الخارقة التى لا نتنبه إليها ، لطول الألفة والتكرار ؛ فى كل لحظة يخرج حى من ميت ، ويخرج ميت من حى . وفى كل لحظة يجف عود أوشجرة تستوفى أجلها ، فتحول إلى هشيم أو حطام ، ومن خلال الهشيم والحطام

(١) أبو العزائم ، محمد ماضى : الإسلام دين الله ، مرجع سابق ، ص : ١١-١٢ .
(٢) سورة : الروم : الآيات : ١٧-١٩ .

توجد الحبة الجديدة الساكنة ، المهيئة للحياة والإنبات ، ويوجد الغاز الذى ينطلق فى الجو ، أو تتغذى به التربة وتستعد للإخصاب ، وفى كل لحظة تدب الحياة فى جنين : إنسان أو حيوان أو طائر ؛ والجثه التى ترمى أو تدفن فى الأرض وتختلط بالتربة وتشحنها بالغازات ، هى مادة جديدة للحياة ، أو غذاء جديد للنبات ؛ ومثل هذا يتم فى أغوار البحار ، وفى أجواء الفضاء . . . » [1] .

وقد حار أحد الفلاسفة الشعراء فى خروج الحياة من الجماد والتراب فأنشد :

والذى حارت البرية فيه . . حيوان مستحدث من جماد

ولكن العقل السليم يبدد هذه الحيرة ويهتدى إلى الخالق عندما يتأمل فى دقة صنع هذا الإنسان وتصميمه ، وفى حسن تنظيم هذا الكون الكبير ، وليس الإنسان إلا ذره صغيرة من ذراته ، لكنه مخلوق متميز له قدره ومكانته لذلك نجد السياق القرآنى فى النص السابق يختتم بقوله تعالى : « وكذلك تخرجون » .

فالأمر عادى واقعى لا غرابة فيه ، وليس بدعاً مما يشهده الكون فى كل لحظة وفى كل مكان [2] .

قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ [3] .

والتراب ميت ساكن ومنه نشأ الإنسان . فالطين هو الأصل البعيد للإنسان .

وهذه المعجزة الخارقة آية من آيات القدرة ، وفيها إيحاء بالصلة الوثيقة بين البشر وهذه الأرض التى يعيشون عليها ، والتى يلتقون بها فى أصل تكوينهم ، وفى النواميس التى تحكمها وتحكمهم فى نطاق الوجود الكبير .

وقد أثبت العلم الحديث أهمية التراب الذى يخرج منه النبات ، والذى خلق الله منه الإنسان فقديين « لسترجون زمر مان » أخصائى فى التربة و « يزولوجيا النبات جانباً من هذه الأهمية ، ولكنه بين أيضاً عدم كفايتها لإنبات النبات بل لابد من تذكر قدرة الله فقال :

« إن التربة الخصبة تتكون من مواد معدنية ، ولكن بها فوق ذلك بعض المواد العضوية التى ترجع فى أصلها إلى أجسام الحيوانات والنباتات الأخرى ، وتتعرض هذه المادة العضوية لعمليات التحلل ، ومع ذلك ففى أثناء هذه العمليات تنبثق حياة كثير من النباتات والحيوانات .

(١) عبد الرحمن النحلاوى : من أساليب التربية الإسلامية ، التربية بالآيات ، مرجع سابق ، ص : ٢٨٢ .
(٢) المرجع السابق ، ص : ٢٨٣ .
(٣) سورة : الروم : آية : ٢٠ .

ولكن كيف ومتى تبدأ هذه العمليات ؟ فلا يكفى أن يكون هنالك ضوء ومواد كيميائية وماء وهواء لكى ينمو النبات ، إن هنالك قوه داخل البذرة تنبثق فى الظروف المناسبة ، فتؤدى إلى قيام كثير من التفاعلات المتشابكة المعقدة التى تعمل معاً فى توافق عجيب . والبذرة التى بدأت من اتحاد خليتين مجهريتين تتألف كل منهما من عدد كبير من العناصر والعمليات ، تكون فرداً جديداً يشق طريقة فى الحياة ويكون شابهاً للنبات الأصلى ، بحيث لا تنتج حبة القمح إلا قمحاً ، ولا بذرة البلوط إلا شجرة البلوط ، وعلى رغم ما بين أنواع النبات من تشابه نجد لكل صفاته وخواصه المتميزة ، والحق أن النظام الرائع ، والجمال الذى ليس له مثيل ولا حدود ، والتوافق الغريب ، هذا هو مجمل ما يراه الإنسان أينما اتجه فى عالم النبات[1] .

ثم يتساءل قائلاً : « فمن الذى قدر وأوجد تلك القوانين العديدة التى تتحكم فى وراثة الصفات وفى نمو النبات ؟ من أين جاءت النباتات الأولى ؟ ثم يذكر الجواب من سفر أيوب الذى كتب منذ أكثر من ثلاثة آلاف من الستين ، ويلخصه بقوله :

إن الإجابة التى يقدمها ذلك السفر عن الأسئلة التى تدور حول نشأة الكون وصيانته ، وهى نفس الإجابة التى أقدمها أنا أيضاً : لقد نشأ كل شىء بقدرة الله سبحانه وتعالى . وهو الذى قدر لكل شىء طريقة ثم هدى . وكلما ازددت دراسة وتعمقاً فى دراسة طبيعة التربة والنباتات ازداد إيمانى بالله . وسجدت له إعجاباً وتقديساً[2] .

وإذا كان هذا شأن النبات الذى لا ينطق ولا ينتقل بإرادته ولا يتعاون ، فما بالك بعالم الحيوان : بل ما بالك بهذا الإنسان الناطق العاقل الاجتماعى الحضارى المسؤول عن كل شؤونه وتصرفاته[3] .

فإذا جاهد الإنسان هواه وحظه ونفسه وهى جيوش غالبة قاهرة وملوك جبارة ظلمة ، ونصره الله على أعدائه ، صار هواه مع الحق وحظه ما عند الحق ، وزكت نفسه ، وجعل الله له نوراً يمشى به بين الناس[4] .

ثانياً : خلق الإنسان فى أحسن تقويم :

أقسم الله تعالى أربعة أقسام ليؤكد لنا هذه الآية من آيات صنعه وإبداعه ، فقال سبحانه :

(١) عبد الرحمن النحلاوى : من أساليب التربية الإسلامية ، التربية بالآيات ، ص : ٢٨٣ .
(٢) المرجع السابق ، ص : ٢٨٣ ـ ٢٨٤ .
(٣) نفس المرجع السابق ، ص : ٢٨٤ .
(٤) أبو العزائم ، محمد ماضى : وسائل إظهار الحق ، ص : ١٠ .

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ① وَطُورِ سِينِينَ ② وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ③ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[1] . وعاب على الإنسان غروره أمام رب العالمين وامتناعه عن توحيده ، وهو الذى صوره وركبه على أحسن صورة وتركيب ، فقال جل جلاله : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ⑥ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ⑦ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾[2] .

ولقد ذكر لنا « توماس دافيد باركسن » رئيس قسم الكيمياء بمعهد بحوث « ستانفورد » كيف تأثر أحد العلماء بآية من آيات خلق الله لاحظها فى ابنته الصغيرة ، أنقلها فيما يلى :

يروى لنا « وتياكر تشيمبرز » فى كتابه « الدليل » حادثة بسيطة نقلها كانت السبب فى تحويل مجرى حياته ، بل حياة كثير من البشر . لقد كان يتطلع إلى ابنته الصغيرة ، ثم التفت ـ دون شعور ـ إلى شكل أذنيها ، وذكر بينه وبين نفسه أن من المحال أن تكون التلافيف الدقيقة التى تشتمل عليها الأذن قد نشأت عن طريق المصادفة ، إنها لا يمكن أن تكون قد نشأت إلا عن خبرة بالغة وتصميم وتدبير[3] .

ثم تابع « توماس دافيد باركسن » عرض أمثلة من عالم الكيما ويات ، كالجدول الدورى الذى اكتشفه « ماند اليف » للعناصر ، ومكان « الماء » فى هذا الجدول ، وانفراده عن أقرانه من العناصر ، بخصائص لا تتوقع لمثل وزنه الذرى « الجزيئى » (١٨) والذى يؤهله أن يكون غازياً إذا قيس بأمثاله فى الوزن الذرى ، ومع ذلك فهو سائل سائغ للشاربين ، صالح للحياة وللكائنات الحية ، ثم قال : « ولذلك فإن وجود الماء على الحالة السائلة فى درجة الحرارة المعتادة يجعل الإنسان يقف ويفكر . وبعد ذلك يختم بحثه بقوله :

« وإننى أجد شخصياً ، أن تفسير هذه الظواهر والعجائب بنسبتها إلى قدرة آله حكيم خبير ، وتصميم خالق علوى ، يعد تفسيراً مرضياً للنفوس ومقنعاً للعقول .

إننى أرى فى كل ظاهرة من هذه الظواهر أكثر من مجرد الخلق والتدبير المجرد عن العاطفة ، إننى ألمس فوق ذلك كل محبة الخالق لخلقه واهتمامه بأمورهم »[4] .

وهكذا نجد أن هذا العالم وهو من علماء الطبيعة المنصفين ، لم يقف عند دلالة الحكمة والخلق والتدبير لآيات خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، وخلق عناصر الحياة لهذا الإنسان ومن أهمها الماء ؛ بل تجاوز هذه الدلالة إلى دلالة الرحمة والعناية الإلهية بهذا الإنسان . وقد بحثنا آنفاً فى هذه الدلالة وآياتها .

(١) سورة : التين : الآيات : ١ ـ ٤ .
(٢) سورة : الإنفطار : الآيتان : ٦ ـ ٨ .
(٣) عبد الرحمن النحلاوى : من أساليب التربية الإسلامية ، التربية بالآيات ، ص : ٢٨٥ .
(٤) المرجع السابق ، ص : ٢٨٦ .

ومن مظاهر الإعجاز الربانى فى تقويم الإنسان وتركيبه ، الجمع بين أمرين يعجز أى كائن سوى الله عن الجمع بينهما .

الأمر الأول : التنسيق والتعاون والتكامل بين جميع أجهزة الإنسان الجسدية كجهاز دوران الدم الذى يغذى بقطرته الحمراء الثمينة كل جزء من أجزاء الجسم ، والجهاز العصبى الذى يحقق الاتصال بين الاحساسات وبين الدماغ ، وينظم إعطاء الأوامر من الدماغ إلى الجوارح ، بحيث لا يطرأ على الجسم طارئ خارجى أو داخلى ، حتى يصل خبره توا إلى مركز التفكير والدفاع والتنسيق وتنظيم السلوك بما يحقق مصلحة الإنسان ، وكجهاز التبول والتعرق الذى يطرح السموم خارج الجسم ، وجهاز الهضم الذى يتلقى الغذاء ويحوله إلى سائل يتفيد منه الدم ويطرح الفضلات الغلظة خارج الجسم ، وكالجهاز العظمى الذى يشكل أركان الجسم وهيكله الأساسى (١) .

وقد لخص لنا هذا الإعجاز العالم الأميركى (هاتا واى - مصمم العقل الاكترونى) بقوله :

« وليس العالم من حولنا إلا مجموعة هائلة من التصميم والإبداع والتنظيم ، وعلى الرغم من استقلال بعضها عن بعض فإنها متشابكة متداخلة ، وكل منها أكثر تعقيداً فى كل ذرة من ذرات تركيبها من ذلك الدماغ الإكترونى الذى صنعته .

أفلا يحتاج ذلك الجهاز الفيزيولوجى - الكيماوى - البيولوجى ، الذى هو جسمى ، والذى ليس بدوره إلا ذرة بسيطة من ذرات هذا الكون اللانهائى فى اتساعه وإبداعه ، إلى مبدع يبدعه » .

الأمر الثانى : الاختلافات التى تميز أفراد الناس بعضهم عن بعض فى الأصوات والألوان ودقة الملامح والطبائع والشخصيات ، وصور الوجوه ، وفى التلافيف الدقيقة التى تظهر فى تركيب جلد البصمات ورؤوس الأصابع ، وغيرها من الفروق الفردية ، والتى أصبحت فى الجنس البشرى ضرورة لازمة للمسؤولية التى يتميز لها كل فرد فى محيطه وماله وولده وعلاقاته كلها (٢) .

قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾ (٣) .

وجميع هؤلاء الأفراد من البشر الذين أصبحت أعدادهم تقدر بالمليارات ، يخضعون فى

(١) عبد الرحمن النحلاوى : من أساليب التربية الإسلامية ، التربية بالآيات ، ص : ٢٨٦ .
(٢) المرجع السابق ، ص : ٢٨٦ - ٢٨٧ .
(٣) سورة : الروم : آية : ٢٢ .

تركيبهم وأجهزتهم إلى نظام واحد ، فى التمثيل الغذائى ، والتنفس والتناسل والتعاون والتناسق بين جميع أجهزة الجسم . فهذه الكثرة فى الفروق الفردية مع الخضوع لتركيب ونظام جسدى ونفسى واجتماعى واحد ، أمر مدهش عجيب ، ولو قربنا ذلك إلى عقولنا ، وقارنا هذه الظاهرة بأى معمل ينتج سيارات أو طائرات أو أى نوع من الآليات ، لما رأينا فى صنع الإنسان إلا الخضوع لتركيب واحد وشكل واحد سواء فى التفاصيل والشكليات ، أم فى العموميات والتصميم الإجمالى ، ويبقى الإنسان عاجزاً عن الجمع بين التصميم الإجمالى الموحد ، وإيجاد الفروق الفردية ، وعن بث الحياة فى أى شىء مما يصنع .

وقد ذكر أحد علماء النبات هذا اللون من الإعجاز الإلهى الذى يجمع بين هذين الأمرين ، ولكن فى عالم النبات قال : « انظر إلى نبات برسيم ضئيل ، فهل تستطيع أن تجد له نظيراً بين جميع ما صنعه الإنسان ؟

إنه آله حية تقوم بصورة دائبة لا تنقطع بآلاف من التفاعلات الكيماوية . . . »

وقال آخر : « وبينما تختلف النباتات الراقية اختلافات فردية بعضها عن بعض ، نجد بعض الصفات العامة التى تشترك فيها جميعاً » . وإذا كان هذا فى نبات لا حراك به فما بالك بالإنسان ؟

ألا يمكننا أن نوجه الأسئلة التى وجهها هذا العالم عمن أوجد وصمم القوانين التى تحكم حياة النبات ، فنقول عن الإنسان : « فمن الذى قدر وأوجد تلك القوانين التى تتحكم فى تنظيم حياة الإنسان ونموه وتكاثره ، ومن أين وكيف وجد ذلك الإنسان الأول بهذا الاحكام والجمال والاعجاز والتصميم ؟ ! .

ولا جواب يحسم المشكلة إلا مثل ما أجاب ذلك العالم عن النبات ، فنقول عن الإنسان « كلما زدنا تعمقاً فى دراسة طبيعة الإنسان وحسن تقويمه ازداد إيماننا بالله ، وسجدنا له إعجاباً وتقديساً ، كما سجد الملائكة كما أمرهم الله أن يسجدوا لما خلق بيديه ، تقديساً لله وتعظيماً لحكمته وحسن تقويمه ، جلت قدرته (١) .

قال تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (٣) .

(١) عبد الرحمن النحلاوى : من أساليب التربية الإسلامية ، التربية بالآيات ، ص : ٢٨٨ .
(٢) سورة : الحجر : آية : ٢٩ . (٣) سورة : السجدة : الآيات : ٦ - ٩ .

هذا هو الإنسان الكائن الحى ذو العقل والتفكير والأخلاق الفاضلة صاحب الكلام الفصيح المبين وصاحب المنطق السليم والعواطف الجياشه ، والاحساسات الصادقة . وكان لابد من وجود قانون يحكم العلاقات ، وإلاّ خرب العمران من التقلب فى الرذائل والعدوان، والإنسان يحكم على الأبدان ، أما تزكية النفوس فذلك لله ، ومن هنا جاءت الشرائع مواكبة لتطور بنى آدم عبر العصور .

الفصل الثانى

التفكر والاعتبار

فى البداية يتوجب علينا أن نطرح السؤال التالى : ما معنى الاعتبار ؟

ونستطيع الآن أن نجيب على هذا التساؤل المطروح من الحارث المحاسبى نقلاً عن شيخه حيث قال : الاعتبار الاستدلال بالشىء على الشىء .

ويعرج بنا الحارث المحاسبى فى حوار مع شيخه مشتملاً على عدد من الأسئلة يقدمها الحارث المحاسبى ويجيب عليها شيخه على النمط التالى :

الحارث : ما معنى الاستدلال بالشىء على الشىء ؟

شيخه : هو أن تنظر بقلبك إلى الشىء المتقن ، فليحن قلبك التعجب من نفاذ القدرة ، وإتقان الصنع ، وحسن التدبير فيه ، ثم لم تقع عينك على شىء إلا دلك الشىء على غيره .

الحارث : كيف ذلك ؟ ! اشرحه لى ؟

شيخه : يدلك المفطور على أن له فاطر [١] .

الحارث : أو لم أعلم قبل ذلك أن له فاطر ؟

شيخه : بلى ، ولكن هذا من طريق التنبيه فى الفروع ، وذلك من اعتقاد القلوب ، لأن الاعتقاد إنما هو نظرية للفكر ، وزيادة فى الإيمان ، ويدلك المفطور ، ويدلك المخلوق على الزيادة فى معرفة الخالق ، ويدلك المصنوع على الزيادة فى معرفة الصانع ، ليكون منك التعظيم له ، وتزداد فى معرفة القدرة ، فتنظر إلى الأشياء بعد ذلك بخالقها ، وإلى المصنوع بصانعه ، وإلى المفطور بالفاطر ، فتنظر إلى الأشياء بعواقبها . ثم يدلك وجود ما علمت منها على الشىء المغيب عنها ، أنه أعجب مما رأيت وعلمت : وأن ما علمت عند مالم تعلم كلا شىء فى لا شىء .

الحارث : وكيف ذلك ؟

---

(١) المحاسبى ، الحارث بن أسد: القصد والرجوع إلى الله ، تحقيق عبد القادر عطا (القاهرة: دار التراث العربى الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ) ص : ٨٥.

شيخه : إنما تنظر على قدر عقلك ، وما سمت إليه همتك ، وأصاب وهمك .

الحارث : الناس متفاوتون فى الاعتبار ؟

شيخه : نعم ؛ على قدر صحة العقول ، وقوة الإيمان ، وما ورد على من ذلك على قدر اتساع المعرفة .

الحارث : شىء غير هذا ؟

شيخه : نعم ؛ على قدر طهارة القلوب ، لأن مخرج الاعتبار من القلب ، فإذا خرج من القلب طاهر نفذ فى الغيب ، وسمت به الهمة ، وترائى به الفكر ، ولم يمنعه مانع من الأدناس ، فوافق مراد القلب ، وصفى معرفة النفس [1] .

ثم أضاف قائلاً : قال وهب بن منبه : قال الحواريون : ياعيسى ، من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ؟ فقال : هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا ، حين نظر الناس إلى ظاهرها وإلى آجل الدنيا ، حين نظر الناس إلى عاجلها ، وأماتوا ما يخشون أن يميتهم ، وتركوا منها ما علموا أنه سيتركهم ، فصار استكثارهم منها استقلالاً ، وطلبهم لما أدركوا منها فوتاً ، وفرحهم بما أصابوا منها حزناً ، فما عراضهم من نائلها رفضوه ، وما عارضهم من رفعتها بغير الحق وصنعوه ، وخلقت الدنيا عندهم فليس يحبونها ، فيبنون بها آخرتهم ، ويبيعون دنياهم ، فيشترون بها ما يبقى لهم .

رفضوها فكانوا برفضها هم الفارحين ، ونظروا إلى أهلها غرقى قد حلت بهم المثلاث ، فأحبوا ذكر الموت ، وأماتوا ذكر الحياة الدنيا ، يحبون الله عز وجل ، ويحبون ذكره ، ويستضيئون بنوره .

لهم خبر عجيب ، وعندهم أعجب الخبر ، بهم قام الكتاب وبه قاموا ، وبهم نطق الكتاب ، وبه نطقوا ، وبهم علم الكتاب ، وبه علموا ، ليس يرون نائلاً مع ما نالوا دون أن يرتجون ، ولا خوفًا دون ما يحذرون [2] .

من خلال ما تقدم عن هذا الحوار الذى دار بين الحارث المحاسبى وشيخه يتضح لنا معنى التفكر والاعتبار عند المحاسبى الذى كشف لنا جانبا هاما من جوانب الذوق الوجدانى للنفس عندما تكون فى هذا المقام .

وينبغى أن ننبه هنا أن للفكر مقدمات ولواحق . فمقدماته سماع وتيقظ وذكر ، ولواحقه

(١) المرجع السابق ، ص : ٨٥-٨٦ .

(٢) المحاسبى : القصد والرجوع إلى الله ، مرجع سابق ، ص : ٨٥-٨٦ .

العلم . لأن من سمع يتقظ ، ومن يتعظ تذكر ، ومن تذكر تفكر ، ومن تفكر علم ، ومن علم عمل إن كان علما يراد للعمل ، وإن كان علماً يراد لذاته سعد ، والسعادة غاية المطلب [1] .

ولقد أجابت أم الدرداء عندما سئلت عن عبادة أبى الدرداء بأنه كان يعيش أكثر أوقاته فى التفكر والاعتبار .

وعن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : ركعتان مقتصدتان فى تفكر خير من قيام ليله [2] .

ومما رواه الحسن أن أفضل العمل الورع والتفكر .

لذلك فالمفكر أول ما يلزم قلبه شدة الوجل ، وحسن انبعاث العمل .

وبعبارة أخرى نستطيع أن نقول : يلزم المفكر الذى انبعث من تقصيره إلى التفكر فى كد العمل ، شدة الوجل من فرط التقصير ، وكثرة تذكر ما إليه بصير [3] .

فأول أبواب العبادة التفكر مع الزهادة فى المعاصى ، فإن الفكره تفتح ما بعدها ، وتحسن لصاحبها معونتها ، وهى أكبر عبادة القلب ، وأبعدها من سخط الرب .

فالفكرة تعين على عبادة الباطن ، وبها يقوى العبد على الظاهر ، يؤنس بها من الوحشة ، ويستعان بها على الوحدة ، وهى مفتاح الحكمة .

فإذا أحكم التفكر هجم على لطيف الحكمة ، وبعدت منه التهمة ، وتبنه من ساعات الغفلة ، لأن قلبه لزمته العبادة ، وصار من العبادة إلى العناية .

وقد قيل : « اقتربوا من صاحب الصمت ، فإنه يلقى الحكمة » . ثم تفتح للحكيم المتفكر الصامت الورع من أنواع أبواب البر ، فى الجهر والسر ما ينشرح بالبر صدره ، فتزول عنه مكابدة الهوى وشدة مؤنة الأعداء ، فلا تكون عليه تبعه [4] .

كما يكون حاضر القلب باجتماع الهم ، وكذلك العقل إنما يشتغل عن الفهم والفكر فى المعاد بتفريق الهم فى الدنيا ، فإذا اجتمع الهم حضر القلب ولم يعزب عن الفكر فيما أحب الله عز وجل .

(١) الغزالى ، أبو حامد : روضة الطالبين وعمدة السالكين ، ضمن رسائل الإمام الغزالى ، تحقيق محمد مصطفى أبو العلا (القاهرة : مكتبة الجندى ، ١٣٩٢هـ) جـ٤ ، ص : ١١٦ .

(٢) ابن المبارك ، عبد الرحمن : الزهد ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمى (القاهرة : دار الكتب العلمية ، د . ت) ص : ٩٦ .

(٣) المحاسبى : المسائل فى الزهد ، تحقيق مصطفى عبد القادر (القاهرة : مكتبة التراث ، ١٩٨٦م) ص : ٣٠ .

(٤) المحاسبى : المسائل فى الزهد ، مرجع سابق ، ص : ٣٢ .

ومما روى عن أبى العالية قيل له: ما يفتح على الذكر؟ قال: اجتماع الهم. لأن العبد إذا اجتمع همه تفكر، وإذا تفكر نظر، وإذا نظر أبصر[1].

أما التفكر فى ذات الله - وهذا ما تناولناه أيضا - فمنهى عنه بمقتضى الفهم من قوله تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾[2] أى لا تتفكروا فيها.

وهذه حقيقة اتفق عليها العلماء وجميعا لما أمرهم به الشرع فكانوا متبعين لسنه رسول الله ﷺ.

فالتفكر والتأمل ضرورى للإنسان لأنه عبادة الصديقين. لكن الذى ينبغى أن نفهمه أن التأمل لا يكون فى ذات الله، إستنادا إلى الأثر الوارد: «تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله». وكذلك الأثر الوارد أيضا: «البحث عن الذات إشراك، والعجز عن درك الإدارك إدراك».

ويقول المحاسبى: أكمل العاقلين لا يبلغ كنه معرفة الله، وهذه حقيقة لا مراء فيها، وهى العجز عن إدراك ذات الخالق، ومن حاول أن يدرك فعجز دون الغاية وأقر بعجزه فهو غاية الإدراك، والعجز كله لكل المخلوقات حتى الملائكة التى تحف بالعرش وهى الرقائق النورانية.

وفى الحقيقة أن الاعتراف بالجهل فى هذه الناحية هو عين المعرفة، لأنه دليل تام على عظمة الله وإحاطته وقدرته! لخارقة التى لا يحيط بها علم ولا يدركها عقل.

فالتأمل يجب أن يكون للعظة والاعتبار ولإدراك قدرة الله وسعة لطفه وعلمه وأنه فعال لما يريد وذلك مطلوب شرعًا[3].

من هنا كان الواجب على الإنسان أن يفتح عين الفكر فى ضوء العبر. ويعرف أن الحق سبحانه وتعالى لم يكلفه شيئًا إلا وعنده أدوات ذلك الفعل، وله القدرة عليه[4].

فإن كانت القدرة عليه معدومة والأدوات غير محصلة فلا أمر ولا تكليف.

إليك أيها الإنسان لابد وأن تفهم لكى تتفكر ثم تتدبر ثم تعتبر.

فإياك ثم إياك أن تتعلق بأمر لا حجة لك فيه، ثم من نصيبك ينتصر. ومن حظك يضيع.

(١) المحاسبى: الرعاية لحقوق الله (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٤م) ص: ٥٠.
(٢) سورة: آل عمران: آية: ٢٨.
(٣) عبد الحفيظ على القرنى: ابن عربى (القاهرة: دار الكتاب العربى، ١٩٦٨م) ص: ١٢٦.
(٤) ابن الجوزى: صيد الخاطر، ص: ٣٨٥-٣٨٦.

كيف بك إذا قمت من قبرك وقد قربت بخائب النجاة لأقوام وتعثرت، وأسرعت أقدام الصالحين على الصراط وتخبطت؟!

ما قدر البقاء فى الدنيا بالإضافة إلى دوام الآخرة؟!

ثم ما قدر عمرك فى الدنيا ونصفه نوم، وباقيه غفله؟!

افتح عين الفكر فى ضوء العبر لعلك تبصر مواقع خطابك.

أيها الإنسان تنبه فى الأسحار لعلك تتلمح ركب الأرباح، وتعلق على قطار المستغفرين ولو خطوات، وانزل فى رباع المجتهدين ولو منزلاً أى منزل.

فالطريق إلى معرفة الله وصفاته الفكر والاعتبار بحكمه وآياته ولا سبيل للألباب إلى معرفة كنه ذاته[1].

من هنا قال أحد الأولياء: «لو تناهت الحكم الإلهية فى حد العقول، وانحصرت القدرة الربانية فى درك العلوم لكان ذلك مقتصرا فى الحكمة ونقصا فى القدرة، ولكن أحتجبت أسرار الأزل عن العقول، كما استترت سبحان الجلال عن الأبصار فقد رجع معنى الوصف فى الوصف وعمر الفهم عن الدرك ودار الملك فى الملك وانتهى المخلوق إلى مثله واشتد مطلب إلى شكله وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا».

كما قال آخر: لذة النفوس فى مناجاة القدوس، ولذة الأرواح الشرب بكأس المحبة، ولذة الأسرار مطالعه نسيم الحياة الدائمة والوصول إلى حقائق الغيوب بضمائر القلوب، والمعاينة بالأفكار لسائر الأسرار، ولذة القلوب ملاحظة أسرار الملكوت الخفية عن الأبصار بالسرائر المحيطة لأفكار، فتعاين القلوب حقائق الغيوب وتصحبه قبول شواهد الأسرار فتلج الضمائر بحار الأفكار، وتطمئن النفوس إلى ماحقت به من العالم المحجوب، فكلما كشف عن الغيوب أذيال دلالتها على اتقان صنع وأبدع فطرة قابلتها من العقول هيبة وفكرة ويخرج الاعتبار من القلب، فإذا كان القلب ظاهراً بعد الاعتبار بالشواهد وسمت به الهمة ورقى به الفكر ولم يمنعه مانع، فالفكر طريق إلى الحق ودليل على الصدق، والفكر أصل ثمرة المعرفة، والمعرفة ثمرة طعمها العمل ولذتها الإخلاص، والإخلاص لذة غايته النعيم، والنعيم غاية ليس لها انقضاء[2].

من هن كان الواجب على المتدبر أن ينظر إلى الحق بخلقه لهذا الكون العظيم، وهذا التدبير

(١) الشعرانى، عبد الوهاب: الطبقات الكبرى (القاهرة: مطبعة صبيح، د.ت) جـ١، ص: ١٣٠.
(٢) الشعرانى: الطبقات الكبرى، مرجع سابق، جـ١، ص: ١٢٧-١٢٨.

المتقن، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فعال حكيم حميد، أحكم الأشياء بإتقان صنعها، واستحمد إلى الخلق فيما أنعم عليهم به [1].

ولذلك كان الناظر بعد كمال اليقين بأركان الدين إنما يكون فى نظره هذا مفكراً، متدبراً، فيصبح على مزيد من اليقين، ويدوم مزيده حتى يطمئن قلبه بعين اليقين، وهو سبيل لعروج أهل الخلة الذين كوشفوا بملكوت السموات والأرض، بعد العبرة والفكره والتدبر فى كل شىء، حتى بلغوا مقام اليقين بنور التمكين، وبداية هذا المقام اعتقاد بما وصل إليه علما بتسليم، ثم تبين له فى الآفاق الآيات، فيذوق بوجد حلاوة قوة الحجة على ما اعتقد، حتى يزداد يقينه بمشاهدة تلك الآيات الظاهرة فى السموات والأرض، ثم ينتقل إلى نفسه فينكشف له فيها من معانى الصفات، وجمال الهيات، ما به يكمل يقينه حتى كأنه يرى ويسمع إلى حال يتحقق بالمعية عن عين اليقين، فيشهد فيه وفى الآفاق أسرار بديع خلاق قريب رازق قدير عليم [2].

قال تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [3].

من هنا كان الواجب أن نوضح أنه لا ينكشف للعبد سر فوق مدارك فكرة وعقله إلا بجهاد أكبر مع الله، وذلك يتم بمجاهدة النفس فى الذكر والفكر.

ولا شك أن هذا مقام العارفين بالله الذين تحققوا بمقام الإخلاص الناشىء عن التوحيد الخالص استجابة لله عز وجل، أو هو الفرار إلى الله سبحانه وتعالى طلبًا للثواب، فقد فروا من كون إلى كون بلا ارتياب. ومعنى الارتحال من الأكوان إلى المكون وهو المطلوب من العبد.

وهذا ما يشير إليه ابن عطاء الله فى «الحكم»: «لا ترحل من كون إلى كون فتكون كحمار الرحى يسير والمكان الذى ارتحل إليه هو المكان الذى ارتحل منه ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون وأن إلى ربك المنتهى. وانظر إلى قوله ﷺ: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه».

الفرار إلى الله سبحانه وتعالى

الفرار إلى الله سبحانه وتعالى والاعتصام به يهدى إلى الصراط المستقيم.

(١) المحاسبى: المسائل فى الزهد، مرجع سابق، ص ٣٠.
(٢) السيد المنوفى: التصوف الإسلامى الخالص (القاهرة: مطبعة نهضة مصر، ١٩٧٩م) ص: ٣٠.
(٣) سورة: البقرة: آية: ٢٦٩.

وفى هذا يقول الشاذلى: فررت إلى الله واعتصمت بالله ولا حول ولا قوة إلا بالله ومن يغفر الذنوب إلا الله».

قال تعالى: ﴿ فإن مردنا إلى الله ﴾ [1].

وقال تعالى: ﴿ ألا إلى الله تصيرُ الأُمُورُ ﴾ [2].

وهذا ما يقصده الشاذلى بقوله: «من انقطع عن تدبيره إلى تدبير الله، وعن اختياره إلى اختيار الله، وعن نظره إلى نظر الله، وعن مصالحه إلى علم الله بملازته التسليم والرضا والتفويض والتوكل على الله، فقد أتاه حسن الطلب وعليه يترتب الذكر والفكر.

كما أن هذا الفرار من الاختيار، ومن التدبير، ومن كل شىء من شأنه أن يفرغ الإنسان من الهموم والشواغل، فيقبل على الله تعالى خالى النفس صافى القلب.

فالعبد المؤمن الموحد إذا ترك التدبير مع الله يحسن التدبير معه. فالله سبحانه وتعالى هو متول لتدبير مملكته، وخلقه جميعا، وكلما سلمت له مخلوقاته كان ذلك دليلا على علمهم ومعرفتهم بالله، وقدرة الله، وحق الله، فالعبد الذى يعرف ربه يستحى أن يدبر معه، ويستسلم له ظاهرا وباطنا مفوضا أمره لله. ويقبل بالكلية على الله ويعرض عمن دونه [3].

ولقد بين الشاذلى السبب الرئيسى الذى يوجب فى نظره على الإنسان إسقاط التدبير مع الله، فهو يرى أن الله تعالى قد فرض على الإنسان فى كل وقت سهما من العبودية يقتضيه الحق سبحانه وتعالى من العبد بحكم الربوبية، وبذلك فلا فراغ لأولى الأبصار حتى يمكنهم التدبير لأنفسهم والنظر إلى مصالحهم.

ومن ساحة الذوق يحدثنا ابن عطاء الله السكندرى فيقول: «كن بأوصاف ربوبيته متعلعا، وبأوصاف عبودتيك متحققًا».

وبذلك يكون المرء فى مرتبة من اليقين. فاليقين هو ارتفاع الشك حسبما يرى الجنيد.

وقد قيل: أول اليقين الثقة بما فى يد الله تعالى، ونهايته التصديق بالغيب بإزالة كل شك وريب، والاستبشار بحلاوة المناجاة، وصفاء النظر إلى الله سبحانه وتعالى بمشاهدة القلوب بحقائق اليقين، بإزالة العلل ومعارضة التهم [4].

(١) سورة: الشورى: آية: ٥٣.
(٢) سورة: النور: آية: ٢٢.
(٣) الجيلانى، عبد القادر: الغنية لطالبى طريق الحق (القاهرة: مطبعة الحلبى، ط٣، ١٣٧٥هـ) جـ٢، ص: ١٩.
(٤) الطوسى: اللمع، مرجع سابق، ص: ١٠٤.

فاليقين هو روح الأعمال. أى أعمال القلوب التى هى أرواح وأعمال الجوارح وجوهرها. واليقين هو قطب رحى الإنسان الذى عليه مداره، وهو ينصرف إلى ثلاث درجات: علم اليقين: وهو العلم بحقائق الإيمان، وعين اليقين: ودرجته التقوى والخشية. أى مباشرة الإيمان بعين القلب. وأما حق اليقين: فهو درجة الشهود والعرفان بالبصيرة، وكلها تدق كما قدمنا على قطب رحى الإيمان [1].

السياحة الروحية

السياحة الروحية هى تلك السياحة الخالصة لوجه الله سبحانه وتعالى والتأمل فى آياته حتى تتخلص النفس من المرذولات وتتجمل بالأخلاق الفاضلة.

فللروح سياحة بالجسم وسياحة بالتجريد [*]، وسياحة بالتفريد [*]، وسياحة بالإشراف على قدس العزة [2].

وقد قال الإمام أبو العزائم عن سياحة الروح:

ظهورك بالآيات فى الآثار ∴ به ساحت الأرواح فى الأنوار
تجليت أبدعت العوالم كلها ∴ دلائل التوحيد على الغفار
نظرت بعين الرأس فى الكون لاح لى ∴ جمالٌ رأته الروح فى استحضار
نظرت بعين القلب فى الأى فانجلت ∴ صفات المعانى للمراد السارى

(١) السيد المنوفى: التصوف الإسلامى الخالص، مرجع سابق، ص: ٣٠.

(*) التجريد: هو ما تجرد للقلوب من شواهد الألوهية إذا صفا من كدورات البشرية. وهو ما يفسر افراد العبد عماله بالحق، والاعتراف للحق بصفاته، والتفرقة بينه وبين الخلق. وإيضاح ما قلناه: التجريد إخلاص التوحيد لله فى الاسم والصفه والفعل، الشهادة لله بوحدانيته واستحقاقه للعبادة بعد الفناء عن مظاهر الخلق وتخليص الفكر من كل الصور النفسية. (حسن الشرقاوى: ألفاظ الصوفية ومعانيها، ص: ٩٦) ويراجع هنا: محمد مصطفى: دراسات عن الجنيد، ص: ٢٨٦، وابن الخطيب: روضة التعريف بالحب الشريف، ص: ١٢١.

(*) التفريد: للتفريد درجات: تفريد الإشارة إلى الحق، وتفريد الإشارة بالحق، وتفريد الإشارة عن الحق، ويرجع مصطلح التفريد إلى قول الرسول ﷺ.
«سبق المفردون المستهترون بذكر الله، يضع الذكر عنهم أثقالهم».
والتفريد هو وقوف العبد مع الله تعالى بلا علم ولا حال لشهود تفرد الله تعالى بإيجاد كل موجود، وشمول قدرته كل مقدور.

(٢) أبو العزائم، محمد ماضى: من جوامع الكلم، مرجع سابق، ص: ١٩.

كما قال:

نَفسى هى الكنز فيها سر معناه ∴ بغير كيف وفيها نور مجلاه
جهلى بها الحجب عن علمى بمبدعها ∴ وعلمها كشف حجبى فهم معناه
نفسى مثالٌ تراءى لى به وضحت ∴ آياته وبه أعطيت جدواه

فالسياحة الروحية الحقيقية أن تعود للبداية حتى تنكشف لك النهاية [1].

هكذا كانت السياحة الروحية ميزة تفرد بها العارفين فى سياحتهم إلى الحق سبحانه وتعالى.

سياحة روحية للذهاب فى الله وسمو النفس سموا أخلاقيا. سياحة روحية فى الهجرة إلى الله والفرار إليه. سياحة روحية فى قصد التوجه بالنية الخالصة لوجه الله عز وجل. سياحة روحية فى الترقى إلى المقامات العالية بمخالفة النفس وإماتتها والتخلى عن كل مذموم والتحلى بكل محمود. سياحة روحية فى القرب من الله. سياحة روحية فى المناجاة مع الحق. سياحة روحية فى التفويض والتسليم لله. سياحة روحية فى التبرى من الحول والقوة. سياحة روحية فى طاعة الله وتقواه. سياحة روحية فى الحياء من الله. سياحة روحية فى التواضع لله. سياحة روحية إلى الملأ الأعلى.

(١) أبو العزائم، محمد ماضى: من جوامع الكلم، مرجع سابق، ص: ١٩.

الفصل الثالث

طرق المعرفة إلى الحقائق الكونية

في البداية ينبغي أن نوضح أن أصحاب العقول كان لهم أن يبحثوا طرق النظر في علم مبدع الكون، ومنشىء العقول والأفكار، ومصدر المعارف والعلوم، ومبدأ الأنوار والإلهامات، أن الناس ـ في الفهم والتفكير وإدراك الحقائق، والوصول إلى المعرفة ـ لن يكونوا متماثلين ولا متشابهين، وإنما سيكونون في هذا كله على درجات مختلفة، ومراتب متباينة.

ومن ثم فإن الحق تعالى وهو أحكم الحاكمين رسم للمعرفة طرقا تلتئم أحكم الالتئام مع كل الطوائف البشرية، وتتسق أمتن الاتساق مع مختلف العقليات، وتباين الملكات. وقد أشار إليها جميعا القرآن الكريم. وقد اهتدى إليها الحكماء في مناهجهم ووسائلهم إلى المعرفة[1].

والجدير بالذكر أن وسائل كشف أسرار الكون موجود في القرآن الكريم وذلك لكي تظهر للملأ أن فيه كنوزاً نفيسه، تعجز أفصح اللغات عن وصفها، أو التعبير عنها لأنها سماوية واللغات أرضية، والأرضى لا يتسع للسماوى إلا تقريبا للأذهان رحمة لأهلها، تيسيراً على العقول إشفاقا على أربابها، وتفضلا عليهم، لا رسما لظواهرها، ولا تصويرا لمظاهرها، ولا حصرا لأسرارها، ولا تحديدا لخفاياها، ولا تغلغلا إلى أعماق حكمها.

قال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾[2].

والآن سوف نقوم بعرض هذه الطرق بشيء من التحليل والتركيز.

الطريق الأول: طريق النظر إلى ملك السموات والأرض:

هذا الطريق ينقسم إلى مرحلتين: إحداهما: أرضية محضة، والأخرى: أرضية ونصف سماوية حسبما يرى الدكتور محمد غلاب[3].

---

(١) محمد غلاب: هذا هو الإسلام (القاهرة: مطابع الشعب، ١٩٥٩م) ص: ٣٧-٣٨.
(٢) سورة: الكهف: آية: ١٠٩. (٣) محمد غلاب: المرجع السابق، ص: ٣٨.

ويدلل على ذلك بتسمية هذا الاسم أنها تتصل بمرئيات السماء، لا بمعنوياتها ومجرداتها.

وهاك بيانهما:

المرحلة الأولى:

فأما هذه المرحلة فهى أخفض المراحل، وأشدها بدائية، وألصقها بالأرض، دناها إلى السذج. وهى تخاطب العامة بما بين أيديهم من مرئيات، ثم توجههم إلى استنباط ما هو بعيد عنهم لعلهم يهتدون.

قال تعالى: ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت (١٧) وإلى السماء كيف رفعت (١٨) وإلى الجبال كيف نصبت (١٩) وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ (١).

ونحن إذا سرحنا طرف الفكر مليا، وتأملنا فى هذه الآيات الكريمة.. ألفيناها مليئة بالرحمة، فائضة بالأشفاق على أولئك السذج الذين اقتضت الحكمة الإلهية أن يكونوا كذلك.

ومن ثم فهى تتناسب مع مستواهم، وتجاربهم فى أفكارهم البدائية التى تعبر عنها العقلية البدوية الجافة، فتقول: «إذا كان البعر يدل على البعير، والأثر على المسير.. أفلا يدل هذا العالم على العليم القدير».

وإذن فأهل هذه المرحلة هم محصورون فى الأرض، يحدقون إليها دائما، لا يرون إلا ما هو تحت أقدامهم من «البعر الذى يدل على البعير، وأثر الأقدام الذى يدل على المسير» (٢).

المرحلة الثانية:

هذه المرحلة أعدها عالم الغيب والشهادة لطبقة أرقى من سالفتها قليلا. إذ استطاعت أن تظفر بحظ من تطور الإنسانية، ورقى العقلية.. فرفعت وجهها إلى السماء، بعد أن كان منكسًا إلى الأرض لا يرى إلا ما عليها من كائنات محسوسة، وآثار ملموسة.

قال تعالى: ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ﴾.

وهذا النظر فى السماء هى درجة النظر فى إبداع السموات، وسير الكواكب فى أفلاكها، ودورانها حول محاورها، دون أن تتلاقى، أو تتلاحق، أو تتصادم.. وفى التأمل فى هذا

(١) سورة: الغاشية: الآيات ١٧-٢٠.
(٢) محمد غلاب: هذا هو الإسلام، مرجع سابق، ص: ٣٩.

الملك العظيم، ودقة صنعه، وإتقان إبداعه، وتمام رعايته، وكمال العناية به، والوصول من هذا كله إلى نتيجة يقينية هى وجود مبدع الكائنات وباريها وراعيها (١).

وفى هذا يقول جل شأنه: ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب (١٩٠) الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ (٣).

ونحن إذا نظرنا إلى تاريخ الفكر البشرى، ألفينا أن أول طريق منظم سلكه الفلاسفة للاستدلال على وجود «القوة المدبرة» أو «العقل العام» هذا هو الطريق البدائى عينه الذى عثرنا عليه فى القرآن الكريم فى مرحلته الثانية الخاصة بمن أعدوا لها من الناس (٤).

ومجمل ذلك أن انكسا غوراس (*) قد فكر فى الكون تفكيراً طويلاً، وتأمل فى ملكوت السموات والأرض تأملاً دقيقًا فانتهى به تأمله إلى ما يلى:

«لو نظر الإنسان إلى سير الكواكب فى أفلاكها، ورأى إلى أى حد هى تامة الإحكام، دقيقة التنظيم، بحيث لا يدخل كوكب فى فلك، ولا يغادره قبل موعده المحدد له، أبو بعده بدقيقة واحدة، بل بثانية، ولو فعل لاصطدمت الكواكب، ولهوى العالم كله فى مكان سحيق.. وإذن فهذا التدبير، الذى انتهى إلى حد الكمال، هو أقطع دليل، وأنصع برهان على وجود «العقل العام المدبر».

ومما هو خليق بالعناية أن نسجل هنا أن «سقراط» قد أطلق على «انكساغوراس» من أجل اكتشافه هذا الطريق من طرق الفكر، اسم «الصاحى بين السكارى» (٥).

وكما يتخذ هذا الطريق النظر فى ملك السموات والأرض وسيلة للاهتداء إلى وجود الله وخلقه الإنسان، أو بعبارة أقصر وأوضح: يتخذ خلق العالم الأكبر برهانًا على خلق العالم الأصغر - وهو أهون عليه - هو أيضا يتخذ الخلق الأول من اللاشىء برهانًا على البعث، وهو أهون عليه كذلك.

(١) المرجع السابق، ص: ٤٠.
(٢) سورة: البقرة: آية: ١٦٤.
(٣) سورة: آل عمران: آية: ١٩١.
(٤) محمد غلاب: هذا هو الإسلام، ص: ٤٠.
(*) انكساغوراس: هو فيلسوف إغريقى ولد عام ٥١٠، وتوفى عام ٤٢٨ ق.م. وهو من أصل يونانى.
(٥) محمد غلاب: المرجع السابق، ص: ٤٠.

قال تعالى : ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ﴿٧٨﴾ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ (١).

وقال تعالى : ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ﴿٥﴾ خلق من ماء دافق ﴿٦﴾ يخرج من بين الصلب والترائب ﴿٧﴾ إنه على رجعه لقادر ﴿٨﴾ يوم تبلى السرائر ﴾ (٢).

لذلك كان من الواجب على الإنسان أن يتفكر فى نفسه لأن فى خلقه من العجائب الدالة على عظمة الله سبحانه وتعالى.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى بالتدبر فى النفس . فإذا تفكر الإنسان فى ذلك ازداد بذلك يقيناً ومعرفة. ومن ذلك تفكره فى إنعام الله عليه، فإنه إذا تفكر فى ذلك يزيد فى المحبة والشكر.

نخلص من ذلك إلى أن التفكر فى خلق السموات والأرض منهج يستطيع به المسلم أن يعرف حقيقه الكون فيؤمن إيمانًا راسخًا بأن لهذا الكون مكون.

الطريق الثانى: طريق الأسباب والمسببات:

فى هذا الطريق ينظر المستدل أولاً إلى ما حوله من المرئيات، ثم يحاول أن يتبين أسبابها المباشرة، أى المؤثرات فيها بلا أية واسطة، فإذا تبينها، أسرع إلى الإغضاء عن سببيتها، واعتبرها مسببات لما قبلها، ثم بادر إلى البحث عن التى قبلها، فإذا اهتدى إليها، سلك بإزائها مسلكه نفسه بإزاء ما سلف حتى ينتهى إلى الحق الذى هو الغاية المنشودة والنهاية المقصودة.

وهنا ينتقل المفكر من مرتبة النظر إلى الكائنات بعين البصر، إلى مرتبة النظر فى الموجودات بعين الذهن المعتمد على الحواس . . وإذ ذاك يتحقق له استنتاجه المقصود، ويتم له استدلاله المراد، فيصل إلى مبتغاه من الحق من هذا الطريق الذى أعد له، كما يصل غيره بواسطة لون آخر من التحقيق. وتلك وسائل متعددة لغاية واحدة. « وكل ميسر لما خلق له » (٣).

ونعرض بعض الآيات من آيات السببية والمسببية، الدالة على وجود المبدع.

قال تعالى : ﴿ ونزلنا من السماء ماءً مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد، والنخل باسقات لها طلع نضيد، رزقًا للعباد وأحيينا به بلدة ميتًا كذلك الخروج ﴾.

(١) سورة : يس : الآيتان : ٧٨-٧٩ .
(٢) سورة : الطارق : الآيات : ٥-٩.
(٣) محمد غلاب : هذا هو الإسلام، مرجع سابق، ص : ٤١.

وقال تعالى : ﴿ هو الذى أنزل من السماء ماءً لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب، ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون. وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون ﴾.

ونحن إذا تأملنا فى الطريق الذى وضعه «أرسطو» للوصول إلى أسرار الكون وخفايا الوجود، أو إلى معرفة المحرك الأول . . ألفينا أنه تتبع المعلولات وعللها، صعوداً فى سلاسلها المتسقة، منذ المعلول الذى يلينا مباشرة إلى العلة الأولى التى يتجه إليها كل شىء، وهى لا تتجه إلى شىء، ويتأثر بها كل موجود، وهى لا تتأثر بأى موجود، أو علة العلل، أو أصل الكائنات، أو المحرك الأول.

السياحة النفسية أو نهج النظر النفسى:

وضعت السماء هذا النهج لفريق من صفوة البشرية، قد سما بنفسه عن الحواس ، وعلى جميع الوسائل التى تستند إليها فى الوصول إلى الحقائق. واجتاز طور الحس والمحسوس إلى دور العقل والمعقول، وتخطى درجة النظر إلى المحسوسات والنظر فيها إلى مرتبة التأمل فى المعنويات النقية الخالصة من شوائب الحس وغواشى المادة وعلائق الجرمية، وصعد من أرض الجسم إلى سماء النفس (*)، واستطاع أن يغلق عين الظاهر، ويفتح عين الشعور الباطنى، أو عين العقل، أو أن يغمض البصر لينظر بالبصيرة (١).

فالبصيرة هى المعرفة النافذة. وأصحاب البصائر هم المتفرسون فى الدين والمتعرفون على حقائقه، والمتبصرون الذين يثبتون فى تفرسهم حتى يصلوا إلى الحقيقة.

قال ﷺ: « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله عز وجل» (٢).

من هنا كان صاحب البصيرة ينظر بنور الله، لأن قلبه قد تطهر من الحظوظ والهوى فلم يعد ينظر ببصره، وإنما ببصيرته ويلهم بالحقائق إلهامًا (٣).

ويقول الدكتور غلاب: « . . . وتلك طرق ثلاثة أخرى لاستكشاف الحقيقة الكونية العليا، وجدت كلها فى قول الحق تعالت حكمته : ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾.

(*) من أراد أن يقف على حقيقة ما ذكرناه فليراجع كتابنا : «السياحة فى الإسلام». المبحث الخاص بموضوع : السياحة تدبر فى النفس وسياحة فى الكون ص : ٢٨-٣٦.
(١) محمد غلاب : هذا هو الإسلام، مرجع سابق، ص : ٤٢.
(٢) رواه البخارى والترمذى.
(٣) حسن الشرقاوى: ألفاظ الصوفية ومعانيها (الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، ط٢، ١٩٠٠) ص: ٢٤٩.

ولا جرم أن كلمة «تبصرون» من حيث هي، تحتمل معانى الإبصار بالبصر، أو الأبصار بعقل مجرد عن كل روابط المادة وصلات الخارج استقر فى النفس ليدبرها ويسيرها، أو الأبصار بالبصيرة النورانية التى تكشف الحقائق متى وصلت إلى درجة معينة [1].

فالعاقل من تأمل الأمور ورعاها. قال تعالى: ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾. أى أطلعناهم على العلوم المتعلقة بالعلويات والسفليات وأسرار الجبروت وأنوار الملك والملكوت.

والحق سبحانه وتعالى صنف المخلوقات فأحسن التركيب، وأحكم الترتيب، ثم عرضها على الألباب، فأى لب أو غل فى النظر مدح على قدر فهمه. وكذلك أنزل القرآن يحتوى على عجائب الحكم، فمن فتشه بيد الفهم. وحادثه فى خلوة الفكر، استجلب رضى المتكلم به وحظى بالزلفى لديه [2].

ولا شك أن هذا لونٌ من التفكر والتأمل يدل على قمة التدبر للنفس.

وفى هذا الصدد يقول أحد الصالحين: «الصحيح من قول العلماء أن العقل فى القلب لحديث إن فى الجسد مضغة، ولكن إذا فكرت فى كنه العقل وجدت الرأس يدبر أمر الدنيا، ووجدت القلب يدبر أمر الآخرة، فمن جاهد شاهد، ومن رقد تباعد» [3].

هكذا يصبح الإنسان مظهراً لظهور أوصاف الربوبية وأصاف العبودية.

ويحدثنا الإمام أبو العزائم عن الإنسان فيقول: «أجلى فيك ما به التعريف لو فقهت، ومنحك نوراً به التعرف لو علمت، كما منحك أن تراك فيك، وفى الآفاق بما اقتضته أسماؤه سبحانه، فكنت مظهراً لظهوره، أمرك لتظهر حكمة إيجادك، وهى ظهور عبودتيك، ووفقك لتكون خليفة عنه فى الملك الصغير، وسيداً وجيها متصرفاً فى الملك الكبير، وأعدلك فيك وفى الآفاق من المشاهد العلية ما لا تبلغ ذوقه أعلى الملائكة، ولن يدركه أحد من العالمين [4].

قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [5].

وبذلك يستطيع الإنسان أن يكاشف بقلبه أسرار الغيوب إذا ما كانت نفسه ملكية أو ملكوتية. فالنفس الملكية لها أفعالها الخاصة بها وهى اكتساب العلوم الإلهية والمعارف

(١) محمد غلاب: المرجع السابق، ص: ٤٢.
(٢) ابن الجوزى: صيد الخاطر، مرجع سابق، ص: ١٢٠.
(٣) الشعرانى: الطبقات الكبرى، ج١، ص: ١٥٦.
(٤) أبو العزائم، محمد ماضى: إنسان المؤمنين وإنسان المخلدين، مرجع سابق، ص: ٤٨.
(٥) سورة: فصلت: آية: ٥٣.

الربانيه، والتفكر فيما ظهر من الآيات، والاستعداد لليوم الآخر، واستحضار عظمة الخالق. والتدبر فى حكمة الحكيم، وقدرة القادر، ومشاهدة معانى الصفات فى جلى الآيات ولذلك فإنها تفر من أفعال الجسم الخاصة به، فكلما كان للإنسان شوق إلى أعمال النفس الملكية، ومنحه الله الهمة والتوفيق، ومنع عنه العوائق كلما تزايد فضله، وكوشف بأسر الحكمة وصار روحانيًا كاملاً.

ولقد قيل:

عليك بالنفس فاستكمل فضائلها ... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

فمن اجتهد فى باطنه ورثه الله حسن معاملة ظاهره، ومن حسن معاملته فى ظاهره مع جهد باطنه ورثه الله الهداية إليه لقوله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [1].

وقد قيل للجنيد: متى يصير داء النفس دواءها؟ فقال: إذا خالفت النفس هواها.

لذلك كان من الواجب على الإنسان أن يطهر نفسه دائما لكى ينال السعادة الحقيقية فى القرب من الله تعالى. ويكون من العارفين الروحانيين الذين يبشرهم الله تعالى بقوله:

﴿ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [2].

فمن نظر تفكر، ومن تفكر تدبر، ومن تدبر اعتبر، وصار سائحا فى قدس الأنوار.

ولقد قال الإمام أبو العزائم [3].

نظرت بعين القلب والعين فى الرأس ∴ وسحت بروحى فى ضيا العرش والكرسى
فعاينت بالعينين فى الرأس آيةً ∴ وقد شهدت روحى اجتلا النور فى نفسى
فغيبنى عنى اجتلا نور وصفه ∴ وأشهدنى بدنى الضيا لاح من شمسى
سبحت بآفاق التجلى فلاح لى ∴ ضيا الوجه راح قد أديرت بلا كأس
تجردت حال القرب أجلى حقيقتى ∴ لروحى بكشف الغيب عينا بلا لبس

كما قال الإمام أبو العزائم عن سياحة الروح:

(١) سورة: العنكبوت: آية: ٦٩.
(٢) سورة: الزخرف: آية: ٦٨.
(٣) أبو العزائم، محمد ماضى: ديوان ضياء القلوب (القاهرة: دار الكتاب الصوفى، ط٢، ١٤١١هـ) المجلد الأول، ص: ٣٥٠.

ظهورك بالآيات فى الآثار ∴ به ساحت الأرواح فى الأنوار
تجليت أبدعت العوالم كلها ∴ دلائل توحيد على الغفار
نظرت بعين الرأس فى الكون لاح لى ∴ جمال رأته الروح فى استحضار
نظرت بعين القلب فى الآى فانجلت ∴ صفات المعانى للمراد السارى
نظرت بعين الروح والوجه مشرق ∴ يحيط بأرجائى فلاح منارى
وها أنا أدعو الله جل جلاله ∴ أتلتى الرضا والفضل فى إيثار
ووسع لى النعمى نجل بمحسن ∴ عفو كريم منعم ستار

فمن تدبر وحفظ أنفاسه ولحظاته وأعماله: وكان حاضر القلب مع الله تعالى مخلصاً فى النية، منحه الله سبحانه وتعالى القبول والإقبال[1].

فإذا أشرق على القلب نور اليقين الحق، وباشر سره وأثر فيه حسن الاعتقاد الجازم بأن الكون له مكون مدبر قادر مريد فعال مختار، وأنه هو النافع الضار القوى المتين، وتحقق أنه عبدالله الكبير المتعال.

لذلك كان من الواجب على الإنسان أن يداوم النظر ويسبح بفكره لأن من عرف الله أحبه ومن أحبه نظر إليه[2].

فالمحبة هنا هى أخذ الرب بقلب العبد بحيث لا يلتفت إلى غيره، أو أخذ جمال المحبوب بمحبه القلب حتى لا يجد مساغاً للالتفات لسوى المحبوب، فمتى وقع الالتفات نقص الحب على قدره[3].

فالسياحة النفسية أو بالأخرى السياحة الروحية إنما تعنى السفر القلبى، وهو الانتقال من صفة إلى صفة أخرى وذلك رياضة للنفس وحتى يعيش صاحبها مع الله بلا علاقة ولا واسطة[4].

وبعبارة أخرى نستطيع أن نقول أن السياحة النفسية إنما تعنى الرياضة الروحية التى تكشف بها أحوال الملكوت[5].

(١) أبو العزائم، محمد ماضى: شراب الأرواح من فضل الفتاح (القاهرة: دار المدينة المنورة، ط٣، ١٤٠٧هـ) ص: ٣٠.
(٢) أبو طالب المكى: قوت القلوب، ج٢، ص: ٥٤.
(٣) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين (القاهرة: مطابع التراث العربى، ط١، ١٤٠٣هـ) ج٣، ص: ٤١٠.
(٤) محمد جلال شرف: دراسات فى التصوف الإسلامى (الإسكندرية: دار الفكر الجامعى، د.ت) ص: ٤٨.
(٥) محمود شكرى: شرح وتفسير كلمات القرآن (القاهرة: مكتبة التراث، ١٩٨٥م) ص: ١١٢.

الطريق الثالث: طريق الشعور الباطنى:

يوضح هذا الطريق الدكتور غلاب فيقول: مما يجلب الغبطة إلى نفوسنا، ويجتذ السعادة إلى قلوبنا أن نجد فى آية: ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ من المعانى والمرام والأهداف ما يفوق - بدرجات لا يحصيها العد - معانى تلك الحكمة الإغريقية القديمة الـ يحدثنا «سقراط»، وكثيرون غيره من فلاسفة الإغريق، أنها وجدت منقوشة بأحرف من ذه على معبد «دلفى»، منذ أزمنة ضاربة فى القدم، وهى: «اعرف نفسك بنفسك». ففى ا الكريمة: من مميزات السمو، ومرجحات الرفعة، مالا يتسع المجال ذكره هنا، ولكننا سنش إلى شىء من تلك المميزات فى إيجاز:

أولا: أن الآية الكريمة قد خلت من التكرار الموجود فى الحكمة الإغريقية.

ثانيا: أنها قد برئت من الإبهام المسيطر على النفس فى حالتيها العارفة والمعروفة.

وهل معناها الذات البشرية فى كلتا الحالتين؟ أو معناها النفس الناطقة فى كليتهما؟ معناها الذات فى إحداهما، والناطقة فى الأخرى؟

ثالثا: أن المعرفة فى الحكمة الإغريقية غير محددة الوسائل، بل من المحتمل أن تك بطريق أو بآخر من طرق المعرفة، ظاهرها أو باطنها، حسيها أو عقليها. بينما نجد الآية ا وسائل المعرفة، وتحصدها فى الباطنيات حيث تشير بالأبصار إلى الشعور النفسى أو إلى ا الفكرى، أو الإبصار بالبصيرة.

رابعا: تعبير الآية بصيغة الاستفهام الاستنكارى حضا على النظر العقلى، وتأنيب التقصير فى التأمل، وما إلى ذلك.. مما يتحتم أن يوجد بالضرورة من فروق هائلة بين الإلهية، والحكم البشرية[1].

ومهما يكن من شىء فإن هذا الطريق فى ترتيب الطرق إنما هو الطريق الذى يعثر الباحث فى هذه الآية هو ذلك الشعور النفسى العميق، المتأصل فى نفس كل فرد بشرى.

وبناء على ذلك يكون الباحث فى هذه الآية قد عثر على دليل وجود المبدع فى د نفسه، دون أن يستعين بالخارج أية استعانة، أو أن يلجأ إلى الحواس.

ويعرف هذا الطريق الشعورى فى تاريخ الفكر بطريق «سقراط»، ومن ثم فإن الحكيم تلقيبه «انكساغوراس» بالصاحى بين السكارى إلا أنه يأخذ عليه اعتماده على الحس فى «لو أن «انكساغوراس» بدلاً من اعتماده فى إثبات وجود الإله على حكمته الممثلة فى

(١) محمد غلاب: هذا هو الإسلام، مرجع سابق، ص: ٤٤.

الكواكب فى أفلاكها، كان قد اعتمد على خبرته الممثلة فى داخل نفوسنا تجذبنا إليه دائما . . لكان أقرب إلى الحق، وأدنى إلى الحكمة ومنه إلى نهج العامة الذين يعتمدون على الحس[1].

الطريق الرابع : طريق المعقولات المحضة:

ويتابع الدكتور غلاب حديثه عن قول الحق تعالى: ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾. فيقول: كما أمكن العثور فى تلك الآية الجليلة على طريق الشعور النفسى كوسيلة من وسائل المعرفة كذلك يمكن الظفر فيها بطريق المعقولات الخالصة، التى لا يدركها إلا علية الصفوة من المفكرين، والتى يغلق عندها أعين المادة والذهن المعتمد على الحواس والشعور النفسى ويفتح عين العقل النقى لينفذ بواسطة نوره إلى ما وراء حجب المرئيات، فيتفكر فى ملكوت المعقولات الجليل جلالاً مطلقا. فيذكر أن المعقول - من حيث هو - إما معقول على سبيل الوجود، وإما معقول على سبيل اللاوجود. ثم يدع اللاموجود جانبًا، ويتأمل فى الموجود، فيبين له أنه : إما موجود على سبيل الإمكان، وإما على سبيل الوجوب، وأن الممكن هو ما استوى فيه طرفا الوجود واللاوجود، وأن مستوى الطرفين لا يرجح فيه طرف على الآخر إلا بمرجح وإن هذا المرجح - إن كان ممكنًا - كان الأمر فيه كالأمر فى سالفه «ويتسلسل ذلك إلى غير النهاية. وإذن فلا يبقى إلا أن يكون هذا المرجح هو واجب الوجود - الأحد المؤثر فى كل شىء، دون أن يتأثر بأى شىء.

وبهذا ينتهى الطريق الرابع المنبثق من العقل الإنسانى المجرد، والمشار إليه فى آية: ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾.

وقد عرف هذا الطريق فى تاريخ الفكر الفلسفى الإسلامى باسم «طريق الفارابى»[2].

الطريق الخامس : طريق البديهيات العقلية النقيه:

يعد هذا الطريق - فى عالم الفكر المنطقى المحض - أسمى الطرق، وأقربها إلى القمة البشرية وأدناها إلى أوج الكمال الإنسانى. وهو كسالفه منبثق من داخل النفس، مؤسس على «الأنية»، أو على الحق الجلى الواضح الثابت فى كل «أنية». وهو الفكر المحتوى فى آية: ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾.

ومجملة أن كلا من المؤمن والجاحد والمرتاب، يصدر - فيما يذهب إليه - عن فكر وإذن فأنا -

(١) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٢) محمد غلاب: هذا هو الإسلام، مرجع سابق، ص : ٤٤.

أؤمن - أو أجحد - أو أرتاب - أصدر فى هذا كله عن فكر، وإذا كنت أفكر فأنا موجود، إذ كنت موجودًا: فإما أن أكون قد أوجدت نفسى، وإما أوجدنى غيرى. . فلا فرض أنى أوجدت نفسى، ولكن مع ذلك ألاحظ أنى ناقص، وأنى أشتاق إلى الكمال ولا أحققه فأنا عاجز عن تحقيقه لنفسى، وإذا كنت عاجزًا عن تحقيق الكمال لنفسى، فأنا عن خلق نفسى أشد عجزًا. . وإذن فقد خلقنى غيرى، ولا يمكن أن يكون هذا الغير أقل منى كمالاً فهو الناقص لا يخلق ما هو أكمل منه، لاستحاله اشتمال المعلول على أكثر مما فى علته. ولا يمكن كذلك أن يكون مماثلاً لى لبطلان الترجيح بلا مرجح.

وإذن فهو أكمل منى ولا يمكن أن تكون هذه الأكملية نسبية لنقص النسبى دائمًا إذا فرض هو فوقه. . وإذن فلم يبق إلا المطلق، وهو الأحد المراد إثباته.

وقد عرف هذا الطريق فى المحيط العقلى باسم «طريق ديكارت». ولقد رمز هذا الفيلسوف إلى مبعث الحاجة الماسة إلى طريقنا هذا، كما رمز إلى يقين نتائجه بقوله «إذا رأيت الوجود مظلما، والمشكلات معقدة، وحلولها متضاربة. . بذلت الجهد حتى أستكشف مصباح الأنا، وعلى نوره كشفت كل اللا أنا»[1].

الطريق السادس : الطريق التنسكى:

يختلف هذا الطريق عن سوالفه بأن المجهود فيه لا يطلب من الذهن المعتمد على الحواس، ولا من العقل النقى. . وإنما يطلب بذاته من النفس للتحرر من ربقه الشهوات، والتخلص من عبودية الرغبات، والتعلق بالملأ الأعلى، والشوق إلى الاندماج فى النور الأقدس الذى هو أثر ذلك كفيل بكشف ما وراء الحجب السميكة، واجتياز ما بعد الحواجز الضعيفة، وإضاءة ما فى داخل البرازخ الكثيفة، من أرواح علوية، هبطت إلى تلك الأجسام فغشاها الظلام، وأحاط بها القتام روحًا من الزمن.

وفى قول الحق تعالى: ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾. بعين البصيرة النورانية أو الإلهية الربانية التى ليست فى حاجة إلى الحس لترى، ولا إلى الكواكب وأفلاكها ومحاورها لتفكر، ولا إلى فعل الأسباب فى مسبباتها لتتدبر، ولا إلى المنطق لتتعقل، ولا إلى الفلسفة لتهتدى، ولا إلى العلم لتسترشد، وإنما هى تنغمس فى بحار الأنوار، وتنغمر فى أضواء الأسرار غاية، هنالك أن الناظر لإى الفتوح الربانية، والمتطلع إلى المعارف اللدنية، عليه مجهود لا لابد من بذلها، وفى طريقه عقبات لا مناص من تخطيها، وأمامه درجات لا مفر من الارتقاء

(١) المرجع السابق، ص : ٤٥.

إليها. وأول تلك المجهودات هو التخلص من عبودية البدن [1].

فالعبد الصالح إذا أكرمه الله نصره وستر عليه حظوظ نفسه وهواها، وجعله يتقلب فى نعم عبوديته تعالى وشغل بها نفسه، فلا يلتفت إلا لله. وفى ذلك يقول تعالى: ﴿نعم العبد إنه أواب﴾.

من هذا العرض الموجز الذى ألمعنا فيه إلى طرق المعرفة التى توصل الإنسان إلى الحقائق الكونية التى لابد له منها لتأدية رسالته، كما أن هذه الطرق موجودة فى القرآن.

والجدير بالذكر أن القرآن الكريم احتوى على آية واحدة من آياته البينات. وأن هذه الآية جمع فيها ما انتشر، وتركز فيها ما تفرق، وأجمل ما فصل وهى قوله تعالى: ﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾.

ولا ريب أن ما فى الآفاق: هو ما ينظرون إليه، ثم ما ينظرون فيه، أو ما يشاهدونه بعين البصر، ثم بعين الذهن، المعتمد على الحس، أو هو عالم الشهادة، أو ملك السموات والأرض. وأن ما فى أنفسهم هو المدرك بالشعور الباطنى، أو بالعقل المجرد من كل غواش الحس وعلائق المادة.. حتى يتبين لأولئك وهؤلاء: أنه الحق [2].

وهنا نصل إلى المنزلة الإلهية التى هو فيها دليل كائن، وبرهان كل موجود، فنهتف بعقولنا وقلوبنا: إنه على كل شىء شهيد.

(١) محمد غلاب: هذا هو الإسلام، مرجع سابق، ص: ٤٥-٤٦.
(٢) حسن الشرقاوى: ألفاظ الصوفية ومعانيها، ص: ٢٣١.

أؤمن - أو أجحد - أو أرتاب - أصدر فى هذا كله عن فكر. وإذا كنت أفكر فأنا موجود. وإذا كنت موجوداً: فإما أن أكون قد أوجدت نفسى، وإما أوجدنى غيرى.. فلا نرض أنى أوجدت نفسى، ولكن مع ذلك ألاحظ أنى ناقص، وأنى أشتاق إلى الكمال ولا أحققه لأنى عاجز عن تحقيقه لنفسى، وإذا كنت عاجزاً عن تحقيق الكمال لنفسى، فأنا عن خلق نفسى أشد عجزاً.. وإذن فقد خلقنى غيرى، ولا يمكن أن يكون هذا الغير أقل منى كمالاً، لأن الناقص لا يخلق ما هو أكمل منه، لاستحاله اشتمال المعلول على أكثر مما فى علته. ولا يمكن كذلك أن يكون مماثلاً لى لبطلان الترجيح بلا مرجح.

وإذن فهو أكمل منى ولا يمكن أن تكون هذه الأكملية نسبية لنقص النسبى دائماً إذا قيس بما هو فوقه.. وإذن فلم يبق إلا المطلق، وهو الأحد المراد إثباته.

وقد عرف هذا الطريق فى المحيط العقلى باسم «طريق ديكارت». ولقد رمز ذلك الفيلسوف إلى مبعث الحاجة الماسة إلى طريقنا هذا، كما رمز إلى يقين نتائجه بقوله: «لما رأيت الوجود مظلما، والمشكلات معقدة، وحلولها متضاربة.. بذلت الجهد حتى أستكشف مصباح الأنا، وعلى نوره كشفت كل اللا أنا» [1].

الطريق السادس: الطريق التنسكى:

يختلف هذا الطريق عن سوالفه بأن المجهود فيه لا يطلب من الذهن المعتمد على الحواس، ولا من العقل النقى.. وإنما يطلب بذاته من النفس للتحرر من ربقه الشهوات، والتخلص من عبودية الرغبات، والتعلق بالملأ الأعلى، والشوق إلى الاندماج فى النور الأقدس الذى هو أثر ذلك كفيل بكشف ما وراء الحجب السميكة، واجتياز ما بعد الحواجز الضعيفة، وإضاءة ما فى داخل البرازخ الكثيفة، من أرواح علوية، هبطت إلى تلك الأجسام فغشاها الظلام، وأحاط بها القتام روحًا من الزمن.

وفى قول الحق تعالى: ﴿ولى أنفسكم أفلا تبصرون﴾. بعين البصيرة النورانية أو اللطيفة الربانية التى ليست فى حاجة إلى الحس لترى، ولا إلى الكواكب وأفلاكها ومحاورها لتتفكر. ولا إلى فعل الأسباب فى مسبباتها لتتدبر، ولا إلى المنطق لتتعقل، ولا إلى الفلسفة لتهتدى. ولا إلى العلم لتسترشد، وإنما هى تنغمس فى بحار الأنوار، وتنغمر فى أضواء الأبهار غاية، هنالك أن الناظر لإى الفتوح الربانية، والمتطلع إلى المعارف اللدنية، عليه مجهودات لابد من بذلها، وفى طريقه عقبات لا مناص من تخطيها، وأمامه درجات لا مفر من الصعو

(١) المرجع السابق، ص: ٤٥.

إليها. وأول تلك المجهودات هو التخلص من عبودية البدن [1].

فالعبد الصالح إذا أكرمه الله نصره وستر عليه حظوظ نفسه وهواها، وجعله يتقلب فى نعم عبوديته تعالى وشغل بها نفسه، فلا يلتفت إلا لله. وفى ذلك يقول تعالى: ﴿نعم العبد إنه أواب﴾.

من هذا العرض الموجز الذى ألمعنا فيه إلى طرق المعرفة التى توصل الإنسان إلى الحقائق الكونية التى لابد له منها لتأدية رسالته، كما أن هذه الطرق موجودة فى القرآن.

والجدير بالذكر أن القرآن الكريم احتوى على آية واحدة من آياته البينات. وأن هذه الآية جمع فيها ما انتشر، وتركز فيها ما تفرق، وأجمل ما فصل وهى قوله تعالى: ﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾.

ولا ريب أن ما فى الآفاق: هو ما ينظرون إليه، ثم ما ينظرون فيه، أو ما يشاهدونه بعين البصر، ثم بعين الذهن، المعتمد على الحس، أو هو عالم الشهادة، أو ملك السموات والأرض. وأن ما فى أنفسهم هو المدرك بالشعور الباطنى، أو بالعقل المجرد من كل غواش الحس وعلائق المادة.. حتى يتبين لأولئك وهؤلاء: أنه الحق [2].

وهنا نصل إلى المنزلة الإلهية التى هو فيها دليل كائن، وبرهان كل موجود، فنهتف بعقولنا وقلوبنا: إنه على كل شىء شهيد.

(١) محمد غلاب: هذا هو الإسلام، مرجع سابق، ص: ٤٥-٤٦.
(٢) حسن الشرقاوى: ألفاظ الصوفية ومعانيها، ص: ٢٣١.

الفصل الرابع
المشاهدات الكونية

أولا: مشهد التوحيد للواحد:

تتفاوت مقامات المشاهدين بالنسبة للمشهود والشاهد، فإذا أشرقت أنوار التوحيد بمعانى ظهور الواحد؛ فالمشاهد جامع يشهر بالتوحيد من تمكين واحد، حتى شهد فى نفسه بحقيقه ما هو شاهد، وهو مشهد يشهده الأفراد بعد كمال مقاماتهم، وصاحب هذا المشهد يكون له من التأثير والتصريف، وإكرام من الله لذاته.

ومثال ذلك ما حصل لمريم وزكريا عليهما السلام لما رأى عندها من الرزق وهى صديقة وهو رسول. وحادثه موسى عليه السلام والخضر عليه السلام، فانظر إلى الذى عنده علم من الكتاب والذى آتيناه من لدنا علما، وتأثير مشاهداتهما أمام الرسولين عليهما الصلاة والسلام.

والأمثلة على ما نحن بصدده كثيرة فى هذا الشأن منها: حادثة أبى بكر رضى الله عنه عندما قال لرسول الله إن الله وعدك النصر. فأنشرح صدر رسول ﷺ [1].

ثانيا: مشاهدة التوحيد بالتوحيد:

وهذه المشاهدة هى مشاهدة عن كمال عين اليقين بظهور التمييز بين الخلق والخالق، قوام اتصل به سبحانه وتعالى، فيكون هو الظاهر به لهم، فيشهدون أنفسهم به وفيه.

فالتوحيد كما يعرفه صاحب: «اللمع»: هو تحقق العبد بالصفات الآلهية بفنائه عن الصفات البشرية من حيث تكون آخر حاله ما كان عليه فى أول حاله، ويكون كما كان قبل أن يكون [2].

ولقد سئل الجنيد عن التوحيد فقال: إفراد الموحد، بتحقيق وحدانيته بكمال أحديته بأنه الواحد الذى لم يلد، ولم يولد، بنفى الأضداد والأنداد والأشباه [3].

(١) أبو العزائم، محمد ماضى: شراب الأرواح، مرجع سابق، ص: ١٣٥.
(٢) الطوسى: اللمع، مرجع سابق، ص: ٥٠.
(٣) أبو الوفا الغنيمى التفتازانى: محاضرات فى التصوف الإسلامى (القاهرة: مطبعة المدنى، ١٩٨٠م) ص: ٨٣.

ويمكن أن نصل من ذلك إلى أن التوحيد هو أن يتجه الإنسان بكليته إلى الحق سبحانه وتعالى ذاكراً له، مرابطا على شريعته، ناظراً إليه تعالى فى كل أموره.

ولقد نبه إلى ذلك أستاذ الشاذلى بقوله: «حدد بصر الإيمان تجد الله فى كل شىء، وعند كل شىء، وفوق كل شىء، وقريبا من كل شىء، ومحيطا بكل شىء»[1].

فإذا تحقق العبد بهذا المشهد: خمدت منه الخواطر والإرادات. نظر إلى القيوم الذى بيده تدبير الأمور، فهو ناظر فيه به إليه، فإن بشهوده عن شهود ما سواه، ومع ذلك فهو ساع فى طلب الوصول إليه قائما بالواجبات والنوافل.

فالعبودية شهود الربوبية، ومن أراد الحرية فليصل العبودية.

وفى هذا المعنى يقول بشر: «من أراد أن يذوق طعم الحرية ويستريح من العبودية فليطهر السريرة بينه وبين الله تعالى».

فالحرية إقامة حقيقة العبودية لله تعالى. والحر الحقيقى هو ما كانت عبوديته لله صادقة[2].

فحقيقة الحرية فى كمال العبودية. فمن صدق لله تعالى فى عبوديته خلصت عن رق الأغيار حريته[3].

وكمال العبودية له تحرر من كل ما سواه[4].

يضاف إلى ما ذكرناه: «لا تكون عبداً لله إلا إذا أفرغت قلبك من كل هذه العبوديات وأسقطت من حسابك كل ما هو غير الله ليكون قلبك خالصا لخالقك.

وهذا مجمل من مشاهد التوحيد بالتوحيد وفيها يكون الأنس بالعبودية حالاً عن مقام التمكين.

ثالثا: الرؤيا والشهود:

إن العبد إذا شهد التفرقة والكثرة فى المخلوقات يبقى قلبه متعلقًا بها مشتتًا ناظراً إليها، وتعلقه بها إما محبة، وإما خوفًا، وإما رجاء. فإذا انتقل إلى الجمع اجتمع قلبه على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فالتفت قلبه إلى الله بعد التفاته إلى المخلوقين. فصارت محبته لربه، وخوفه من ربه، ورجاؤه لربه، واستعانته بربه، وهو على الحق، معرضا عن

(١) الشعرانى: الطبقات الكبرى، ج٢، ص: ١٠.
(٢) ابن عربى: اصطلاحات الصوفية (القاهرة: عالم الفكر، ١٤٠٧هـ) ص: ٢٠.
(٣) القشيرى: الرسالة، مرجع سابق، ص: ١٠٠.
(٤) عبد الحليم محمود: أبو مدين الغوث، ص: ٧٩-٨٠.

الخلق، نظراً وقصداً. ويشهد أن المخلوقات قائمة بالله مدبره بأمره، ويشهد كثرتها مع وحدانيته سبحانه وتعالى، وأنه سبحانه رب المخلوقات، وإلهها، وخالقها. فيكون مع اجتماع قلبه على الله إخلاصًا ومحبة وخوفًا ورجاء وإستعانة وتوكلاً وموالاة فيه، ومعادة فيه، فيه، وأمثال ذلك: نظر إلى الفرق بين الخالق والمخلوق. هذا وهذا، يشهد فى تفرقة المخلوقات كثرتها مع شهادة أن الله رب كل شىء وأنه هو الله لا إله إلا هو[1].

والشهود هنا عبارة عن دوام استحضار الأسماء الربانية، والنعوت القدسية فى المشاهد الكونية. بمعنى أن تنمحى عنه ظلال الآثار الحاجبة بنور الأسرار، فيشهد من نور المؤثر، شهوداً يجعل الشاهد حاضراً فى معية الحق، مشاهداً لأنوار التجليات السالكين، وقد يكشف الملكوت الأعلى لأولى القرب من كمل الأولياء[2].

رابعا: المشاهدة الكونية:

يتفاوت العارفون بالله فى درجاتهم تبعًا لمقدرتهم فى الاستمداد من المعارف وعلى هذا النحو كلما منح الولى القدرة على النهل من العلم الإلهى كلما قرب من من معين القرب.

ولذلك يرى صاحب: «نفائس العرفان»: أن هذا القرب من الله هو باطن الولاية فيها يتولى الله عبده بذاته فيطلعه على مكنون أسمائه وصفاته. بمعنى أن الولى فى هذه المقام يفنى تماما عن نفسه ويبقى بالله[3].

والعارفون بالله - حسبما يرى ذو النون المصرى - فانون عن أنفسهم لاقوام لهم بذواتهم، وإنما قوامهم من حيث ذواتهم بالله، فهم يتحركون بحركة الله، وينطقون عن الله بحروفه على ألسنتهم، وينظرون بنور الله فى أبصارهم[4].

ويتضح من هذا القول السابق أن العارفين بالله لا يتحركون، ولا يسكنون، ولا ينطقون، ولا يبصرون إلا عن الله، وبالله، ومع الله. لأن قمة المعرفة عندهم التوحيد والعرفان.

فإن قلوب العارفين شهدت الله مشاهدة تثبيت فشاهدوه فى كل شىء، وشاهدوا [illegible]

(١) ابن تيمية: العبودية (القاهرة: مطبعة الحلبى، ١٣٢٣هـ) ص: ١١٤.
(٢) أبو العزائم، محمد ماضى: شراب الأرواح، ص: ١٣٧.
(٣) محمد وفا الشاذلى: نفائس العرفان من أنفاس الرحمن، مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ١١٩٣ تصوف طلعت رقم ب ص ١٢.
(٤) الطوسى: اللمع، مرجع سابق، ص: ١٤٥.

به، فكانت مشاهدتهم له به ولهم به، فكانوا غائبين حاضرين، حاضرين غائبين، على انفراد الحق بالغيبة والحضور، فشاهدوه ظاهراً وباطناً، وباطناً وظاهراً وآخر وأولاً [1].

وقال تعالى: ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [2].

وقد قال العارفون: « أبى المحققون أن يشهدوا غير الله لما حققهم به من شهود القيومية وإحاطة الدعومية.

كما يصف ذو النون المصرى العارفين بالله وبرسوله قائلاً:

« إن لله عباداً نصبوا أشجار الخطايا نصب روامق القلوب، وسقوها بماء التوبة، فأثمرت ندماً وحزناً، فجنوا من غير جنون، وتبلدوا من غير عىّ ولا بكم، إنهم هم البلغاء النصحاء العارفون بالله ورسوله، ثم شربوا بكأس الصفاء، فورثوا الصبر على طول البلاء، ثم تولهت قلوبهم فى الملكوت، وجالت أفكارهم بين سرايا حجب الجبروت، واستظلوا تحت روامق الندم، وقرءوا صحيفة الخطايا، فأورثوا أنفسهم الجزع حتى وصلوا إلى علو الزهد بسلم الورع، فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا، واستلانوا خشونة المضطجع حتى ظفروا بجبل النجاة وعروة السلامة، وسرحت أرواحهم فى العلا حتى أناخوا فى رياض النعيم، وخاضوا فى بحر الحياة، ورد موا خنادق الجزع، وعبروا جسور الهوى حتى نزلوا ميناء العلم، واستقوا من غدير الحكمة، وركبوا سفينة الفطنة، وأقلعوا بريح النجاة فى بحر السلامة، حتى وصلوا إلى رياض الراحة ومعدن العزة والكرامة [3].

ولما كانت الحقيقة هى شهود نور الحق فى مظاهر الخلق، أو شهود نور الربوبية فى قوالب العبودية، ومن ثم فإن صاحب الحقيقة هو الذى يغيب عن الخلق بشهود نور الملك الحق، ويغنى عن الأسباب بشهود سبب الأسباب.

وهذا هو ما أشار إليه ابن عطاء الله بقوله: « شعاع البصيرة يشهدك قربه منك، وعين البصيرة تشهدك عدمك لوجوده، وحق البصيرة يشهدك وجوده لاعدمك ولا وجودك. كان الله ولاشىء معه، وهو الآن على ما عليه كان » [4].

وعلى ضوء ما تقدم يتضح لنا أن العباد يشهدون على قدر أنوار أبصارهم، وذلك على ثلاثة مراتب:

(١) المرجع السابق، ص: ١٠١.
(٢) سورة: الحديد: آية: ٣.
(٣) الغزالى: إحياء علوم الدين، ج٤، ص: ١٥.
(٤) ابن عجيبة: إيقاظ الهمم فى شرح الحكم، ص: ٨٦.

الأولـــى: عن طريق شعاع البصيرة يشاهد العبد قرب الحق منه، فيراقبه فى حركاته وسكناته حتى لا يراه حيث نهاه ولا يفقده حيث أمره، وبذلك تزداد البصيرة فى سلوك العبد وتجعله فى حال المراقبة يشعر بمعرفة الله فى كل شىء ويخشاه فى كل أمر.

الثانية: إذا أتم للسالك مجاهدة نفسه واستقام عن طريق المراقبة انفتحت عين بصيرته فوصل إلى عين اليقين، وانصرف قربه من الله تعالى فى عموم الطريق، وهنا يشهد أن كل الأشياء معدومه لوجود الحق، ولا وجود لشىء إلا منه تعالى ولا قيام إلا به لأنه الغنى عن الكل، والكل مفتقر إليه، وبذلك تكون عين البصيرة هى نور اليقين الهادى إلى التحقيق، ويجعل السالك يترك التدبير ويستسلم لحكم المقادير.

الثالثة: فى هذه المرحلة يصل السالك إلى حق البصيرة حيث يشهد له أن الكون لا نسبة فى عدم ولا فى وجود، وأن العبرة تكون بوجود الحق سبحانه وتعالى وحده لأن الحادث إذا قورن بالقديم تلاشى الحادث وبقى القديم، وهنا يصل السالك إلى حال البقاء [1].

خامساً: المشاهدة الملكوتية:

تحدث هذه المشاهدة إذا انجاب غمام الأين، وانسلبت نقطة التعين، وذاب سحاب البين؛ نطقت ألسنة الآيات بحقائق الغيبات ظاهرة فى مرأى الكائنات [2].

ولزيادة الإيضاح نقول مع القشيرى: « يورد الأرواح موارد المكاشفة بأنوار المشاهدة فيغيبون عن الإحساس بالنفس، ويورد الأسرار ساحات التوحيد، وعند ذلك ولاية لله، فلانفس، ولاحس، ولا قلب، ولا أنس، بل استهلاك فى الصفة، والفناء بالكلية.

ومن هذا النص ندرك متى يصل العبد إلى مرتبة الولاية، وما هى الرابطة التى بين الولاية من ناحية، وبين المشاهدة، والتوحيد، وأسراره من ناحية أخرى. فمعنى هذا أن ما يحدث للعبد، وهو فى هذه الحالة من المشاهدة، وعند هذه الدرجة من التوحيد، كله مردود إلى الله، فإذن الولاية فى النهاية هى ولاية لله [3].

ولقد ربط القشيرى بين الشهود والمعرفة فأتاح لكل ملكات النفس فى الإنسان أن تؤدى دورها فيمتزج العلم بالعمل، متخذاً من السر وسر السر وهو النور الإلهى رابطة بين العبد وربه. وهل هناك أجل وأعظم من أن يشاهد العبد ربه وأن يتلقى الأسرار من الله من ينطق عنه.

(١) زروق، أبو العباس أحمد: شرح الحكم، تحقيق عبد الحليم محمود وآخر (ليبيا: طرابلس، ١٩٦٩م) ص: ١٠٤.
(٢) أبو العزائم، محمد ماضى: باب الأرواح، ص: ١٣٨.
(٣) الكاشانى: اصطلاحات الصوفية، ص: ١١٨.

فالربط بين المعرفة والتوحيد عند أهل المعرفة كى يشاهدوا ما يشاهدون بالسر وسر السر الذى منحه الله تعالى لهم بنور قذف فى قلوبهم.

وهكذا ترى المشاهدة عند هؤلاء العارفين الذين اختصهم الله سبحانه وتعالى.

سادسًا: الشهود البصرى والرؤية البصرية:

ينبغى أن نوضح فى هذا الصدد أنه إذا تزين القلب بأسرار العلم، أضاءت أنوار الفكر بعد الذكر على الآثار الكونية، فتجملت بحلل الدلالة على الموجد لها سبحانه وتعالى، وظهرت لذلك الدلالة مظهر سروز للحواس، تتلذذ بها (١).

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾، ﴿إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾(٢).

ثم لا يزال المشاهد ببصره يتناول رحيق القرب والتعارف بمظاهر جمالات تلك الأكوان العلوية والسفلية، وكلما اتسع أمامه نطاق الشهود قوى حاله الحسى، واشتدت نشوته واهتزت أعضاؤه هزة المشتاق الذى طفر بمن يهواه، ويرتقى رتبة رتبة، حتى يصل إلى نيل مقام شهود العرش، ودونه تنتهى علوم المخلوقات.

سابعًا: مفتاح الفكر:

الفكر فى المشهود ظاهرًا، ودقة صنعه، وبهجة حسنه، وإحكام نظامه، وترتيب نواميسه بحكمه حكم الحس بكمالها، ودوام حفظها، وعدم خللها، بحيث أن كل متفكر يتتبع الظواهر الكونية - سماوية أو أرضية أو ما بينهما - ونظر يفكر فى قيام كل مخلوق بتأدية ما خلق له، يعلم بسلامه فكره ودقة نظره، وحسن اتساقها وقيامها بتأدية ماهى له فى وقتها، حتى أنها لا تتخلف. فإذا نظر الناظر بفكره المكتسب من أعضائه الجسمية يتحقق أن هذا النظام اكتسى حلة من الحسن قام بها، ولو سعى ليتحصل على أقل فطور فى حاله المتسق عليه؛ وما فيها من الجمال المنطوى عليه، لنادته ألسنة الحكمة الخفية فى غصونها: أيها المتفكر اجهد فى البحث، وأنت أيها الباحث (٣).

قال تعالى: ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ (٤).

فإذا ذاق حلاوة حسن الترتيب الكونى لمح من شدة ما ظهر حسن كماله وبديع جماله وغريب صنعه، الذى أوقفه فكرة حائرًا أن ينتقل من تمتعه بهذا المشهد؛ إلى البحث عن أسراره

(١) أبو العزائم، محمد ماضى: شراب الأرواح، ص: ١٣٨.
(٢) سورة: آل عمران: آية: ١٩.
(٣) أبو العزائم، محمد ماضى: المرجع السابق، ص: ١٣٩.
(٤) سورة: الملك: آية: ٣.

الخفية ليستنتج من ذلك ما به يكون له على تلك الظواهر الهيمنة والسلطنة، بما أودع فيه من قوة النظر والفكر، فيميل بقوة شديدة، عالمًا أن ذلك ناشىء عن مصادفة شىء بشىء يحدث عنه هذا الانفعال، ولدى تمكن هذا الأمر فى فكره، يرى قدرته عاجزة عن إيجاد بعض مايلزم، وعندها يلوح له انفكاك المراتب الكونية عن كل ما حكم إثباته لها، فيتحير ويندهش ويعاود الفكر أن ذلك ليس مترتبًا على مصادفة، بل هو سر خفى، فيميل إلى أن ذلك محتاج إلى بحث وتنقيب آخر فتناديه ألسنة الأسرار المنطوية فى تلك الكائنات: أيها الحاكم على ما لم تحط به خبرا، رويدك، فليس الأمر على ما تفكرت، ولا هذا هو الباب الذى به تتوصل إلى كشف حقائق تلك الأسرار، فإن لم تتأن وتدخل البيوت من أبوابها.

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ (١).

وفى هذه الرتبة التى يسمع خطاب الكائنات منها؛ ينتقل من مفتاح الفكر إلى مقام التدبر فى خفى تلك الحكمة.

ثامنًا: مفتاح التدبر:

إذا لاح نور أسرار الكائنات على صاحب الفكر المنير بنور الإيمان؛ وظهرت له الحكمة الخفية فاستعملها فى جلب المنفعة مشاهدًا ذلك من تفضل الحق سبحانه وتعالى عليه؛ أضاء له شموس ما وراء ذلك السر، ألا وهى التدبر فى سر أخفى من ذلك، سر ظهور أسرار الأسماء الربانية، سارية فى جميع تلك المظاهر الناطقة بالتسبيح والتهليل والتنزيه لذات الحق تقدست وتعالت. فإذا فاح على المتدبر أريج روض قيامها كلها بالقيوم سبحانه وتعالى، انبلج له صبح التحقق بسر قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾(٢).

ومن الواجب على أهل هذا المقام انحصار قوامهم النورانية فى التدبر فى الآيات الإلهية، وينعم بتلاوة القرآن مع التدبر والذوق، فيحل كل آية فى المقام الذى يليق بها من التنزيه والتشبيه، فلا يشغله شاغل الكون عن شهود الأسرار التى سرت فيه من مبدعه سبحانه وتعالى، ولديها يرتقى من حضيض الحس إلى أوج الروح، وتنكشف له أسرار الملكوت، فإذا تمتع بشهود الأنوار الملكوتية تحلى بلسان العبارة، فترجم عن تلك الحقائق بعبارة كشف عن نور الحكم فيفيض على إخوانه علوم الغيب التى بها سعادة الدنيا والآخرة فإن أفادهم فى مقام الفكر فوائد استعمال الآثار الكونية فى جلب المنفعة ودفع المضرة، يكون بذلك كالغيث النافع عند نزوله لشرب المخلوقات الحية، وإحياء الأرض الميته بعد انقطاعه، وإذا تجمل بحلل توجه المعية تلذذ بشهود جماله سبحانه وتعالى ظاهرًا (٣).

(١) سورة: الملك: آية: ٤.
(٢) سورة: الحديد: آية: ٤.
(٣) أبو العزائم، محمد ماضى: شراب الأرواح، مرجع سابق، ص: ١٤٠-١٤١.

نتائج عامة للبحث

والآن وبعد أن فرغنا من دراسة موضوع : « الحياة الروحية فى الآيات الـ... » دراسة منهجية إسلامية . وما ينطوى عليه هذا البحث من معانى روحية . والتطور الـ... فى لهذه الحياة وكيفية ظهورها . يجب علينا أن نلم فى هذه الخاتمة بأهم النتائج التى توصلـ... إليها :

أولا : الحياة الروحية هى تلك الحياة التى يخضع فيها الإنسان لألوان مختلفـ... من المجاهدة النفس . ونشأت هذه الحياة أول ما نشأت فى الإسلام من التقشف والورع والـ... والزهد والتقوى ، وغير ذلك من مظاهر الانصراف عن الدنيا ، والإقبال على الدين ممـ... اتعًا بين المسلمين فى حياتهم الأولى . وهذه هى الحياة التى كان يحياها النبى ﷺ هو وأصـ... رضوان الله عليهم أجمعين .

من هنا يمكن أن تتخذ بداية الحياة الروحية فى الإسلام من حياة النبى ﷺ وأصـ... بابه ، وما كانوا يأخذون به أنفسهم من زهد فى الدنيا ، وإعراض عن زخرفها وجاهها ، وإقـ... على الله عز وجل بقلوبهم ، وجهاد فى سبيل الله بكل ما أتوا من قوة الإيمان وحرارة اليقـ... ولقد كان الرسول ﷺ يتحنث فى غار حراء قبل الدعوة الإسلامية . فلقد كان ﷺ فى تلـ... الفترة يتأمل الكون بالنظر والتفكر وينظر كذلك إلى مبدع الكون .

كان الرسول ﷺ يفكر فى نفسه من الذى خلقه فى أحسن تقويم؟ وعلى أحـ... صورة؟ من الذى شق سمعه وبصره؟ من الذى منحه القوة والبطش والحركة فى التفكير؟

لذلك ينبغى أن نفهم أن التأمل والتفكر هو أول مراتب العبادة .

ولعلنا إذا نظرنا فيما كان يركن إليه محمد ﷺ من العزلة عن الناس ، والـ... إلى نفسه يتصفحها ، وإلى الكون يتأمله ، وإلى مبدع الكون يستطلعه .

مما تقدم يتضح لنا أن تحنث محمد ﷺ إنما هو البذرة الأولى التى نبت منهـ... الزهاد ، وعبادة العباد .

لقد عاش الرسول ﷺ فى اللذة النفسية الكبرى أو إن شئت فقل اللذه الرو... ، ألا وهى لذة الاستمتاع بما فى الكون من جمال ودعوة إلى التأمل . كان مهاجرًا إلى الـ... كل لحظة من لحظات حياته ، وفى كل نفس من أنفاسه ، وفى كل طرفة عين ، وفى كـ... نبضة قلب ، وكذلك كان رسول الله ﷺ يضاعف خضوعه وتذلله لله سبحانه وتعالى .

فإذا أضفنا إلى هذه الحياة الروحية المحمدية ما كان يأخذ به محمد ﷺ نفسه من تقشف فى الملبس والمأكل ومن عكوف على العبادة والتهجد وذلك بعد الدعوة الإسلامية والجدير بالذكر فى هذا المقام ينبغى أن نوضح أنه توجد فى حياة الرسول ﷺ حادثة من أروع ما سجله التاريخ الدينى فى السير أو الطبقات أو كتب التراث بعد القرآن الكريم ، لما لها من أثر فى تاريخ الحياة الروحية فى الإسلام ، بل كانت ليلة من أشرف ليالى الدعوة المحمدية ، ألا وهى : «ليلة الإسراء والمعراج» . التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم . وأفاضت فى وصفها كتب السيرة .

من هنا كان لابد وأن ننبه أن الإسراء والمعراج فى حياة محمد ﷺ كان له معنى سام غاية السمو ، لم يقف أمامه فى تلك الساعة حجاب من الزمان أو المكان ، أو غيرهما من الحجب . تداعت فى هذه الساعة كل الحدود أمام بصيرة محمد ﷺ ، واجتمع الكون كله فى روحه ، فوعاه منذ أزله إلى أبده .

ولا شك أن هذا يمثل لونًا من الحياة الروحية عاينها رسول الله ﷺ تغلبت فيها نواميس الروح وقواها التى لا تحدها تلك الحدود المادية ولا تخضع لنواميس المادة على نواميس الجسم الذى يخضع لسنن المادة ، فكان الكون كله من أرضه إلى سماواته أمام تلك الروحانية العظيمة التى غلبت على رسول الله ﷺ .

والذى نريد أن نؤكده هنا أنه لما أعرج برسول الله ﷺ ، وعاين ما عاين مما أراه الله إياه من آياته الكبرى كان هذا يعد لونًا من الحياة الروحية لرسول الله ﷺ .

فالرسول ﷺ وهو فى رحلته إلى الحق فإذا كان هذا المعنى الذى يدل عليه نبأ المعراج من وجود الأنبياء والرسل فى السموات ، ومن أن الرسول ﷺ أخذ يتجاوز هذه السموات واحدة بعد الأخرى ، ويتجاوز الأنبياء واحدًا بعد الآخر فنقول : كما أن المعنى الذى يدل عليه نبأ المعراج معنى مكانى ، فإنه أيضًا - بل بطريق أولى - معنى روحى .

أى أن الرسول ﷺ فى تساميه الروحى فى كل لحظة من اللحظات قد بلغ فى معراجه إلى درجات تجاوزت فى روحانيتها آدم فى سمائه الأولى ، ثم تجاوزت يحيى وعيسى عليهما السلام ، فى سمائهما الثانية ، ثم تجاوزت يوسف عليه السلام فى سمائه الثالثة . . وهكذا . حتى تجاوزت روحيًا إبراهيم عليه السلام فى سمائه السابعه ، ولقد تجاوزت كل ذلك ، وتجاوزت الكون كله إلى سدرة المنتهى ، إلى شجرة النهاية ، إلى حيث لا يبلغ ملك مقرب ولا نبى مرسل . لقد رأى من آيات ربه الكبرى ؛ هذا هو مقام الرسول ﷺ .

من هنا كان الإسراء لرسول الله ﷺ سياحة روحية خالصة تعبر عن آفاق عليا ، وعن أجواء إلهية جديدة ، وعن مشارف من السمو والدرجات العلى حظى بها الرسول ﷺ . فالإسراء فضل وتكريم ونعمة .

فإذا أضفنا إلى هذه الحياة الروحية المحمدية ما كان يأخذ به محمد ﷺ نفسه من تقشف فى الملبس والمأكل ومن عكوف على العبادة والتهجد وذلك بعد الدعوة الإسلامية والجدير بالذكر فى هذا المقام ينبغى أن نوضح أنه توجد فى حياة الرسول ﷺ حادثة من أروع ما سجله التاريخ الدينى فى السير أو الطبقات أو كتب التراث بعد القرآن الكريم، لما لها من أثر فى تاريخ الحياة الروحية فى الإسلام، بل كانت ليلة من أشرف ليالى الدعوة المحمدية، ألا وهى: «ليلة الإسراء والمعراج». التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم. وأفاضت فى وصفها كتب السيرة.

من هنا كان لابد وأن ننبه أن الإسراء والمعراج فى حياة محمد ﷺ كان له معنى سام غاية السمو، لم يقف أمامه فى تلك الساعة حجاب من الزمان أو المكان، أو غيرهما من الحجب. تداعت فى هذه الساعة كل الحدود أمام بصيرة محمد ﷺ، واجتمع الكون كله فى روحه، فوعاه منذ أزله إلى أبده.

ولا شك أن هذا يمثل لونًا من الحياة الروحية عاينها رسول الله ﷺ تغلبت فيها نواميس الروح وقواها التى لا تحدها تلك الحدود المادية ولا تخضع لنواميس المادة على نواميس الجسم الذى يخضع لسنن المادة، فكان الكون كله من أرضه إلى سماواته أمام تلك الروحانية العظيمة التى غلبت على رسول الله ﷺ.

والذى نريد أن نؤكده هنا أنه لما أعرج برسول الله ﷺ، وعاين ما عاين مما أراه الله إياه من آياته الكبرى كان هذا يعد لونًا من الحياة الروحية لرسول الله ﷺ.

فالرسول ﷺ وهو فى رحلته إلى الحق فإذا كان هذا المعنى الذى يدل عليه نبأ المعراج من وجود الأنبياء والرسل فى السموات، ومن أن الرسول ﷺ أخذ يتجاوز هذه السموات واحدة بعد الأخرى، ويتجاوز الأنبياء واحدًا بعد الآخر فنقول: كما أن المعنى الذى يدل عليه نبأ المعراج معنى مكانى، فإنه أيضًا - بل بطريق أولى - معنى روحى.

أى أن الرسول ﷺ فى تساميه الروحى فى كل لحظة من اللحظات قد بلغ فى معراجه إلى درجات تجاوزت فى روحانيتها آدم فى سمائه الأولى، ثم تجاوزت يحيى وعيسى عليهما السلام، فى سمائهما الثانية، ثم تجاوزت يوسف عليه السلام فى سمائه الثالثة.. وهكذا. حتى تجاوزت روحيًا إبراهيم عليه السلام فى سمائه السابعه، ولقد تجاوزت كل ذلك، وتجاوزت الكون كله إلى سدرة المنتهى، إلى شجرة النهاية، إلى حيث لا يبلغ ملك مقرب ولا نبى مرسل. لقد رأى من آيات ربه الكبرى؛ هذا هو مقام الرسول ﷺ.

من هنا كان الإسراء لرسول الله ﷺ سياحة روحية خالصة تعبر عن آفاق عليا، وعن أجواء نهية جديدة، وعن مشارف من السمو والدرجات العلى حظى بها الرسول ﷺ. فالإسراء فضل وتكريم ونعمة.

فالرسول ﷺ كان دائمًا مع الله، يقلب بصره فى السماء على الدوام، وهو يؤدى رسالة السماء كاملة غير منقوصة، إنه على حد تعبير القرآن: ﴿بشرًا رسولاً﴾. (الإسراء: ٩٤).

والرسول ﷺ كان ببشريته مع الناس، وبسره مع الله. كان مع الناس بإرادة الله وتوجيهه وأمره، كان مع الناس بكلمة الله ورسالته، كان مع الناس رسول من قبل الله.

وبهذه المعانى كلها نستطيع أن نقول: إنه دائمًا مع الله والآيات القرآنية صريحة واضحة الدالة على ذلك.

ويترتب على كل ما تقدم أن رحلة الإسراء والمعراج لرسول الله ﷺ إنما كانت حياة روحية خالصة اختارها الله عز وجل لنبيه الذى جاهد فى تثبيت هذا الدين ونشره والعمل على إسعاد الإنسانية به، لكى ينتهجوا النهج النبوى فى سلوكهم وأخلاقهم حتى يفوزوا برضا الله فى الدنيا والآخرة. فمن أراد أن يسلك نهج نبيه فليعرج إلى ربه بالطاعات ويسرى إلى ساحة الفضل والإنعام. ومن أراد أن يسرى به ربه، وأن تعرج به ملائكة الرحمة فليدم مناجاة ربه وليحسن وقوفه بين يديه.

ثانيا: لقد كانت حياة الصحابة رضى الله عنهم كحياة النبى ﷺ حافلة بالأحوال والأقوال التى تدل دلالة واضحة على زهدهم وورعهم وتقشفهم وغير ذلك من مظاهر الإقبال على الله والاعراض عن الدنيا. وكلها أمور لا يستطيع أن يغفلها الباحث أو ينكرها عندما يريد أن يبين مقومات الحياة الروحية فى صدر الإسلام.

ولقد انتهج السلف الصالح من الصحابة طريق الروح باستنباط مباشر وتعمق فى الآيات الروحية فى القرآن الكريم. كما كان دأبهم النظر والتفكر.

ونحن نجد كذلك بذور الحياة الروحية المغروسة فى قلب النبى ﷺ، وقلوب صحابته من الخلفاء الأربعة فى قلوب كثير من الصحابة غير الخلفاء.

ونذكر هنا على سبيل المثال أهل الصفة وما كان لهم من أثر قوى فى تاريخ الحياة الروحية عامة. وأهل الصفة هؤلاء قوم من فقراء المهاجرين والأنصار، كانوا يفدون على رسول الله ﷺ، وليس لهم أهل ولا مال، فبنيت لهم صفة فى مؤخر مسجد النبى ﷺ بالمدينة، وانقطعوا فى صفتهم إلى الله، وعكفوا على العبادة، وأمعنوا فى رياضة أنفسهم على الزهد والتقشف فتجردوا عن أعراض الدنيا، واتجهوا وجهة روحية خالصة. حتى لقد وصفهم أبو نعيم الأصبهانى بقوله: «هم قوم أخلاهم الحق من الركون إلى شىء من العروض، وعصمهم من الافتتان بها، وجعلهم قدوة للمتجردين من الفقراء، لا يأوون إلى أهل ولا مال، ولا يلههم عن ذكر الله تجارة ولا حال؛ لم يحزنوا على ما فاتهم من الدنيا، ولم يفرحوا إلا بما أبدوا من العقبى».

لقد تربى هؤلاء الصحابة فى حجر النبوة سابحين فى حياض المعرفة اللدنية التى تنثال على قلب صاحب الرسالة لينهلوا منها، فعلمهم وذوقهم من هذه الحياض النضرة الى لا ينضب معينها، ومنبعها، لأنها منة وفضلا ولطفا وفيضا من الله سبحانه وتعالى لعباده المخلصين.

وينتهى بنا هذا كله إلى أن الحياة الروحية الإسلامية قد وجدت بدايتها فى تحنث محمد ﷺ أولا، وفى حياة محمد ﷺ المسلم والنبى المرسل ثانيا، وفى نسك الصحابة وزهدهم بعد هذا وذاك.

ومما يراه الباحث فى هذا المقام أن أكابر الصحابة مثل الصديق، وعمر، وعثمان، وعلى، رضى الله عنهم، والسابقين من المهاجرين والأنصار عاشوا حياتهم الروحية فى التأمل والتفكر والتدبر فى الآيات الكونية الدالة على قدرة الحق سبحانه وتعالى.

فمن أراد أن يدرس الحياة الروحية عند هؤلاء الصحابة فإنه يقر بأنهم أصحاب منهج روحى خالص فى توجههم إلى الله سبحانه وتعالى بالطاعات والقربات. فهم سادات العارفين، وأئمة الواصلين المقربين، وقدوة للسالكين لقوة إرادتهم، وكثرة منازلاتهم، ومعاينة مالم يعانيه غيرهم كما كانوا أكمل وأقوى عقولاً، وأثبت فى الأحوال الإعانية، سلكوا مسلك الأخيار فأصبحوا مؤمنين بالله حق الإيمان.

ومن أراد أن يسلك سلك هؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم فيأخذ منهم العظة والاعتبار فى جعلهم القدوة الصالحة التى يقتدى بها كل من أراد طريق الحق إلى الملك الحق.

من هنا نأخذ العظة والاعتبار عند النظر فى مكونات الحق الظاهرة فيرقى الفكر ويتيقظ القلب من نوم الغفلة لكل من أراد أن يعيش فى التدبر، فيقبل بذلك على الله بكليته حتى يكون فى موطن القرب من الله تعالى فيكون طائعًا لله.

وإذا كانت الهجرة تطلق على الخروج من أرض إلى أخرى فإن هذه الهجرة إنما تعنى هجرة للمكان.

لذلك كان من الواجب أن نتنبه إلى أن الهجرة النبوية لم تكن هجرة للجسد فقط، وإنما كانت هجرة للجسد والنفس معًا. أو إن شئت فقل هجرة للروح.

والجدير بالذكر فى هذا المقام أن هذه الهجرة الروحية الخالصة لوجه الله سبحانه وتعالى وابتغاء مرضاته عايشها الرسول ﷺ، وكذلك أصحابه من المهاجرين الذين هاجروا معه من مكة إلى المدنية.

من هنا تأخذ الهجرة النبوية معنًا آخر غير هجرة الأوطان فتصبح هجرة للنفس بمخالفتها عن مألوفاتها المرذولة. هذا بالنسبة لنا فيما نأخذ درسا يستفاد به من الهجرة النبوية مصداقًا لقول الرسول ﷺ: «المهاجر من هجر ما نهى الله عنه».

ومن جانب آخر كانت الهجرة البدنية نتيجة طبية لهجرة القلوب عما كان عليه أهل مكة من الكفر والضلال والشرك والإلحاد.

هذا وينبغى أن نوضح أن هجرة الأبدان لا تقع عند الله موقعها إلا إذا كانت تلبية لهجرة القلوب وامتداد لها. فتندفع الأبدان إلى الهجرة لتؤدى هجرة القلوب واجبها وتصل إلى غايتها.

فالهجرة على ما تقدم حقيقة تاريخية، ورمز روحى جميل، يعبر خير تعبير عما يجب أن يكون عليه المسلم فى كل فترة من فترات حياته، بل فى كل نفس من أنفاسه.

وبذلك تصبح الهجرة رمزًا عن الهجرة الروحية، أو إن شئت فقل: الهجرة التى لا ترتبط بزمان ولا مكان.

والهجرة بهذا المعنى الذى يتجاوز الواقع التاريخى، ويتجاوز الزمان والمكان قد وردت فى القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة.

كما أن الهجرة إلى الله، والذهاب إليه من صفات المؤمنين الصادقين؛ إنهم يفرون إلى الله ويهاجرون إليه فى كل يوم، وكل وقت، فالفرار إلى الله هدفهم النبيل، وغايتهم فى جميع أحوالهم وأعمالهم. فهجرة المؤمن الصادقة إنما تكون خالصة لله وحده ولوجهه الكريم.

وعلى ضوء ما تقدم نستطيع أن نقول: المؤمن يهاجر إلى الله بعلمه، ويهاجر إلى الله بعمل الخير.

ولا ينبغى أن نغفل فى هذا المقام لابد وأن نلفت النظر إلى أن العبادات الإسلامية على تعددها واختلافها، إنما هى تنسيق وتنظيم لأنواع وألوان من الهجرة إلى الله تسمو بالمؤمن صعدًا إلى الصلة بالله، وإلى النعيم فى رضوانه، وإلى السعادة فى رحابه.

فالصلاة فرار من البيئة والجو والمادة إلى الوقوف بين يدى الله ومناجاته ـ لحظة من الزمن ـ فهى هجرة إلى الله.

والزكاة انفصال عن جزء من المال تقربًا إلى الله، فهى ذهاب وهجرة إليه سبحانه وتعالى.

والصوم ابتعاد عن المادة فترة من الزمن، تزكية للنفس، وقرب إلى الله، فهو ذهاب إليه.

أما مناسك الحج فإنها صور من التجرد لله بلغت الذروة والسنام، وتبلورت فى النداء الروحى الكريم: «لبيك اللهم لبيك».

لذلك يمكن القول من أراد أن يأخذ المنهج النبوى دستورًا له فإنما يتمثل فى كون المهاجر المتنقل من مكان إلى آخر أن تأخذ هجرته معنًا آخر هو هجرة للروح فى طاعة الخالق

عز وجل. وهذا ما فعله الرسول ﷺ، وكذلك السلف الصالح من الصحابة رضوان الله عليهم الذين انتهجوا النهج النبوى فى أقوالهم وأفعالهم.

فالهجرة الروحية أو هجرة النفس تتمثل فى كون المرء متحرراً من الرذائل والقبائح ومتحليًا بالفضائل والقيم الأخلاقية. لذلك كان من الواجب على المرء أن يهاجر إلى الله فى كل لحظة من لحظات عمره، فيهاجر إليه بالنية الخالصة، وكذلك بالأعمال الصالحات فيصبح فى معية الحق سبحانه وتعالى.

وعلى ذلك يمكننا القول بأن الهجرة دعوة للتأمل والتدبر لكونها مأخوذة من الهجر. كما أنها تعنى هجر ما نهى الله عنه وبذلك نسمو بأنفسنا إلى السمو الروحى والكمالات الأخلاقية.

وبذلك كانت الهجرة درسًا معلمًا ورائدًا موجهًا إلى الطريق الحق وإلى الصراط المستقيم. يطلق الهجرة على الفرار إلى الله عز وجل. أى بمعنى الفرار من موطن العلائق فيقبل على الله عز وجل ويسلك الطريق حتى يصل إلى الحضرة الإلهية تلك هى الهجرة الروحية الخالصة وجه الله عز وجل.

وكذلك تكون الهجرة إلى الله سبحانه وتعالى بمعنى الارتحال من الأكوان إلى المكون وهو المحبوب من العبد. هذه هى الهجرة النفسية التى يفر فيها المرء إلى الله سبحانه وتعالى تربط ظاهر الإنسان بباطنه وعقله وقلبه وروحه ووجوده بخالقه. وبذلك تكون هجرة وسياحة روحية إلى الملأ الأعلى.

فالهجرة الروحية على نحو ما قدمناه إنما تعنى هجر ما نهى الله عنه. فالحق سبحانه وتعالى يدعو إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ولنضرب أمثله على ما نحن بصدده: فترك الأنانية وحب الذات هجرة، وترك التجسس على عورات الناس هجرة، وترك الكيد والدس بين الأفراد والجماعات هجرة، وتطهير الصدر من الأضغان والأحقاد هجرة.

وعلى ذلك فالهجرة تغذينا بغذاء روحى يجدد الإيمان، وتنفحنا بروح قوى يطارد نزعة الشيطان. فالهجرة لها شأن عظيم لا يدرك أمرها إلا أصحاب العقول المستنيرة والقلوب الواعية.

وهكذا يصبح الهدف من الهجرة هو قطع عروق العلائق بالفرار من وطن العوائق، كل ذلك بالإضافة إلى أن الهجرة سنة نبوية، ومنذ هاجر النبى ﷺ لم تكن له راحة إلا فى السفر والجهاد. وذلك بالإضافة إلى أن فائدة السفر والسياحة فى مساعدة الإنسان على التحقيق بأن يبتعد عما يشغل باطنه عن غير الله سبحانه وتعالى. ومن ثم يستطيع الإقبال عليه سبحانه، وسلوك الطريق حتى الوصول إلى الحضرة الإلهية.

ولقد كان لكل هذه الأسباب دورها الفعال فى جعل التابعين فى رحيل دائم لا تستطيب لهم الإقامة فى وطن حسى واحد، إلا أن ذلك لم يمنع أيضا من أن يرى هؤلاء أن السفر والهجرة يمكن أن يكونا أمران معنويان.

وختاما نستطيع أن نقول: إن الهجرة على هذا النحو تعد هجرة روحية خالصة لوجه الله والتعجب فى آلائه حتى تتخلص النفس من المرذولات وتتجمل بالأخلاق الفاضلة.

ثالثا: لقد أوضحنا فيما تقدم كيف كانت الحياة الروحية التى كان يحياها النبى ﷺ مثلا أعلى يتأثره أصحابه رضوان الله عليهم، ويتحققون بما ينطوى عليه من معانى العبادة والزهد فى الدنيا والإعراض عن جاهها ومتاعها والإقبال على الله سبحانه وتعالى.

وها نحن رأينا أن حياة النبى ﷺ، وحياة أصحابه، وما ضربه كل منهم من الأمثال على رياضة النفس ومجاهدة الهوى وإماتة الشهوة والعمل على تنمية بذور الإيمان والتقوى. قد كان كل أولئك أسوة حسنة، وقدوة صالحة اقتدى بها، واهتدى بهديها من جاء فى أعقاب النبى ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم من التابعين الذين عرفوا بالنسك والتعبد، وامتازوا فى حياتهم بالتقلل والزهد.

هؤلاء التابعون ساروا على نهج النبى ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم، وكان لهم أثرهم الخصب المنتج لأحسن الثمرات فى تغذية الحياة الروحية الإسلامية وتنمية بذورها. كما اهتم التابعون بأمر الدين، وقلة الإقبال على الدنيا، وكثرة الذكر لله. ودوام التفكر فيه والركون إليه، والتوكل عليه.

ولعل أول ما يلاحظه المتأمل فى الحياة الروحية عند هؤلاء التابعين، يجد أنها مطبوعة بطابع الزهد، خاضعة لسلطان الحزن والبكاء اللذان يدلان دلالة واضحة على مبلغ شعورهم بالألم الناشىء عن المعصية والخوف مما يترتب على المعصية من عذاب.

فالحياة الروحية التى كان يحياها الزهاد والعباد فى القرنين الأولين للهجرة كان يتقاسمها الزهد مع الخوف من عذاب النار والطمع فى ثواب الجنة من ناحية، والزهد مع حب الله لذاته وابتغاء لمطالعه وجهه من ناحية أخرى. ولنضرب الآن أمثله على ما نحن بصدده:

فالحسن البصرى يعد بحق مثلاً صادقًا للحياة الروحية التى كان يحياها الزاهد المسلم فى القرن الأول، وفى شطر القرن الثانى للهجرة، والتى كان قوامها عنده الزهد فى الدنيا، والإعراض عن جاهها، والإقبال على الله، والخوف منه، والتوكل عليه، والتفكر الدائم فيما بينه وبين نفسه، والتصفح المتصل لما تنطوى عليه نفسه. ولقد صبغ حياته الروحية بصبغة الزهد والتفكر والحزن.

والمتأمل فى الحياة الروحية التى كان يحياها الحسن البصرى، وفى أقواله فى الزهد والخوف والحزن والتفكر، وهى عنده دعائم هذه الحياة الروحية.

من خلال ما قدمناه يتبين لنا مفهوم الحياة الروحية عند التابعين حيث عاشوا فى بداية أمرهم على الفرار من الخلق للانفراد بالملك الحق. وإخفاء الأعمال، وكتم الأحوال، تثبيتًا وعملا على سلامة قلوبهم، وحبا فى إخلاص أعمالهم لربهم. ولقد كان التأمل والتدبر عند هؤلاء نموذجًا واضحًا لانقطاعهم إلى الله عز وجل.

وكذلك نظر هؤلاء التابعين إلى الكون والإنسان نظرات ذات مغزى أخلاقى بعيد، فهم يريدون أن يبينوا للناس أن الكون مجرد شأن من شئون الله ومصيره حتما إلى الفناء فلا ينبغى التعلق به.

ومما ينبغى أن يفهم أن التابعين اتخذوا من الحياة الروحية فى الإسلام التى عمادها الكتاب والسنة منهجا ووسائل وأهداف وغايات للعبودية لله وحده بتوحيده ومعرفته منذ أن نزل الوحى بأول آية: ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ . إلى الناس جميعا. واضعين نصب أعينهم أن غاية الإنسان هى العبودية الخالصة لله سبحانه وتعالى.

ولو ذهبنا نعدد تجارب الصالحين منذ عصور متطاولة، دلت على أن تزكية النفس والإلتجاء إلى الله، والتقرب إليه، كل ذلك يسمو بالإنسان إلى عالم من الروحانية، تستشرف فيها النفس إلى الملأ الأعلى، فتفيض عليها من نفحات وإلهامات، ومعرفة لا تتأتى بذوى النفوس المادية الذين شغلوا بالدنيا عن الدين، والمادة عن الله.

وتتمثل الحياة الروحية عند التابعين فى توجههم إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء، لأن العبد فى دعائه لربه يستمد منه المعونه فيتلطف عليه الحق عز وجل بالعناية. وحقيقه الدعاء عند هؤلاء الافتقار إلى الحق والتبرؤ من الحول والقوة وهو شيمة العبودية.

والحاجة الروحية للإنسان تمثل طرفا قويا فى الاستنجاد بالحق عز وجل والاسترسال مع الله فيصبح فى معية الله لا يشغله عنها شاغل، بل خاضع خاشع متذلل متواضع ضارع إلى الحق، وكذلك مستغيث ومستجير من المخاوف.

وقد كانت الحياة الروحية عند التابعين تسير على نهج وهدى من الكتاب والسنة، كما أن هؤلاء التابعون كان كل همهم تعلقهم بالحق سبحانه وتعالى، وإقبال أسرارهم وقلوبهم عليه، وتوجههم بكليتهم بين يديه سبحانه وتعالى، وذلك لأنهم لم تملكهم الدنيا وإن ملكوها.

كل هذا أدى بالتابعين من الخلف الصالح إلى معرفتهم الذوقية العالية وسياحتهم الروحية إلى الملأ الأعلى التى كان مصدرها الكتاب والسنة. لا يوجد فى قلوبهم سوى محبة الله وإرادته وعبادته لأن عندهم من العلم والتمييز ما يشهدون به الأمور على ما هى عليه بل

يشهدون المخلوقات قائمة بأمر الله، مدبرة بمشيته. بل مستجيبة له، قانته له، فيكون لهم فيها تبصرة وذكرى، ويكون ما يشهدونه من ذلك مؤيدا ومدا لما فى قلوبهم من إخلاص الدين، وتجريد التوحيد لله، والعبادة له وحده. هؤلاء هم التابعون من الخلف الصالح الذين كانوا مع الله فى كل أنفاسهم، وهؤلاء هم الخلص من عباده الذين ينظرون بنور الله بقلوبهم وبقربهم من الله تعالى، سلكوا طريق الصدق والصفاء والإخلاص فأصبحوا لا ينطقون إلا عن الله عز وجل وإلى ربوبيته يشيرون.

رابعا: يجب أن نفهم أن الكون أو الوجود أو المخلوقات كلها ألفاظ إن اختلفت فى حروفها ومبناها فإنها واحدة فى مدلولها ومعناها؛ وهى كل ما سوى الله من الأكوان والموجودات بأنواعها من أرض وسماء وشمس وقمر وبحار وأنهار، وجميع مفردات المخلوقات من نبات وجماد وحيوان وإنسان ومظاهر كونية تتحقق وتوجد فى أى مظهر من مظاهر الموجودات التى لا يمكن حصرها ولا استقصاؤها لا بالعبارة ولا بالإشارة. وما الإنسان فى محيط هذه الأكوان إلا كحبة رمل صغيرة فى صحراء مترامية الأطراف، واسعة الجنبات.

فإذا كانت السماء والأرض بالنسبة لملك الله كحلقة فى فلاة كما وردت بذلك الآثار فماذا يكون الإنسان بالنسبة لملك الله ومخلوقاته؟!

إن الإنسان ليتضاءل فى نفسه أمام عظمة الله عندما يتسنى له الكشف عن خباياها فى بعض مخلوقاته عز وجل.

والحكمة من وجود الإنسان فوق هذه الأرض هو مشاهدة عظمة الله، ومشاهدة آياته، وعن طريق هذه المشاهدة يتعلم الإنسان، يتفكر، ثم يتفقه، ويتوقد ذهنه فيدرك.

وبما أودع الله فيه من فطنة يرى إبداع الخالق، وبما أودعه الخالق فيه من ذكاء يحاول أن يبتكر، حتى تأخذ الحياة زخرفها، فالإنسان خليفة الله فى أرضه، استخلفه فيها ليكون أداة صلاح، وأداة عمل، وعلى خلق قويم.

وهنا ينبغى أن نوضح أن للإنسان علاقة بهذا الكون الفسيح الجميل الحى المسبح، الذى يعيش بين أحضانه ويحيط به إحاطة مشاركة وانفعال واستجابة ومودة. وكذلك للإنسان صلة بمبدع الكون وموجده الكبير المتعال، الرحمن الرحيم، رب كل شىء ومليكه، المهيمن المتجلى، المنعم الودود، الظاهر والباطن، نور السموات والأرض، وقيوم كل شىء.

والقرآن الكريم فى معرض آياته وسوره، شغف بالربط بين الإنسان والأكوان الأخرى وهنا نجده يربط بين ما هو أكبر الأشياء وبين ما هو أصغر الأشياء جمعا بين طرف الموجودات وإشعارًا للإنسان بضآلته وضحالته فلا يطغى ولا يفتر ولا يتكبر فقد خلق ضعيفا من سلالة من ماء مهين فيزج به فى معرض عظائم المخلوقات ليتضح له حاله ويتجلى له عواره فيلزم الأدب

والطاعة والامتثال ويشكر الله على أنه جعل أشد المخلوقات خلقا مسخرة مذللة له وهو الأضعف خلقا.

كما حث القرآن الكريم حريصا على أن يظل هذا الإنسان مشدودا إلى الكون الذى يعيش فيه ليظل يتدبر. والآيات القرآنية كثيرة فى هذا المعنى تهدف كلها إلى دعوة الإنسان إلى النظر فى ملكوت الله سبحانه وتعالى سواء كان فى المكان الذى يعيش فيه أو فى مكان آخر. بل تدعوه إلى أن يقلب بصره ونظره فى كل مكان يذهب إليه، ثم يتدبر ويتفكر ليعيش فى ملكوت الله تعالى.

حقا إن الإنسان كون صغير داخل كون كبير ولكل من الكونين انعكاساته على الآخر وتفاعلاته معه.

من هنا كانت دعوة القرآن الكريم إلى الناس جميعا أن يعرفوا صانع هذا الكون بعقولهم وقلوبهم وذلك بالنظر فى ملكوت الله الذى أتقن كل شىء.

هكذا ينبه القرآن الكريم الأذهان إلى الظواهر الكونية الدالة على قدرة الكبير المتعال.

وقد منح الله سبحانه وتعالى الإنسان الفطرة التى يدرك بها الهداية ليتبين له الرشد من الغى لأن المعارف السليمة توصل للمبادئ المستقيمة والعقائد القويمة وتمنع العقل من التورط فى الهلاك.

وقد حث القرآن الكريم على النظر فى الكون إجمالا وتفصيلا ليعمل العقل عمله. وفى خلق السموات والأرض آيات كثيرة ودلائل وفيرة حتى حصر بعض المفسرين من الآيات الكونية فى القرآن الكريم ما يزيد على مائة وخمسين آية تخاطب العقل والروح بالمنطق الواضح. فالآيات الكونية موضوعها أو سبيل الاستدلال فيها الظواهر الكونية، من السماء بشمسها وكواكبها والأرض وجبالها وأنهارها ودوابّها وبحارها وأقواتها، وما فى الكون من عجائب وحوادث تجرى وتتكرر على نظم وسنن إلهية.

إن القرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد وتشريع إلهى ودين، يربى الناس على النهج القويم الذى رسمه الله لهم، وجب أن نذكر بأن آيات الله فى خلقه نوعان:

١ - الآيات الجارية على سننه تعالى المطردة فى نظام الخلق والتكوين وتدبير الكون.. وهى كثيرة لا تظهرها، وأدلها على كمال قدرته وإحاطة علمه وحكمته، وسعة فضله ورحمته.

٢ - الآيات الثانى: الآيات الجارية على خلاف السنن المعروفة للبشر وهى أقلها، وربما كانت أكثر عند كثير الناس على اختياره عز وجل فى جميع ما خلق وما يخلق.

والقرآن الكريم يدعونا إلى:

(١) الإيمان بالله تعالى بأنه خالق كل شىء بقدرته وإرادته وحكمته.

(٢) أن الله تعالى عالم الغيب والشهادة. وأن هذا الكون قد خلقه تعالى بإتقان.

(٣) أن الحق تعالى خلق كل شىء بنظام وتقدير.

وآيات الله فى الأكوان واضحة شاهدة تدل على أن الله سبحانه وتعالى قد أكرم العقل البشرى فألزمه بالنظر فى ملكوته ليعرف أن كل صنعه لابد لها من صانع. ويصبح التفكير فى الكائنات هو قراءة العقل فى صفحات الكون.

وهنا نوضح لأصحاب العقول أن علوم القرآن تتلاقى عند علوم الأكوان عندما تكشف أسرار الطبيعة الدالة على الله والتى تبرهن على آيات الله فى الآفاق. وفى القرآن الكريم سبعمائة وخمسون آية كونية وعلمية وكلها براهين على وجود الله بديع السموات والأرض.

فالتفكر تأمل عقلى لكنه مرتبط بالإيمان بالله فاطر السموات والأرض. وهذا هو منهج القرآن الذى دعا إلى التأمل فى الكون وما فيه من الآيات الكونية التى تدلنا على صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى لكى نخشع له ونعبده بها، ونوحده فلا نشرك به أحداً، إذ أنه تفرد بهذه الصفات العظيمة.

وعلى هذا الضوء نستطيع أن نقول: إن النظر والتدبر فى الآيات الكونية يجعل الإنسان المؤمن فى تضرع إلى الله بقراءة القرآن، وبتكرر عرض الآيات الكونية فيتأملها ويستجيب قلبه وربما لسانه لأسئلة القرآن وأوامره، استجابة مصحوبة بانفعال الخضوع والشكر لله.

خامسا: إن عظمة الخالق جل علاه شىء لايكاد يتصوره العقل البشرى، ولا يستقيم مع الفكر؛ بل ولا يسعنا الخيال لادراكه مهما أطلقنا العنان وسبحنا فى ملكوت التفكير العميق، فالإنسان مهما بلغ من حدة الذكاء وقوة الإدراك فله مجاله المحدود.

وهنا ينبغى أن يفهم قبل كل شىء أنه لا يعرف الله تعالى حق معرفته إلا الله تعالى. وكيف يطمع الإنسان أن يعرف الله حق معرفته وهو ليس يعرف نفسه حق معرفتها؟!

وقد عرف الله سبحانه وتعالى نفسه إلى خلقه فى آيات بينات استفاض بها القرآن الكريم الذى عجز الأولون والآخرون عن الإتيان بسورة من مثله. والإسلام دين الفطرة، والفطرة مزيج من العقل والعاطفة. والتعرف إلى الله عن طريق هذه الفطرة أمر ميسور.

ويأمرنا الحق عز وجل بالنظر فى السموات والأرض، ونحو ذلك من الآيات الدالة على التفكر فى عجائب المخلوقات وما انطوت عليه من العبر والعظات الدالة على العلم بالله عز وجل، وما له من صفات الكمال، ونعوت الجمال، ونحو ذلك من دلائل الجمال.

فإذا تفكر القلب فى وجود المخلوقات هداه ذلك التفكر إلى وجود موجدها.

وهذا النظام البديع الصنعة حجة تنادى: لم أوجد عبثًا، إذ لو وجدت عبثًا لما كان هذا التدبير لبقائك أيها الإنسان، ولما وجدت تلك الحقائق لحفظك ممتعًا بالراحة والأمان!!

ولقد وصف الحق سبحانه وتعالى الذين يتفكرون فى خلق السموات والأرض بأنهم من أولى الألباب، وهؤلاء فى أعلى درجات الجنة. لذلك فقد غرس القرآن الكريم فى نفوس الذين ربّوا عقولهم وعواطفهم وسلوكهم بآيات الله فى الآفاق مبادئ وأسسا منهجية للبحث عن ظواهر الكون بتفكير منطقى سليم. فإذا نظر الإنسان فيما ورد من الآيات الحادثة على الفكر والاعتبار والنظر فى آيات الله الظاهرة فى مكوناته، لتحقق له أن أوجب الواجب على المؤمن معرفة آلاء الله بالفكر والنظر. فالتأمل والتفكر والتدبر فى آلاء الله إذن موصل إلى السعادة الأبدية، فإن الفكر فى تلك الآثار الكونية يدل على أنها مبدعة محدثة، خصوصًا إذا فكر فى تلك الأجرام السماوية العظام وإبداع صنعتها، وفى نفسه وما أحاط به وما فيها من غرائب الحكمة، وبدائع القدرة، مما فكل الأفهام عن إدراك بعض عجائبه، تحقق عظمة شأن الصانع وكبرياء سلطانه، وذلك لأن الفكر يعجز عن إدراك أسرار الآيات الظاهرة، ويندهش العقل عند ظهور بعض حكمها وما هى عليه من كمال النظام والترتيب العجيب.

فسبحان من لا يعلم قدرته غيره ولا يبلغ الواصفون صفته.

إن الحديث عن حقيقة التفكر يجعل المرء دائمًا متوجهًا إلى الله وبالله ومع الله، فيتحلى قلبه بالرضا وإسقاط التدبير مع الله. فالآيات التى تدعو إلى التفكر والتأمل فى شتى الأمور تبين أن من يتفكر فى ذلك تفكيرًا سليمًا يهتدى إلى الحقائق لا محالة. ولا شك أن هذه الآيات من الأمور الجديرة بالتفكر للاستدلال بها على عظمة الخالق عز وجل.

وهنا تبرز أهمية التفكر بعين الاعتبار لمن انفتحت عيون بصائرهم، وانكشفت لهم علل القلوب وأمراضها وأدويتها بنور العلم واليقين. وبذلك يكون التفكر بابا من أبواب العلم اللدنى.

وهذا ما أشار إليه الغزالى بقوله: «إذا تفكرت النفس تعلمت وارتاضت بالعلم، ثم تفكرت فى معلوماتها بشروط التفكر ينفتح عليها باب الغيب، فالمتفكر إذا سلك سبيل الصواب يصير من ذوى الألباب، عالما كاملا عاقلا ملهما مؤيدًا».

ما أحوج العقول والقلوب والأرواح أن نقف بكل إجلال وتدبر أمام بديع صنع الله عز وجل متأمله. وما أحوج الأرواح إلى أن تقتبس من نور الرسول ﷺ فيكون ضياء للسالكين، وهدى للعالمين، وقدوة للصالحين.

سادسا: يمكن أن نعتبر المبادئ التى قامت عليها نظرة الإسلام إلى الإنسان والكون [illegible]

أسسا يستطيع الباحث أن يبنى عليها وينطلق منها عندما يبحث عن آيات الله فى الآفاق ونستطيع الآن أن نقدم بعضها مجمله فى النقاط التالية:

(١) تحرير الإنسان من العبودية أو العدوان لقوى الكون وقد رأينا أن الحجج القرآنية التى انطلقت من الواقع وبرهنت على أن الإنسان لم يخلق من غير خالق، وأنه لم يخلق الكون والسموات والأرض التى لابد لها من خالق. لذلك أمرنا القرآن الكريم أن نتحرر من عبودية الكون وقواه لنعبد خالقها.

وهكذا حذر القرآن الكريم العقل البشرى من الخضوع لقوى الكون، ومن التأثر بما كان يتوهم من مؤثرات خارقة لهذه القوى فى حياة الإنسان.

(٢) مبدأ تعليل الحوادث الكونية، والبحث عن أسبابها، وغاياتها، ونواميسها. لقد أوضح القرآن الكريم إلى مجالين لتكون فيها آيات ودلائل على توحيد الله وهما: آيات الله فى الآفاق، وآيات الله فى أنفسنا البشرية الإنسانية.

(٣) مبدأ تسخير قوى الكون للإنسان. لقد انقلب الإنسان من أسير الخرافات التى كانت تستعبد عقله الخاضع لقوى الكون إلى إنسان حكيم، يدرس ناموس الكون ونظامه ويتعرف على الحق الذى أقام الله به الكون وسنّ السنن والقوانين الكونية وذلك بفضل التربية القرآنية.

فالإنسان وإن كان لا يدرك بعقله كل أسرار الكون ولا يستطيع أن يصل إلى حقائقه مهما دأب فى الدرس والتحصيل إلا أن الله سبحانه وتعالى يعينه ويعلمه ويبصره بما يغمض عليه عندما يصدق الإنسان مع نفسه ويعرف حدوده ويؤمن أنه مخلوق ضعيف وأن هناك خالق عالم قادر رتب كل شىء فأحسن نظامه، وخلق كل شىء فأبدع صورته.

لقد خلق الله سبحانه وتعالى وفى الإنسان موهبة عظيمة، ومقدرة فذة.. تلك التى تستطيع أن تتجاوب مع روح الكون العميقة وتنظر فى خلق الله تعالى.

فالإنسان وحده دون الكائنات الكونية، الشاعر بنفسه وبالله عز وجل. ومن ثم كان هو التفسير الكامل للكون، أو هو المرتبة الجامعة لكل خصائص المرتبة التى تجلت فيها أسمى الحقائق، مرتبة الروح التى هى من روح الله، الروح الذى سجد له الملأ الأعلى وأحاط بما لم تحط به الملائكة، إذا علمه ربه الأسماء كلها.

إن الإنسان هو وحده بين المخلوقات القادر على أن يحول الصور الكونية إلى معان ومدارك عقلية هى مرآة هذا الوجود.

هذه القدرة الإلهية أو إن شئت فقل: هذه القدرة المبدعة الخالقة التى منّ بها الله

سبحانه وتعالى على الإنسان هى سره الأكبر، وبها وحدها، أصبحت للصور الكونية معانى ترجم عنها الإنسان وأبرزها فأصبح وحده الحلقة المفسرة للكون، أو اللوحة التى يتجلى فيها الكون، فتتجلى آيات الله الكبرى.

(٤) مبدأ حدوث الكون وأنه مخلوق خلقه الله لهدف وغاية. هذا الكون الجميل البديع الذى نعيش فيه. هذا الكون الحى المسبح الملهم، هذا الكون الذى سخر لنا، ووهبه الله سبحانه وتعالى مجالاً لعقولنا وأرواحنا، يجب أن نتذوقه، وأن نفهمه، وأن نحيط به علما.

وقد رأينا مصداق هذا المبدأ فى آيات الخلق. وهذا وراد فى قوله تعالى: ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لايعلمون﴾.

ويجدر بنا أن نوضح فى هذا المقام الآثار التربوية لهذا المبدأ نلخصها فى نقطتين:

إحداهما: ارتباط الإنسان بخالق الكون وخضوعه له، وتوحيده بالعبادة والخشوع.

والثانية: تربية الإنسان على الجد وطلب الحق فى كل ما يبحثه ويدرسه ويتعامل معه.

فالكون كله ظاهره وباطنه يتحرك مسبحًا بجلال الخالق الأعظم، متلهفا إلى بلوغ كماله بالتقديس والطاعة.

وهذا الوجود الجميل الرائع فى ترابطه واتساقه، وانسجام أجزائه كائن حى مؤتلف الخلايا والأعضاء والوظائف والغايات وتفيض بين جنباته الحياة والوعى، ومن وراء كل هذا تتجلى إرادة قادرة منظمة مبدعة.

والجدير بالذكر أن هذا الكون الذى نعيش بين أحضانه وثيق الصلة بنا. فكل شىء فى هذا الكون الفسيح من قوى وطاقات وروح وفكر وتصور وحركة نغمة فى لحن الوجود الأعظم.

فرسالتنا أن نتفهم هذا الكون وأن نحبه وأن نحيط عجائبه وأن نكشف عن كنوزه وطاقاته وأسراره ورموزه لنزداد علما وقوة وإيمانا. كذلك لابد للإنسان أن يتسامى ويرتفع عن طلب اللذات الزائلة ليستمتع بجمال الوجود فيتلاقى وجدانه العميق مع هذا الكون الفسيح.

من هنا يستغرق الإنسان فى هذا الجمال فيستمتع به لأنه يجد فى الجمال الكونى ثماراً يقتطفها من ينابيع الجمال المطلق. فالكون بديع وجميل، يحتاج منا إلى تأمل عميق للتعرف على بعض أسراره ونستشعر من جماله عظمة الخالق وحكمته. فسمات هذا الجمال الكونى تشهد ببديع خلق الله وجميل صنعته، وأن كل ما فى الكون يسبح بحمده ويشكر له.

(٥) خضوع الكون لسنن سنّها الله وفق مقادير قدرها. يجب أن نوضح لأصحاب العقول أن يعلموا أن كل حوادث الكون وتحركات الشموس والنجوم والأفلاك إنما تجرى وفق سنن

ثابتة وخطة رتبها الله سبحانه وتعالى منذ الأزل. وقد عبر علماء الطبيعة عن هذه السنن بالقوانين.

وإذا كنا نذكر فى هذا المقام القانون الطبيعى عند العلماء فإن هذا القانون من وضع البشر. لذلك نرى اختلافا واتفاقا بين مفهوم السنة الإلهية الكونية فى القرآن والقانون الطبيعى عند العلماء.

(٦) الكون مسير وقائم بقدرة الله، وكل ذلك مستمد من صفة الحياة والقيومية وهى من صفات الله الأزلية.

(٧) وحدة نظام الكون نتيجة لازمة لتوحيد الخالق. فالكون الذى نراه بهذا النظام والتناسق يدل على أن له إلها واحدا حكيما، جعله بهذا النظام والتنسيق. وهكذا تصبح وحدة تنظيم الكون نتيجة هامة ولازمة لتوحيد الخالق يعبر عنها المؤمن فى علاقاته بالأشياء والأفعال والأعمال.

فالمؤمن صاحب تجربة روحية ذوقية يستشعر الوجود من حوله من حقيقة التوحيد، والظفر بهذا المعنى هو قمة الإيمان.

سابعا: إن الهدف الرئيسى للقرآن الكريم هو أن يوقظ فى نفس الإنسان شعورا أسمى بما بينه وبين الخالق وبينه وبين الكون. فالخالق المبدع أنشأ كل شىء. وبلا شىء، وجعله فى أبهى حلله، وأجمل صورة، وجعل الحواس للإنسان ليستشعر بهذا الجمال المحيط به فى كل صورة، يتذوقه بما أودع الله فى نفسه من فطرة سليمة، ومن استعداد عجيب.

من هنا كان الإنسان على علاقة وثيقة بالكون الذى يعيش فيه لا يرى نفسه وحدة مستقلة، لا فى محيطه الإنسانى، ولا فى محيطه الكونى.

ويجدر بنا أن نوضح فى هذا المقام أنه لا خير ولا جمال ولا محبوب فى العالم إلا وهو حسنة من حسنات الله وأثر من آثار كرمه سواء أدرك هذا الجمال بالعقول أو بالحواس. ونخلص من ذلك إلى أن الجمالات الجزئية سواء أكانت حسية أم عقلية إنما تشارك فى الجمال الإلهى وترتبط به لأنها أثر من آثاره.

وهنا ينبغى أن نوضح أن جمال الله تعالى هو عبارة عن أوصافه العليا وأسمائه الحسنى. أما جلال الله تعالى عبارة عن ذاته بظهوره فى أسمائه وصفاته كما هى على الأجمال وأما على التفصيل فإن الجلال عبارة عن صفات العظمة والكبرياء والمجد والثناء. وكل جمال له فإنه حين يشتد ظهوره يسمى جلالا. كما أن كل جلال له فهو فى مبادرة ظهوره على الخلق يسمى جمالا.

من هنا قيل: إن لكل جمال جلالا، ولكل جلال جمالا. وعلى هذا فإن الخلق لا يظهر لهم من جمال الله تعالى إلا جمال الجلال أو جلال الجمال. وأما الجمال المطلق والجلال فإنه لا يكون شهوده إلا لله وحده.

كما أن الكون مدرسة لتنقية النفس وتهذيب الخلق، وإرشاد إلى معنى الجمال. إن النظرة العميقة بالتأمل والتدبر فى هذا الكون الفسيح كفيلة بأن تغذى مشارعنا بمعانى الجمال، وأن توسع مفهومنا للفنون الحقة فلا تجعلنا ننحصر فى الجمال المحسوس المحدود وإنما تحملنا على الانطلاق إلى تأمل الكون بكل ما فيه من جمال لنستشعره ونستمتع به ونعقله. وهذا هو ما يهدف إليه الإسلام.

فالكون كله ظاهره وباطنه يتحرك مسبحا بجلال الله الأعظم بالتقديس والطاعة. من هنا يشهد المحققون الكون وما فيه من مظاهر الجمال الذى سخر لنا فكان مجالا لعقولنا وقلوبنا وأرواحنا لتتذوقه وتتفهمه.

وإذا كنا نتحدث عن الجمال فى الإسلام فإنه ينبغى أن نوضح إذا كان الإنسان يتناول روحه بالرياضة والمعرفة والتجربة فإنه يتناول الكون أيضا بالرياضة والمعرفة والتجربة وكلما كوشف الإنسان عن جمال الكون زاد إيمانه بربه.

والإنسان وهو يحاول فهم هذا الكون والإحاطة ببدائعه وعجائبه وطاقاته وكنوزه لا يحركه الطمع المادى وإنما يبعثه ويحركه روح العقيد والمحبة. والمحبة فى هذا المقام إنما هى قوام كل شىء.

والإنسان من حيث فطرته الإنسانية مستأنس ألوف بما أودع فيه من الجمالات الحقيقية التى ميزته عن جميع الكائنات الأرضية.

ثامنًا: يدعو التفكر إلى العمل، وكذلك يدعو إلى الخير. ويبين الحق سبحانه وتعالى أن من يتفكر فى دلائل الله وآياته يهتدى إلى الحق. ولهذا نجد الإسلام يدعو باستمرار إلى التأمل والتفكر فى الموضوعات المختلفة، وفى المناظر المثيرة والمدهشة فى الكون. وفى المبادئ التى جاء بها.

فالعالم هو السلم إلى معرفة الله سبحانه وتعالى، كما أنه الحظ الإلهى المكتوب المودع المعانى الإلهية، والعقلاء على اختلاف طبقاتهم يقرونه حتى يستطيعون الوصول إلى الحكمة حسبما أورد الغزالى.

كما أن الإنسان هو المخلوق المتميز الذى خلق ليعبد الله، ولذلك انطوى تركيبه وتصويره على ما ميزه الله به، وكان لنا فى خلقنا وتنظيم حياتنا الجسدية والنفسية ما كان من آيات الله

وعجيب صنعه، نتأمل ذلك ونعتبر به ونشكر الله عليه، ونزكى أنفسنا كما أوصانا الله تعالى، وكما أحب لنا.

وإذا نظرنا إلى آيات الله فى أنفسنا نجد أنها تربى فينا القرب من الله سبحانه وتعالى، والشعور بفطرتنا الدينية، فطرة التعلق بالله والخوف من عقابه، والشوق إلى لقائه، والرغبة فى رحمته وثوابه، والخضوع لحكمه، واتقاء غضبه، وإخلاص العبودية والتبعية له ولدينه وشريعته، والشعور بالافتقار إلى كرمه ورزقه وفضله، والالتجاء إليه فى الشدائد.

تاسعًا: إذا نظرنا إلى الإنسان فى المنهج الإسلامى فإننا نجد أن الإسلام قد عرض الإنسان على حقيقته وبين أصله، فالحق تبارك وتعالى خلقه من طين، ثم نفخ فيه من روحه. وبذلك ميزه فى بدء خلقه وصوره فأحسن صورته، وخلق منه أنثاه حواء، وعلمه الأسماء، وأسجد له ملائكة السماء. ومن المهم أن نؤكد لذوى العقول أن الله سبحانه وتعالى سخر كل ما فى الوجود لخدمة الإنسان حتى الملائكة. والعقيدة الإسلامية تؤكد فى صراحة ووضوح بأن الإنسان مخلوق خلقه الله وحدثنا عن كيفية خلقه وتنشئته. والدليل على ذلك ما ساقه لنا القرآن الكريم فى أكثر من موضع يوضح أن الإنسان مخلوق خلقه الله عز وجل. وميزه عن غيره من الكائنات الأخرى؛ فقد منحه من المواهب والقدرات ما يسيطر به على ما حوله من الكائنات ويسخرها لمصلحته، ورزقه الله من الأغذية والمتع مالم يتح لغيره من الحيوانات. وقد سخر الله للإنسان كل ما فى الملك والملكوت، وصرفه تصريف الربوبية فى الملك، لذلك جعل الله الإنسان خليفة عنه فى هذا العالم، ووعده عند الاستقامة أعظم كرامة.

وكذلك تمياز الإنسان بقدرته على التمييز بين الخير والشر، بما غرس فى طبيعته من الاستعداد لهذا التمييز. وكذلك لم يترك الإنسان سدى. فهذا المخلوق الذى فضله الله بتركيبه وتصويره، والمتميز بما أوتى من قدرات ومواهب واستعدادت؛ إنما خلق كذلك لتسند إليه مهمة عظمى هى حمل الأمانة، والعمل بشريعة الله وتبليغها.

ولما كان الإنسان هو صورة الكون أجمع، وهو المقصود بالذات من كل الكائنات، كان لابد له أن يعرف الله بقدر ما أهله الله لمعرفته. من هنا جاءت الأوامر القرآنية للإنسان بأن يكون كبير النفس عن التشبه بما هو دونه من أنواع الحيوانات، وأن يرتفع عن شهواته وحظوظه ملتزما بتنفيذ الأمر الإلهى وأن يعمل بما يرضى الله عز وجل، وترضاه النفوس الطاهرة الزكية، فيكون الإنسان خليفة فى الأرض، عزيزا بالله، ذليلا له سبحانه وتعالى.

ولاشك أن هذه النظرة التى ينظر بها للإنسان من خلال العالم، وكذلك العالم من خلال الإنسان تنسجم مع مفهوم الشريعة الإسلامية فى دعوتها إلى التأمل والتفكر والتدبر فى بديع صنع الله سبحانه وتعالى.

ومن هنا نستطيع القول بأنه لا يمكن أن تقوم دراسة الإنسان منفصلة عن العالم. كما أن الإنسان هو المقصود من العالم كله، لأن الله خلقه بعد خلق الكائنات فهو زبدة الموجودات وخلاصتها. ولقد خلق الإنسان من أجل غاية وهى العبودية المطلقة لله تعالى.

ومن هنا أيضا كان الواجب على الإنسان أن يعرف هذه الغاية. فالعبودي المطلقة لله تعالى معناها الإخلاص لله فى النية والقول والعمل. ومن معانى العبودية الخضوع والانقياد لحكم الله، والتزام المنهج الإسلامى. من هنا كان لأصحاب العقول أن يبحثوا طرق النظر فى علم مبدع الكون ومنشىء العقول والأفكار، ومصدر المعارف والعلوم.

لذلك نجد أن الناظر إلى الفتوحات الربانية، والمتطلع إلى المعارف اللدنية عليه مجهودات لابد من بذلها، وفى طريقة عقبات لا مناص من تخطيها، وأمامه درجات لا مفر من الصعود إليها. وأول تلك المجهودات التخلص من عبودية البدن.

والحقيقة التى ينبغى التفطن إليها أن القرآن الكريم احتوى على آية واحدة من آياته البينات. وأن هذه الآية جمع فيها ما انتشر، وتركز فيها ما تفرق، وأجمل ما فصل، وهى قوله تعالى: ﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ «فصلت: ٥٣».

ولا ريب أن ما فى الآفاق هو ما ينظرون إليه، ثم ينظرون فيه، أو ما يشاهدونه بعين البصر، ثم بعين الذهن، المعتمد على الحس، أو هو عالم الشهادة، أو ملك السموات والأرض، وأن ما فى أنفسهم هو المدرك بالشعور الباطن، أو بالعقل المجرد.

فمن نظر تفكر، ومن تفكر تدبر، ومن تدبر اعتبر، وصار سائحا فى قدس الأنوار.

لذلك كان من الواجب على الإنسان أن يطهر نفسه دائما لكى ينال السعادة الحقيقية فى القرب من الله تعالى. ويكون من العارفين الروحانيين. وهنا طريق المعرفة الحقيقية التى يصبح فيها المرء متدبراً حافظًا أنفاسه ولحظاته وأعماله، وكان حاضر القلب مع الله تعالى مخلصًا فى النيه فيمنحه القبول والإقبال.

نخلص من ذلك إلى أن الإنسان محل عناية الحق سبحانه وتعالى، فخلق له الكائنات جميعها، وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض، ولمعرفة هذه العناية يجب على الإنسان أن ينظر بعين التفكير والاعتبار إلى ما خلقه الله له وسخر له ليدرك أن الله سبحانه وتعالى عنى به عناية كبرى، حيث خلق له كل شىء موافقا لوجوده.

لذلك كان من الواجب على كل من أراد معرفة الله حق معرفته، أن يعرف جواهر الأشياء ليقف على الإبداع الحقيقى فى جميع الكائنات، لأن من لا يعرف حقيقة الشىء لم يعرف حقيقة الإبداع.

من هنا كان الواجب على الإنسان أن يفتح عين الفكر فى ضوء العبر. ويعرف أن الحق سبحانه وتعالى لم يكلفه شيئا إلا وعنده أدوات ذلك الفعل وله القدرة عليه.

فالعاقل من تأمل الأمور ورعاها. والحق سبحانه وتعالى صنف المخلوقات فأحسن التركيب، وأحكم الترتيب، ثم عرضها على الألباب، فأى لب أو غل فى النظر مدح على قدر فهمه. وكذلك أنزل القرآن يحتوى على عجائب الحكم، فمن فتشه بيد الفهم. وحادثه فى خلوة الفكر، استجلب رضى المتكلم به وحظى بالذلفى لديه.

ولاشك أن هذا لونٌ من التفكر والتأمل يدل على قمة التدبر للنفس. وبذلك يصبح الإنسان مظهرا لظهور أوصاف الربوبية وأوصاف العبودية.

ويترتب على ذلك فى ضوء ما أسلفنا أن الحياة الروحية هى تلك الحياة الخالصة لوجه الله بالتأمل فى آياته حتى تتخلص النفس من المرذولات وتتجمل بالأخلاق الفاضلة. حياة روحية للذهاب فى الله وسمو النفس سموًا أخلاقيًا. حياة روحية فى الهجرة إلى الله والفرار إليه. حياة روحية فى قصد التوجه بالنية الخالصة لوجه الله عز وجل.

تلك هى النتائج التى توصلنا إليها من خلال دراستنا لموضوع:

«الحياة الروحية فى الآيات الكونية». دراسة منهجية إسلامية.

وقد تكشف للباحث أن الطريق الصحيح لمعرفة الحياة الروحية أن نذهب إلى رسول الله ﷺ فى سنته لنتعلم منه ذلك. وأن يربط الإنسان ظاهره بباطنه، فيرتقى من حضيض الحس إلى أوج الروح وتنكشف له أسرار الملكوت. ولا شك أن هذا هو مفتاح التدبر.

وأرجو أن أكون قد وفقت فيما قدمت من أبواب هذا البحث، وفيما استخلصته من نتائج فى اضافة جديدة إلى ما عرف عن:

«الحياة الروحية فى الآيات الكونية». دراسة منهجية إسلامية.

كما أرجو أن يكون اسهاما منى فى هذا المجال. وهو ما وضعناه نصب أعيننا منذ بداية هذا البحث.

إن لى شرف الصواب فى كل ما أصبت فيه، كما أن لى شرف الخطأ إن جانبنى التوفيق فى شىء لأن لى عذر الباحث عن الحقيقة مع صدق القصد فى توخى السبيل إليها.

اللهم جنبنا الزلل، ووفقنا إلى خير القول والعمل، واختم بالصالحات أعمالنا. وأدخلنا برحمتك فى عبادك الصالحين. وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. والله نعم المستعان وعليه التكلان.

مراجع البحث

(ابن)

١ ـ **ابن الجوزى : (أبو الفرج جمال الدين)** : صيد الخاطر ، تحقيق عبد القادر عطا (القاهرة مكتبة الكليات الأزهرية ، د.ت).

٢ ـ **ابن الخطيب : (لسان الدين بن الوزير)** : روضة التعريف بالحب الشريف ، تحقيق عبد القادر عطا (القاهرة : ط١ ، ١٣٨٦هـ).

٣ ـ **ابن المبارك : (عبدالله)** : الزهد والرقائق ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمى (القاهرة : دار عمر بن الخطاب ، د.ت).

٤ ـ **ابن الصباغ : (محمد بن أبى القاسم الحميرى)** : درة الأسرار وتحفة الأبرار (تونس : المطبعة التونسية ، ١٣٠٤هـ).

٥ ـ **ابن تيمية : (تقى الدين أبى العباس أحمد بن عبد الحليم)** : العبودية (القاهرة : مطبعة الحلبى ، ١٢٢٣هـ).

٦ ـ **ابن تيمية** : مجموعة الرسائل والمسائل (القاهرة : المطبعة الشرفية ، ١٣٢٣هـ).

٧ ـ **ابن حجر العسقلانى : (أبو الفضل أحمد بن على)** : الاستعداد ليوم الميعاد (بيروت ، لبنان : مؤسسة المعارف ، ط١ ، ١٤٠٥هـ).

٨ ـ **ابن رجب الحنبلى : (زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن)** : جامع العلوم والحكم (القاهرة : مطابع الأهرام التجارية ، ١٩٦٩م).

٩ ـ **ابن رجب الحنبلى** : كشف الكربة فى وصف حال أهل الغربة ، تحقيق أسامه حمزه ، العدد الرابع (القاهرة : دار الفتح ، د.ت).

١٠ ـ **ابن عباد الرندى** : غيث المواهب العليه فى شرح الحكم العطائية ، تحقيق عبد الحليم محمود ، ومحمود بن الشريف (القاهرة : دار الكتب الحديثة ، ١٩٧٠م).

١١ ـ **ابن عبدالله الباهلى الأشبيلى** : الذخائر والأعلاق فى آداب النفوس ومكارم الأخلاق (القاهرة : المطبعة الوهبية ، ١٢٩٨هـ).

١٢ ـ **ابن عجيبة : (أحمد بن محمد)** : الفتوحات الإلهية فى شرح المباحث الأصلية ، تحقيق عبد الرحمن حسن محمود (القاهرة : دار الشباب للطباعة ، د.ت).

١٣ ـ **ابن عجيبة** : إيقاظ الهمم فى شرح الحكم (القاهرة: مطبعة الحلبى، ط٣، ١٤٠٢هـ).
١٤ ـ **ابن عربى : (محيى الدين)**: الموعظة الحسنة (القاهرة : عالم الفكر، ١٩٨٧م).
١٥ ـ **ابن عربى** : اصطلاحات الصوفية، ضمن رسائل ابن عربى، تعليق عبد الرحمن حسن محمود (القاهرة: عالم الفكر، ١٤٠٧هـ).
١٦ ـ **ابن عطاء الله السكندرى: (أبو الفضل تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم)**: التنوير فى إسقاط التدبير (القاهرة: مطبعة صبيح، ء.ت).
١٧ ـ **ابن عطاء الله السكندرى**: الحكم بشرح عبدالله الشرقاوى (القاهرة: مطبعة صبيح، ء.ت).
١٨ ـ **ابن عطاء الله السكندرى**: الحكم بشرح محمد مصطفى أبو العلا (القاهرة : مكتبة الجندى، ء.ت).
١٩ ـ **ابن عطاء الله السكندرى**: لطائف المنن فى مناقب الشيخ أبى العباس المرسى وشيخه الشاذلى (القاهرة: مكتبة القاهرة: الطبعة الأخيرة، ١٣٩٩هـ).
٢٠ ـ **ابن قدامه المقدسى : (أحمد بن عبد الرحمن)**: مختصر منهاج القاصدين، تقديم محمد أحمد دهمان، تعليق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط (القاهرة: دار التراث، ط٤، ١٣٩٨هـ).
٢١ ـ **ابن قيم الجوزية: (أبو عبدالله محمد بن أبى بكر)**: طريق الهجرتين وباب السعادتين (القاهرة: المكتبة السلفية، ء.ت).
٢٢ ـ **ابن قيم الجوزية** : مدارج السالكين (القاهرة: مطابع التراث العربى، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ).
٢٣ ـ **ابن كثير** : التفسير (القاهرة : المطبعة التوفيقية، ١٤٠٠هـ).

(أبو)

٢٤ ـ **أبو العزائم : (محمد ماضى)** : الإسلام دين الله (القاهرة: دار الكتاب الصوفى، ط٣، ١٤١٣هـ).
٢٥ ـ **أبو العزائم: (محمد ماضى)** : الطريق إلى الله (القاهرة: دار المدينة المنورة، ط٢، ١٤٠٥هـ).
٢٦ ـ **أبو العزائم : (محمد ماضى)**: الفتوحات الربانية (القاهرة: دار المدينة المنورة، ط٤، ١٤١٠هـ).
٢٧ ـ **أبو العزائم : (محمد ماضى)**: النور المبين لعلوم اليقين ونيل السعادتين (القاهرة : دار المدينة المنورة، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ).

٢٨ ـ **أبو العزائم : (محمد ماضى)** : أدعية الغفران فى شهر رمضان (القاهرة: دار الزهراء، ط١، ١٣٩٣هـ).
٢٩ ـ **أبو العزائم : (محمد ماضى)**: أسرار القرآن (القاهرة: دار المدينة المنورة، ط١، ١٤٠٤هـ).
٣٠ ـ **أبو العزائم : (محمد ماضى)** : إنسان المؤمنين وإنسان الملحدين (القاهرة: دار الكتاب الصوفى، ط١، ١٤١٤هـ).
٣١ ـ **أبو العزائم : (محمد ماضى)** : حديث الجمعة (القاهرة: دار المدينة المنورة، ط١، ١٤٠٢هـ).
٣٢ ـ **أبو العزائم : (محمد ماضى)**: ديوان ضياء القلوب (القاهرة: دار الكتاب الصوفى، المجلد الأول، ط٢، ١٤١١هـ).
٣٣ ـ **أبو العزائم : (محمد ماضى)**: ديوان ضياء القلوب (القاهرة : دار الكتاب الصوفى، المجلد الثانى، ط٢، ١٤١٢هـ).
٣٤ ـ **أبو العزائم : (محمد ماضى)**: ديوان ضياء القلوب (القاهرة : دار الكتاب الصوفى، المجلد الثالث، ط٣، ١٤١٣هـ).
٣٥ ـ **أبو العزائم : (محمد ماضى)**: ديوان ضياء القلوب (القاهرة : دار الكتاب الصوفى، المجلد الرابع، ط٤، ١٤١٤هـ).
٣٦ ـ **أبو العزائم : (محمد ماضى)**: شراب الأرواح من فضل الفتاح (القاهرة: دار المدينة المنورة، ط٣، ١٤٠٧هـ).
٣٧ ـ **أبو العزائم : (محمد ماضى)**: عقيدة النجاة (القاهرة: دار المدينة المنورة، ط٤، ١٤٠٣هـ).
٣٨ ـ **أبو العزائم : (محمد ماضى)**: مذكرة المرشدين (القاهرة: دار الكتاب الصوفى، ١٤١٤هـ).
٣٩ ـ **أبو العزائم : (محمد ماضى)**: مشارق البيان فى فضل شعبان (القاهرة: دار الكتاب الصوفى، ط٢، ١٤٠٦هـ).
٤٠ ـ **أبو العزائم : (محمد ماضى)**: معارج المقربين (القاهرة: دار الكتاب الصوفى، ط٣، ١٤١٤هـ).
٤١ ـ **أبو العزائم : (محمد ماضى)**: من جوامع الكلم (القاهرة: دار المدينة المنورة، ط٣، ١٤٠٨هـ).

٤٢ ـ **أبو العزائم: (محمد ماضى)**: وسائل إظهار الحق (القاهرة: دار الكتاب الصوفى، ط٥، ١٤١٣هـ).

٤٣ ـ **أبو الوفا الغنيمى التفتازانى**: الإنسان والكون فى الإسلام (القاهرة: دار الثقافة، ١٩٧٥م).

٤٤ ـ **أبو الوفا الغنيمى التفتازانى**: محاضرات فى التصوف الإسلامى (القاهرة: مطبعة المدنى، ١٩٨٠م).

٤٥ ـ **أبو سعيد الخراز**: كتاب الصدق أو الطريق إلى الله، تحقيق عبد الحليم محمود (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٩م).

٤٦ ـ **أبو طالب المكى**: قوت القلوب (لبنان: دار صادر، د.ت).

٤٧ ـ **أبو نصر السراج الطوسى**: اللمع، تحقيق عبد الحليم محمود، وطه عبد الباقى سرور (القاهرة: لجنة التراث الصوفى، مطبعة السعادة، ١٣٨٠هـ).

٤٨ ـ **أبو نعيم الأصبهانى: (أحمد بن عبدالله)**: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٣٩٩هـ).

(ال)

٤٩ ـ **الجيلانى: (عبد القادر)**: الغنية لطالبى طريق الحق (القاهرة: مطبعة الحلبى، ط٣، ١٣٧٥هـ).

٥٠ ـ **الجيلى: (عبد الكريم)**: الإنسان الكامل فى معرفة الأوائل والأواخر (القاهرة: مطبعة الحلبى الطبعة الرابعة، ١٤٠٢هـ).

٥١ ـ **السلمى (أبو عبد الرحمن)**: أصول الملامتية وغلطات الصوفية، تحقيق عبد الفتاح الفاوى محمود (القاهرة: مطبعة الارشاد، ١٤٠٥هـ).

٥٢ ـ **السلمى**: طبقات الصوفية، يسره ورتبه أحمد الشرباصى (القاهرة: مطابع الشعب، ١٣٨٠هـ).

٥٣ ـ **السمرقندى: (نصر محمد بن إبراهيم)**: تنبيه الغافلين (القاهرة: مطبعة الحلبى، د.ت).

٥٤ ـ **السيد المنوفى**: التصوف الإسلامى الخالص (القاهرة: مطبعة نهضة مصر، ١٩٧٩م).

٥٥ ـ **السيوطى: (جلال الدين)**: صون المنطق والكلام، نشر وتعليق على سامى النشار (القاهرة: مطبعة الخانجى، ١٩٤٧م).

٥٦ ـ **الشعرانى: (عبد الوهاب)**: الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية، تحقيق عبد البارى محمد داود رسالتنا لدرجة الماجستير (الإسكندرية: كلية الآداب جامعة الإسكندرية، ١٩٨٧م).

٥٧ ـ **الشعرانى**: الأنوار القدسية فى بيان آداب العبودية، هامش الطبقات الكبرى للشعرانى (القاهرة: مطبعة صبيح، د.ت).

٥٨ ـ **الشعرانى**: الطبقات الكبرى (القاهرة: مطبعة صبيح، د.ت).

٥٩ ـ **الشعرانى**: الكوكب الشاهق فى الفرق بين المريد الصادق وغير الصادق، تحقيق حسن الشرقاوى (الإسكندرية: دار المعارف، ١٩٨٢م).

٦٠ ـ **الشعرانى**: لطائف المنن والأخلاق، تحقيق عبد الحليم محمود (القاهرة: طبعة القاهرة الثانية، ١٣٩٦هـ).

٦١ ـ **الغزالى: (أبو حامد)**: الدرة الفاخرة فى كشف علوم الآخرة، تحقيق محمد مصطفى أبو العلا (القاهرة: مكتبة الجندى، د.ت).

٦٢ ـ **الغزالى**: الرسالة اللدنية، ضمن رسائل الإمام الغزالى، تحقيق محمد مصطفى أبو العلا (القاهرة: مكتبة الجندى، ١٣٩٢هـ).

٦٣ ـ **الغزالى**: المرغوب من مكاشفة القلق (القاهرة: مطبعة الشمرلى، ١٩٨١م).

٦٤ ـ **الغزالى**: إحياء علوم الدين (القاهرة: مطبعة الحلبى، د.ت).

٦٥ ـ **الغزالى**: رسالة فى بيان معرفة الله، ملحق الاقتصاد والاعتقاد للغزالى، تحقيق محمد مصطفى أبو العلا (القاهرة: مكتبة الجندى، د.ت).

٦٦ ـ **الغزالى**: الجواهر الغوالى، كيمياء السعادة، ضمن رسائل الإمام الغزالى (القاهرة: مطبعة السعادة، ط١، ٣، ١٣هـ).

٦٧ ـ **الغزالى**: الأربعين فى أصول الدين، تحقيق محمد مصطفى أبو العلا (القاهرة: مكتبة الجندى، ١٣٩٠هـ).

٦٨ ـ **الغزالى**: المحبة والشوق والأنس والرضا (القاهرة: مطبعة الحلبى، ط١، ١٣٨٠هـ).

٦٩ ـ **الغزالى**: روضة الطالبين وعمدة السالكين، ضمن رسائل الإمام الغزالى، تحقيق محمد مصطفى أبو العلا (القاهرة: مكتبة الجندى، ١٣٩٢هـ).

٧٠ ـ **الغزالى**: مكاشفة القلوب، تقديم محمد رشيد القبانى (القاهرة: مكتبة الزهراء، ط١، ١٤٠٣هـ).

٧١ ـ **القشيرى: (أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن)**: الرسالة (القاهرة: مطبعة صبيح، د.ت).

٧٢ ـ **الكلاباذى: (أبو بكر محمد)**: التعرف لمذهب أهل التصوف، تحقيق محمد أمين النواوى (القاهرة: طبعة القاهرة الثانية، ١٤٠٠هـ).

٧٣ ـ **المحاسبى: (الحارث بن أسد)**: النوهم (القاهرة: دار الوعى، ١٣٩٩هـ).

٧٤ـ **الحاسبى** : الرعاية لحقوق الله، تحقيق عبد الحليم محمود (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٤م).

٧٥ـ **للحاسبى** : القصد والرجوع إلى الله، تحقيق عبد القادر عطا (القاهرة: دار التراث العربى، ط١، ١٤٠٠هـ).

٧٦ـ **المحاسبى** : المسائل فى الزهد، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا (القاهرة: مكتبة التراث، ء.ت).

٧٧ـ **المناوى: (عبد الرؤوف)**: الكواكب الدرية (القاهرة: طبعة القاهرة الأولى، ١٣٥٧هـ).

٧٨ـ **البنهانى : (يوسف بن إسماعيل)**: الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية (القاهرة: المطبعة اليمنية، ١٣١٢هـ).

٧٩ـ **النووى: (زكريا محيى الدين)**: رياض الصالحين (القاهرة : دار إحياء الكتاب العربية، ١٣٧٥هـ).

٨٠ـ **اليافعى: (عبدالله بن أسعد اليمنى)** : الدر النظيم فى خواص القرآن الكريم (القاهرة: مطبعة الجمهورية العربية بدون تاريخ).

(ح)

٨١ـ **حسن محمد الشرقاوى**: الأخلاق الإسلامية (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥م).

٨٢ـ **حسن محمد الشرقاوى**: التربية النفسية (مكة المكرمة: رابطة العالم الإسلامى، ١٤٠٢هـ).

٨٣ـ **حسن محمد الشرقاوى**: الجدل فى القرآن (الإسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٨٦م).

٨٤ـ **حسن محمد الشرقاوى**: الذين ينكرون القدوة: (الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٦م).

٨٥ـ **حسن محمد الشرقاوى**: المسلمون علماء وحكماء (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ء.ت).

٨٦ـ **حسن محمد الشرقاوى**: ألفاظ الصوفية ومعانيها (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ط٢، ء.ت).

٨٧ـ **حسن محمد الشرقاوى**: نحو تربية إسلامية (الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٣م).

٨٨ـ **حسن محمد الشرقاوى**: فلسفة الجمال (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ء.ت).

٨٩ـ **حسين فؤاد طلبه**: التدبر فى مخلوقات الله. مقال منشور بمجلة منبر الإسلام، مارس، ١٩٧٦م.

(ز)

٩٠ـ **زروق : (أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد)** : شرح حكم ابن عطاء الله، تحقيق عبد الحليم محمود، ومحمود بن الشريف (ليبيا: طرابلس: مطبعة النجاح، ١٩٦٩م).

(س)

٩١ـ **سليمان بن سحمان** : منهاج أهل الحق والإتباع (القاهرة: دار مروان، ١٤٠١هـ).

(ص)

٩٢ـ **صالح الجعفرى** : المعانى الرقيقة على الدرر الدقيقة المستخرجة من بحر الحقيقة (القاهرة: دار جوامع الكلم، ء.ت).

(ط)

٩٣ـ **طه عبد الباقى سرور**: من أعلام التصوف فى الإسلام (القاهرة: مطبعة نهضة مصر، ء.ت).

(ع)

٩٤ـ **عباس المسيرى**: اليوجا والرهبنه والتصوف (القاهرة: مطبعة الأنجلو، ١٩٨٣م).

٩٥ـ **عبد البارى محمد داود** : الإرادة عند المعتزلة والأشاعرة. دراسة فلسفية إسلامية (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٦م).

٩٦ـ **عبد البارى محمد داود** : السياحة فى الإسلام (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٦م).

٩٧ـ **عبد البارى محمد داود**: الفتوحات الربانية فى الآيات القرآنية (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٩٦م).

٩٨ـ **عبد البارى محمد داود** : الفناء عند صوفية المسلمين والعقائد الأخرى. دراسة مقارنة (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٦م).

٩٩ـ **عبد البارى محمد داود**: القدوة الصالحة وأثرها فى تنشئة الطفل (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٩٦م).

١٠٠ـ **عبد البارى محمد داود** : دراسة إسلامية عند المتكلمين والفلاسفة والصوفية (القاهرة: دار النهضة العربية، ط١، ١٩٩٤م).

١٠١ـ **عبد البارى محمد داود** : الجمال عند الصوفية، بحث منشور بالكتاب التذكارى بكلية دار العلوم جامعة القاهرة المؤتمر الأول للفلسفة الإسلامية، ١٩٩٦م.

١٠٢ـ **عبد البارى محمد داود**: سيكولوجية الصمت. بحث منشور بمجلة كلية الآداب جامعة بنها العدد الثالث لسنة ١٩٩٤م.

١٠٣ ـ **عبد البارى محمد داود**: سيكولوجية الطفل فى إطار المنهج الإسلامى، بحث منشور بالمركز القومى لثقافة الطفل، المجلد العاشر، لسنة ١٩٩٤م.
١٠٤ ـ **عبد البارى محمد داود**: الإنسان بين زاجر الدين وسلطان الشهوة، مقال منشور بجريدة الجمهورية بجمهورية اليمن العدد ٩٩٤٩ بتاريخ ٢٥/ ١٠/ ١٩٩٦م.
١٠٥ ـ عبد **البارى محمد داود**: الصراع بين الحق والباطل، مقال منشور بجريدة الجمهورية بجمهورية اليمن العدد ٩٩٥٩ بتاريخ ٤/ ١١/ ١٩٩٦م.
١٠٦ ـ **عبد البارى محمد داود**: الغاية من خلق الإنسان ومعرفة الشباب لها، مقال منشور بجريدة الجمهورية، بالجمهورية اليمنية، العدد ٩٩٧٠ بتاريخ ١٥/ ١١/ ١٩٩٦م.
١٠٧ ـ **عبد البارى محمد داود**: بين الربوبية والعبودية، مقال منشور بمجلة التصوف الإسلامى، نوفمبر ١٩٩٤م.
١٠٨ ـ **عبد الحليم محمود**: الإسراء والمعراج (القاهرة: دار المعارف، ط٥، ء.ت).
١٠٩ ـ **عبد الحليم محمود**: الرسول ﷺ (القاهرة: دار التراث العربى، ١٩٧٧م).
١١٠ ـ **عبد الحليم محمود**: الفتاوى (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٩م).
١١١ ـ **عبد الحليم محمود**: القرآن والنبى (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٩م).
١١٢ ـ **عبد الحليم محمود**: المدرسة الشاذلية (القاهرة: دار النصر للطباعة، ء.ت).
١١٣ ـ **عبد الحليم محمود**: أبو مدين الغوث (القاهرة: دار المعارف، ء.ت).
١١٤ ـ **عبد الحليم محمود**: دلائل النبوة ومعجزات الرسول (القاهرة: دار الإنسان، ط٢، ١٤٠٤هـ).
١١٥ ـ **عبد الحليم محمود**: فاذكرونى أذكركم (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٩م).
١١٦ ـ **عبد الرحمن الصفورى**: نزهة المجالس ومنتخب النفائس (القاهرة: مطبعة الفتح، ١٩٧٩م).
١١٧ ـ **عبد الرحمن النحلاوى**: من أساليب التربية الإسلامية، التربية بالآيات (بيروت: دار الفكر المعاصر، ط١، ١٤٠٩هـ).
١١٨ ـ **عبد الرحمن بدوى**: تاريخ التصوف الإسلامى (الكويت: وكالة المطبوعات، ط٢، ١٩٧٥م).
١١٩ ـ **عبد العزيز الدیرینی**: طهارة القلوب والخضوع لعلام الغيوب، تحقيق محمد على إبراهيم داود (القاهرة: طبعة القاهرة الأخيرة، ١٣٩١هـ).
١٢٠ ـ **عبد الحفيظ على القرنى**: ابن عربى (القاهرة: دار الكتاب العربى، ١٩٦٨م).

١٢١ ـ **عبد العظيم بسيونى**: الإسلام والسياحة (القاهرة: دار الهنا للطباعة، ١٩٨٧م).
١٢٢ ـ **عبد القادر محمود**: الفلسفة الصوفية فى الإسلام (القاهرة: دار الفكر العربى، ١٩٦٦م).
١٢٣ ـ **عبيد الضرير**: نزهة الناظرين فى الأخبار المروية عن الأنبياء والصالحين. (القاهرة: مطبعة الحلبى، ط٣، ١٣٧٣هـ).
١٢٤ ـ **على سامى النشار**: نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام (الإسكندرية: دار المعارف، ١٩٦٥م).
١٢٥ ـ **عماد الدين الأموى**: حياة القلوب فى كيفية الوصول إلى المحبوب، هامش قوت القلوب لأبى طالب المكى (بيروت: دار صادر، ء.ت).

(ك)

١٢٦ ـ **كامل سعفان**: سبحان الله (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٠م).

(م)

١٢٧ ـ **محمد أبو زهرة**: تاريخ المذاهب الإسلامية فى السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية (القاهرة: دار الفكر العربى، ء.ت).
١٢٨ ـ **محمد إسماعيل إبراهيم**: قاموس الألفاظ والأعلام القرآنية (القاهرة: دار الفكر العربى، ١٣٨١هـ).
١٢٩ ـ **محمد جلال شرف**: دارسات فى التصوف الإسلامى (الإسكندرية: دار الفكر الجامعى، ء.ت).
١٣٠ ـ **محمد حافظ سليمان**: اقرأ باسم ربك الذى خلق، مقال منشور بمجلة منبر الإسلام، مارس، ١٩٨١م.
١٣١ ـ **محمد حسين هيكل**: حياة محمد (القاهرة: دار المعارف، ط١٦، ١٩٨١م).
١٣٢ ـ **محمد سعيد رمضان البوطى**: فقه السيرة (دمشق، الطبعة السابعة، ١٩٧٧م).
١٣٣ ـ **محمد سلامة محمد الغبارى**: مدخل علاجى جديد لانحراف الأحداث (الإسكندرية: المكتب الجامعى الحديث، ١٤٠٦هـ).
١٣٤ ـ **محمد شاهين حمزه**: السيدة نفسية (القاهرة: مطبعة الجندى، ط٢، ١٩٧٠م).
١٣٥ ـ **محمد عبده**: رسالة التوحيد (القاهرة: مكتبة القاهرة، ط١٨، ١٣٨٥هـ).
١٣٦ ـ **محمد على أبو ريان**: فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجميلة (الإسكندرية: دار الجامعات المصرية، ١٩٧٧م).

١٣٧ ـ **محمد على قطب**: خمسون نصيحة نبوية من الرسول ﷺ (القاهرة : مكتبة القرآن، مطبعة المدينة، ١٩٨٣م).

١٣٨ ـ **محمد غلاب** : هذا هو الإسلام (القاهرة: مطابع الشعب، ١٩٥٩م).

١٣٩ ـ **محمد مصطفى حلمى** : الحب الإلهى فى التصوف الإسلامى (القاهرة: دار القلم، ١٩٦٠م).

١٤٠ ـ **محمد مصطفى حلمى**: الحياة الروحية فى الإسلام (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م).

١٤١ ـ **محمد مصطفى** : المقامات والأحوال، دراسات عن الجنيد البغدادى (القاهرة: دار الطباعة المحمدية، ١٤٠٨هـ).

١٤٢ ـ **محمد مصطفى** : دراسات عن الجنيد البغدادى (القاهرة: دار الطباعة المحمدية، ١٤٠٧هـ).

١٤٣ ـ **محمد محمود مصطفى عميره** : جوانب من عظمة الرسول (القاهرة: دار الجيل للطباعة، ١٩٨٧م).

١٤٤ ـ **محمود محمد عماره** : تربية الأولاد فى ظل الإسلام (القاهرة: دار التراث العربى، ط٢، ١٤٠٥هـ).

١٤٥ ـ **محمود بن الشريف**: الحب فى القرآن (بيروت: دار الهلال ، ط١، ١٩٨٣م).

١٤٦ ـ **محمود شكرى**: شرح وتفسير كلمات القرآن الكريم (القاهرة : مكتبة التراث، ١٩٨٥م).

١٤٧ ـ **محمود شلتوت**: الإسراء تثبيت وتكريم، مقال منشور بمجلة منبر الإسلام، العدد التاسع والعشرون لسنة ١٣٥٥هـ.

١٤٨ ـ **محمود وفا الشاذلى** : نفائس العرفان من أنفاس الرحمن (القاهرة: مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١١٩٣، تصوف ، طلعت).

١٤٩ ـ **مصطفى حلمى**: الزهاد الأوائل (الإسكندرية: دار الدعوة للطباعة والنشر، ١٤٠٠هـ).

(ى)

١٥٠ ـ **يوسف البدرى** : سورة يس (القاهرة : دار الاعتصام ، د.ت).

الفهـــرس

مقدمة عامة ٥

الباب الأول : الحياة الروحية فى الإسلام ١٣

الفصل الأول : فصل تمهيدى ١٤

الفصل الثانى : الحياة الروحية عند الرسول ﷺ ١٧

الفصل الثالث : الحياة الروحية عند الصحابة ٣٣

الفصل الرابع : هجرة الأبدان امتداد لهجرة القلوب ٤٠

الفصل الخامس : الحياة الروحية عند التابعين ٥٠

الباب الثانى : النظر والتدبر فى الكون ٥٧

الفصل الأول : الإنسان والكون ٦٠

الفصل الثانى: حكمة الله وقدرته فى الكون ٧٠

الفصل الثالث : الآيات الظاهرة للتفكر والتأمل والتدبر ٧٦

الفصل الرابع: التفكر فى الأيام وغيرها ٨٢

الفصل الخامس : أسس البحث فى آيات الله الكونية ٨٧

الفصل السادس : تصنيف الآيات الكونية ١٠١

الفصل السابع : الجمال الكونى ١٠٧

الباب الثالث : حقيقة التفكر وثمرته ١٣٧
الفصل الأول : باب التفكر ١٣٨
الفصل الثانى : التفكر والاعتبار ١٨٣
الفصل الثالث : طرق المعرفة إلى الحقائق الكونية ١٩٣
الفصل الرابع : المشاهدات الكونية ٢٠٥
نتائج عامة للبحث ٢١٣
مراجع البحث ٢٣٣

AL-MOSTAFA.COM